

MÂAREF

Revue académique

تصدر عن جامعة أكلي محند أولحاج بالبويرة (UAMOB)

partie n°2 :

القسم الثاني :

Lettres et Sciences Humaines et Sociales الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

معارف

مجلة علمية محكمة

Numéro : 13

العدد : الثالث عشر / 13

Décembre

شهر : ديسمبر

7^{EME} Année : 2012

السنة السابعة : 2012

DIRECTEUR de Publication:

المدير مسؤول النشر :

Pr. Kamel BADDARI

أ. د. كمال بداري

Rédacteur en chef:

رئيس التحرير :

kamel edine KARI

د . كمال الدين قاري

membres de Redaction:

أعضاء هيئة التحرير :

Rachid FERRAH

د . رشيد فراح

Rabah MELLOUK

د . رابح ملوك

Nacer HAMOUDI

د . ناصر حمودي

Fatma MESSANI

د . فاطمة مساني

ISSN : 1112 -7007 : الإيداع القانوني

026930924 : ☎

026938843 : مكتب : 227 165 ☎

موقع الجامعة على الانترنت : www.univ-bouira.dz

البريد الإلكتروني لرئيس التحرير: Karikamal2008@yahoo.fr

جامعة أكلي محند أولحاج

البويرة. الجزائر

Université Akli Mohand Oulhadj (UAMOB)

BOUIRA - ALGERIE



- معايير النشر في المجلة :

- يشترط في البحوث والمقالات التي تنشر في مجلة معارف ما يأتي :
- 1 - أن يكون البحث مبتكراً أو أصيلاً ، ويشكل إضافة نوعية في اختصاصه .
 - 2 - أن تتوفر فيه الأصالة والعمق وصحة الأسلوب .
 - 3 - ألا يكون قد سبق نشره .
 - 4 - أن يلتزم بالقيم الإنسانية وبمعايير البحث العلمي وبخاصة ما يلي :
 - أ - الابتعاد عن التجريح والإسفاف في القول ، والتعريض بالآخرين .
 - ب - مراعاة البنية المنهجية .
 - ج - ترقيم الهوامش والإحالات تكون إما أسفل النص في نفس الصفحة ، أو في آخر المقال ، مستقلة عن قائمة المصادر والمراجع .
 - د - إعداد قائمة بمصادر البحث ومراجعته .
 - 5 - أن تكون مكملات البحث من خرائط أو جداول في صورتها الأصلية .
 - 6 - أن يكون البحث المترجم مصحوباً بأصله المترجم عنه .
 - 7 - أن يقدم لإدارة المجلة مطبوعاً على الورق ومخزناً في قرص مدمج CD أو في وسيلة من وسائل استقباله في جهاز الحاسوب .
 - 8 - أن تقدم سيرة ذاتية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث .
 - 9 - عدد كلمات البحوث النظرية بين 3000 و 5000 كلمة حسب المقاييس الدولية ، أي (بين 10- 20 صفحة بمعدل 300 كلمة / صفحة) فيرجى التقيد بذلك .
 - 10- ترفق بالبحث ملخصات باللغات الثلاث (العربية والفرنسية والانجليزية) بما لا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل لغة .

مع ملاحظة أن البحوث والمقالات :

- تخضع للتقويم العلمي واللغوي ويعلم الباحث بالنتيجة ، كما أنها تخزن في أرشيف المجلة ، ولا ترجع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
- وهي تعبر عن آراء كتابها وحدهم ، فهم المسؤولون عن صحة المعلومات وأصالتها ، ولا تتحمل الإدارة أي مسؤولية في ذلك .

الهيئة الاستشارية الدولية:

أ.د. أبو القاسم سعد الله (الجزائر)	أ.د. عبد الحميد هيمة (ورقلة)	أ.د. برهان النفاثي (تونس)
أ.د. عمار بن خروف (البويرة)	أ.د. عزيز سلامي (الجزائر)	أ.د. عبد القادر فيدوح (البحرين)
أ.د. الطيب بودريالة (باتنة)	أ.د. عمر صدوق (تيزي وزو)	أ.د. عبد الله بلحاج (تونس)
أ.د. الطيب بلعربي (الجزائر)	أ.د. كمال لدراع (قسنطينة)	أ.د. محمد كريم الكوازي (العراق)
د. أحمد رميتة (الجزائر)	أ.د. محمد بومخلوف (الجزائر)	أ.د. أحمد بوحسن (المغرب)
د. محمد سرور (البويرة)	د. محمد جلاوي (البويرة)	أ.د. محمد الحيدروسي (الأردن)
أ.د. أحمد دوقة (الجزائر)	د. منير نوري (الشلف)	أ.د. محمد الزحيلي (سورية)
د. جمال عباس (البويرة)	أ.د. محمد بوجلال (المسيلة)	أ.د. محمد آيت المكي (المغرب)
أ.د. رشيد بوسعادة (الجزائر)	أ.د. محمد شيبان (البويرة)	أ.د. مصطفى بن رابعة (ليبيا)
د. سالم سعدون (البويرة)	أ.د. محند اعمروش (البويرة)	
د. عبد الرحمن عيساوي (البويرة)	أ.د. أحمد حيدوش (البويرة)	

لجنة الخبرة العلمية للعدد الثاني عشر / 13:

نتقدم بشكرنا الخالص لأعضاء لجنة قراءة هذا القسم من العدد (الثالث عشر/13) على جهودهم في تقويم البحوث وتقييمها ، وهم:

1. في الأدب العربي:	د. رايح ملوك «أ.م.أ» (البويرة)
د. عبد الرحمان عيساوي «أ.م.أ» (البويرة)	د. بوعلام طهراوي «أ.م.ب» (البويرة)
د. عبد الرحمان بن يطو «أ.م.أ» (المسيلة)	د. محمد الصادق برون «أ.م.ب» (تيزي وزو)
د. محمد جلاوي «أ.م.أ» (البويرة)	د. نعيمة بن علي «أ.م.ب» (البويرة)
د. أمعمر حاجيج «أ.ت.ع» (البويرة)	د. صالح مباركية «أ.ت.ع» (باتنة)
د. نور الدين عمرون «أ.م.أ» (الجزائر)	د. خالد عيقون «أ.م.أ» (تيزي وزو)
د. عبد المالك ضيف «أ.م.أ» (تيزي وزو)	د. حفصة نعماني «أ.م.ب» (البويرة)
د. صبيبة قاسي «أ.م.ب» (البويرة)	د. جمال مجناح «أ.م.أ» (المسيلة)

التدقيق اللغوي:

- د. صليحة بوماجن.	- د. رايح ملوك .	- د. بوعلام طهراوي
- أ. بوشنب حسين.	- أ. عبد القادر لباشي	- أ. الياس جوادي .



فهرس الموضوعات

- 7..... كلمة التحرير
- اتساق وانسجام النص الشعري الحديث قصيدة (حببتي تنهض من نومها) نموذجاً
9..... غنية لوصيف
- النص : مقارنة لسانية اصطلاحية**
- 25..... رشيد حليم
- الأبعاد البلاغية والتركيبة للفظ القرآني بين الأداء والجمالية.**
- 37..... مفيدة بنوناس
- آليات التناس ومظاهره في مسرحية الأستاذ (أحمد رضا حوحو)**
- 49..... كمال علوات
- سلطة المعرفة في تشكيل الصورة الشعرية عند أبي تمام**
- 73..... كمال طاهير
- البعد الديني والوطني في الشعر الشعبي الأمازيغي / شعري محند
أومحمد أنموذجاً**
- 85..... خالد عيقون
- النص الأدبي المترابط : نص جديد لعصر جديد**
- 97..... جمال قالم
- نظرية الانعكاس في الأدب**
- 109..... نصيرة الوناس
- المسرح الجزائري وإشكالية النص : طروحات ما بعد الاستقلال .**
- 121..... اسماعيل جبارة
- بنية الزمن في الرواية العربية المعاصرة (ثلاثية البحر لحنا مينه نموذجاً)**
- 133..... شمس الدين شرفي
- السبر والتقسيم عند النحويين**
- 157..... عبد الله علي جوان
- موقف اقبال من التصوف**
- 191..... ميلود خلف الله



البحث العلمي السوسيوولوجي بين وهم الاستهلاك المعرفي وحتمية المقاربة الواقعية.

205 نورة قنيفة

الاختيار المهني والتنمية الاقتصادية.

219 عبد النور أرزقي

قراءة سوسيوولوجية لسلوك ودور المريض.

231 فاطمة مساني

العلاقة بين المهارات الاجتماعية وفعالية الذات وأثرهما على التحصيل الدراسي لدى تلاميذ مرحلة التعليم المتوسط.

245 فوزية غماري

Psychanalyse, TAT et structure de la personnalité : Rapport historico - théorique et modalité d'analyse .

Karim MEKIRI 03

Cheating on Exams : A Justifiable behavior ? A Case Study in Causes and Remediation .

Abdelhak Hammoudi 29

كلمة التحرير

يولد هذا العدد الجديد من مجلة معارف الأكاديمية ، ويفصح - مرة أخرى - عن مكونات العقول الباحثة المجدة ...

إن الارتقاء بمعارفنا إلى حدود الكمال هو هدف يلح علينا في كل عدد ويدفعنا نحو تطوير دوريتنا العلمية « معارف » ، وإن عِظَم هذه الغاية ونبالة هذا المقصد يشحذ الهمة فينا ، ويزيد في إصرارنا على أن لا نستكين إلى عقم الإبداع وجفاف الفكر في عصر توزن فيه الأمم بما تقدمه للبشرية من علم دقيق وإبداع فكري .

ومما يميز هذا العدد بأقسامه الخمسة (الأدبية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية) هو محاولة دوريتنا خرق حدود البحر الأبيض المتوسط لتستقر جنبا إلى جنب مع دوريات الجامعات الأوروبية ، بعد أن وجدت مكانها في مكتبات الجامعات العربية ومراكزها البحثية ... وهو هدف سخرنا له آلتان هما :

الأولى : النشر الإلكتروني؛ حيث صارت المجلة تنشر الكترونيا في موقع الجامعة www.univ-bouira.dz ضمن رابطها الخاص بها ، وتتواصل بصفتها على الفايبروك مع قرائها وكتابها وهيئتها العلمية .

الثانية : اعتماد ملخصات البحوث والمقالات باللغات الحية ؛ لتعريف القارئ غير العربي بمحتوى بحوث ومقالات المجلة العربي .

رجاؤنا أن يستمر عطاء الأساتذة وتواصلهم العلمي مع مجلتنا ، ووعدنا قائم أن ننشر لهم إضافاتهم العلمية ...



اتساق وانسجام النص الشعري الحديث

قصيدة (حببتي تنهض من نومها) نموذجاً

غنية لوصيف*

الملخص :

مرت في السنوات القليلة الماضية محاولات كثيرة للكشف عن حقيقة النص لأجل الإحاطة به ولإيجاد نظرية قابلة للتطبيق على مستوى ما فوق الجملة، إذ لا يخفى على الباحث في علم اللغة الحديث أن مدارسه المختلفة قد عجزت عن إيجاد نظرية تستطيع أن تبحث فيما فوق الجملة، إذ اكتفت بدراسة الجملة اللغوية دون النص، وعدت أي دراسة فوق الجملة دراسة غير لغوية إلى أن ظهر في أواخر الستينات من القرن العشرين علم لسانيات النص، هذا العلم الذي استدرك هذا النقص وجعل من النص كله وحدة للتحليل.

وعندما نتحدث عن لسانيات النص فإننا بالضرورة نتحدث عن اتساق النص وانسجامه حتى أننا لا نجد مؤلفاً ينتمي إلى هذا المجال خالياً من هذين المفهومين أو من أحدهما على الأقل. وسنحاول هنا تطبيق هذين المفهومين على قصيدة من قصائد الشعر الحديث، وهي قصيدة « حببتي تنهض من نومها » للشاعر « محمود درويش »، أي رصد مختلف أدوات الاتساق الموجودة في القصيدة وآليات الانسجام التي تخدم التأويل و تربط بين العناصر التي تبدو مفككة. فما مفهوم الاتساق و ما هي مظاهره؟ و ما المقصود بالانسجام و ما هي آلياته؟ وهل تكفي مختلف هذه الأدوات لتحقيق تماسك و ترابط النص الشعري الحديث؟.

الكلمات المفتاحية: الاتساق، الانسجام، لسانيات النص، محمود درويش.

Abstract :

In recent years, there have been many attempts to discover the facts about the text in order to understand and find a theory applicable in the level of above the sentence. The scientist knows that a number of language schools have failed to find a theory that could examine the level of above the sentence,

* كلية الآداب واللغات، جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة.

they confined themselves to the linguistic study of sentence without the text, and any study above the sentence considered as non linguistic study until the appearance in the sixties of the twentieth century, text linguistics, the science that has filled this gap and rendered the entire text a unit of analysis. And when we speak of text linguistics, we must necessarily speak of coherence and harmony of the text as we do not find a book belonging to this area, evoking notj. The two concepts, or one of them. We will try to apply them on the poem my love has just woken up, of the poet Mahmud Darwish, that is to say, detect the various tools of coherence in the poem of harmony and mechanisms that serve to interpretation and linking elements that appear inconsistent. So what is the concept of consistency, and what are its manifestations? What is harmony and what are its mechanisms? And is that these tools are sufficient to achieve the coherence and interdependence of modern poetic text?

Keywords: cohesion, coherence, text linguistics, Mahmud Darwish.

مقدمة :

عرفت السنوات القليلة الفارطة محاولات كثيرة للكشف عن حقيقة النص ، لأجل الإحاطة به ولإيجاد نظرية قابلة للتطبيق على مستوى ما فوق الجملة ، فالباحث في علم اللغة الحديث يجد مدارسه المختلفة من البنيوية إلى التوليديّة التحويلية قد عجزت عن إيجاد نظرية تستطيع أن تبحث فيما فوق الجملة حيث اكتفت بدراسة الجملة اللغوية دون النص ، وعدت أي دراسة فوق الجملة دراسة غير علمية ، إلى أن ظهر علم لسانيات النص الذي استدرك هذا القصور واتخذ من النص كله وحدة للتحليل ، فالنص هو الصورة الكاملة والأخيرة المتماسكة التي يتم عن طريقها التواصل بين أفراد المجموعة اللغوية .

وهكذا استطاع هاريس « Zellig Harris » بمناهجه النصية المبكرة والمبتكرة التي اعتمدها في كتابه « تحليل الخطاب » سنة « 1952 » تطوير المناهج المتبعة في تحليل الجملة ، والانتقال إلى تحليل النص في إطار لسانيات النص ، هذا العلم الذي ظهر في أواخر الستينات وبداية السبعينات من القرن العشرين ، وراح يطور من مناهجه حتى غدا أهم وافد على ساحة الدراسات اللسانية المعاصرة .

ومن خصوصية هذا العلم أنه متنوع متشعب إلى حد بعيد ، إذ أننا لا نجد اتفاقاً معيناً من الباحثين إلا بقدر ضئيل للغاية حول مفاهيمه وتصوراتّه ، ومن ثم كان العجز نصيب أكثر المحاولات التي سعت لإدراج تصوراتّه في أطر محددة ، ولعل المشكلة الأكثر صعوبة التي تواجه هذا الحقل المعرفي هي مشكلة المصطلح التي حتى وإن مرّ أربعة عقود على نشأته إلا أنها لم تتحدد بعد بدرجة كافية .

وعندما نتحدث عن لسانيات النص فإننا بالضرورة نتحدث عن اتساق النص وانسجامه حتى أننا لا نكاد نجد مؤلفا ينتمي إلى هذا المجال خال من هذين المفهومين أو من أحدهما على الأقل . وسنحاول هنا تطبيق هذين المفهومين على قصيدة من قصائد الشعر الحديث ، وهي قصيدة « حبيبي تنهض من نومها » للشاعر محمود درويش ، أي رصد مختلف أدوات الاتساق الموجودة في القصيدة ، وآليات الانسجام التي تخدم التأويل وتربط بين العناصر التي تبدو مفككة . فما مفهوم الاتساق وما هي مظاهره ؟ ما المقصود بالانسجام وما هي آلياته ؟ وهل تكفي مختلف هذه الأدوات إلى تماسك وترابط النص الشعري الحديث ؟ .

1- الاتساق :

الاتساق في اللغة ما كان على نظام واحد منتظم ، وفي الاصطلاح صفة يتسم بها كل خطاب متجانس الوحدات سواء كانت هذه الوحدات مفردات أو جمل ، وهو ما يعني أن تكون هذه الوحدات منظمة ومتجانسة اعتمادا على مجموعة من العلاقات أو الروابط الشكلية . وتتفق كثير من الدراسات الغربية على أن الاتساق واجب وضروري في أي نص ، ذلك أن « كل جملة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع الجملة السابقة مباشرة ، من جهة أخرى كل جملة تحتوي على الأقل على رابطة واحدة تربطها بما حدث مقدا ، وبعض آخر من الجمل يمكن أن يحتوي على رابطة تربطها بما سوف يأتي »⁽¹⁾ ، فل هذه الأدوات والروابط دور كبير في تحقيق الوحدة الكلية للنص ، وإذا خلا النص منها فإنه يصبح عبارة عن جمل هشة لا يربط بينها أي رابط . والاتساق كعلاقة لا يهتم بالربط بين أجزاء الجملة الواحدة فقط ، بل أيضا ب « العلاقات بين جمل النص وفقراته »⁽²⁾ وحتى بين النصوص المكتوبة ، للكتاب الواحد ، هذه العلاقات بين الجمل وأجزائها هي المصدر الوحيد للنصية ، حيث تسهم في وحدة النص الشاملة ، وأهم الأدوات التي تسهم في اتساق النص :

1.1 الإحالة :

يرى هاليداي (M.A.K.Halliday) ورقية حسن (R.Hasan) ، أن العناصر المحيلة أيًا كان نوعها غير مكتفية بذاتها من حيث التأويل ، فهي في حاجة إلى العودة إلى ما تشير إليه كي يتم تأويلها ، « والإحالة علاقة دلالية ، ومن ثمة فإنها لا تخضع لقيود نحوية »⁽³⁾ بل لقيود دلالية تتمثل في ضرورة تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والمحال إليه . وتنقسم الإحالة إلى نوعين أساسيين هما : الإحالة المقامية وهي إحالة خارجية تحيل إلى العالم ، « وتتوقف على معرفة سياق الحال والأحداث والمواقف التي تحيط بالنص حتى يمكن معرفة المحال إليه من بين الأشياء والملابسات

المحيطة بالنص»⁽⁴⁾ وإلى إحالة نصية وهي إحالة داخلية تشير إلى تعلق عنصر نصي بعنصر نصي آخر سابق عليه أو لاحق به ، وتتفرع هي الأخرى إلى فرعين : إحالة قبلية وإحالة بعدية . ويتوفر كل نص على عناصر تملك خاصية الإحالة ، وهي : الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات المقارنة .

أ/ الضمائر :

إذا نظرنا إلى الضمائر من زاوية الاتساق أمكن التمييز فيها بين «أدوار الكلام التي تندرج تحتها جميع الضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب ، وهي إحالة لخارج النص بشكل نمطي»⁽⁵⁾ حيث تشير إلى متكلم ومتكلمين أو مخاطب ومخاطبين خارج إطار هذا النص ، وبين الأدوار الأخرى التي تحيل دوماً إلى متقدم موجود داخل النص .

- ضمائر المتكلم : إذا تأملنا القصيدة جيدا نجد أنها حافلة بهذا النوع من الضمائر ، وتمثلت هذه الضمائر خاصة في المفرد المتكلم(ي) ثم ضمير الجمع المتكلم(نحن - نا) حيث نجد(57 ضميرا للمتكلم) بما فيه المفرد والجمع . إن الضمير(ي) في القصيدة يحيل إلى الشاعر نفسه كدليل على أحاسيسه ومشاعره :

«عيناك يا معبودتي منفي

نفيت أحلامي وأعيادي

حين التقينا ، فيهما !

من يشتري تاريخ أجدادي؟»⁽⁶⁾.

يمثل الضمير المتصل(ي) العائد على المتكلم إحالة مقامية(الضمير ي) يحيل إلى الشاعر) ، فهو يعلن هنا حبه لفلسطين في حالة عاطفية ونفسية وانفعالية متقلبة ، وطغيان ضمير المتكلم المتصل(ي) في القصيدة يوحي بالنزوع إلى تحقيق الذات الفردية وتأكيداتها .

ويقول الشاعر في موضع آخر :

«هل نحن عشب الحقول

أم نحن وجهان على الأمس؟

الشمس كانت تحتسي ظلنا

نحن لم نفترق

إلا بألفاظ المسامير»⁽⁷⁾.

فالضمير المنفصل «نحن» والمتصل «نا» في(ظلنا) يحيل بشكل نمطي إلى متكلم خارج القصيدة وهو الشعب الفلسطيني ، هذا الشعب المطارد الباحث

عن الأمن والسلام الدائم .

- ضمائر المخاطب : يتم حضور ضمائر المخاطب وبروزها بشكل لافت للانتباه في القصيدة ، وتمثلت بشكل خاص في الضمير المنفصل « أنت » والمتصل « ك » :

« عيناك يا معبودتي هجرة
بين ليالي المجد والانكسار » (8).
وقوله أيضا :
« عيناك يا معبودتي منفى
نفيت أحلامي وأعيادي » (9).

حيث يحيل الضمير « ك » إلى بلد الشاعر « فلسطين » التي صورها الشاعر في صورة امرأة يحبها ويتغزل وبعمالها .

- ضمائر الغائب : عندما نرصد ضمائر الغائب التي تشتمل عليها القصيدة نجد أنها حاضرة فيه (31 مرة) ، وهي بذلك أسهمت إلى حد ما في تماسك القصيدة ، خاصة وأن المسافة بين المحيل والمحال إليه مسافة قصيرة ومباشرة ، هنا ما زاد في ارتباط أجزاء القصيدة وتماسك أقسامها ، وتمثلت ضمائر الغائب بصفة خاصة في الضمير المتصل (الهاء) ، ومن النماذج الدالة على ذلك في هذا الحقل قوله :

« طفولتي تأخذ في كفها
زينتها من أي يوم
ولا تنمو مع الريح سوى الذاكرة
وإنني أذكر مرأتها
(. . .)
حينها بالبرق
(. . .)
أصابعي أهديتها كلها
إلى شعاع ضاع في نومها . » (10).

إن المقطع السابق والمكون من ثمانية جمل انطوت على خمسة ضمائر متصلة « الهاء » ، كلها تحيل على اللفظ المفتاح « الطفولة » (ذكريات الشاعر وماضيه) هذا ما جعل الجمل الثماني بعد تجاوز الجملة الأولى متماسكة معها ، وعلى وجه التعيين مع لفظ « طفولة » هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هذه الضمائر جميعها تجعل الجمل الثماني متماسك معا لتكون بذلك والجملة الأولى نسيجاً نصياً عالياً .

ب / أسماء الإشارة :

من وسائل الإحالة أيضا أسماء الإشارة التي تعد محيالات نصية بشكل نمطي تقوم بالربط القبلي والبعدي ، غير أن الغالب عليها هو الربط القبلي كونها تربط عنصرا متأخر بعنصر سابق ، ومن ثمة كان إسهام أسماء الإشارة في اتساق النص . وإذا بحثنا في حقل أسماء الإشارة الموجود في القصيدة نجد أنها كانت حاضرة فيه بصورة نادرة نوعا ما (4 مرات فقط) ، هذا ما يجعلنا نجزم أنها لم تسهم بشكل مباشر في اتساقها ، ومن بين أسماء الإشارة الواردة في القصيدة « هذا » في قوله :

« وهذا الوطن

مقصلة أعيد سكينها

إن تذبحوني . لا يقول الزمن

رأيتكم !» (11).

فقد استعمل الشاعر اسم الإشارة « هذا » ليحيل بعديا إلى الوطن ، لكن ما هو الوطن الذي يقصده الشاعر هنا ؟ هل هو فلسطين مسقط رأسه وموضوع قضيته ؟ أم أنه يتعدى ذلك إلى تجسيد هموم الوطن العربي ، ونقل تجارب مختلف مدنه ؟ . عند تتبع القصيدة جيدا نجد أن الشاعر فعلا قصد بلفظة « الوطن » فلسطين لكنه ينوي من ذلك فضح الواقع المرير الذي تعيشه كل المدن العربية .

ونصادف أيضا اسم الإشارة « تلك » في قوله :

« تفاصيل تلك الدقائق

كانت

عناوين موت معاد

وأسماء تلك الشوارع

كانت

وصايا نبي يباد» (12).

يحيل اسم الإشارة « تلك » إلى ماضي الشاعر وذكرياته الجميلة التي حطمها هذا العدو الغاشم ومحا كل أثر لها .

ج / أدوات المقارنة :

هي النوع الثالث من أنواع الإحالة ويقصد بها « كلمات مخصوصة في كل لغة تشير إلى مقارنة عامة أو خاصة» (13) ، وهذه الخاصة تنقسم إلى كمية وكمية ، والعامة إلى مطابقة وتشابه واختلاف ، وهي كلها أدوات نصية تختلف عن الضمائر وأسماء الإشارة في كونها تؤدي وظيفة اتساقية لا محال . وبالنسبة لهذه

القصيدة فإنها خالية من هذا النوع .

2. الاستبدال :

يقوم على « تعويض عنصر لغوي في النص محل عنصر لغوي آخر معين ، ويسمى العنصر الأول المستبدل منه ، والآخر الذي حل محله المستبدل به » (14) ، ويقع هذا الاستبدال دائما على المستوى النحوي المعجمي بين كلمات أو عبارات .

ويلاحظ « هاليداي » « ورقية حسن » أن « معظم حالات الاستبدال النصي قبلية ، أي علاقة بين عنصر متأخر وبين عنصر متقدم » (15) ، وهذا من شأنه أن يضيف الطابع الاستمراري في النص ، وذلك لوجود العنصر المستبدل به بشكل ما في الجملة اللاحقة .

أما إذا جئنا إلى هذه القصيدة فإننا نجد أنها تخلو تماما من هذا النوع من الاتساق .

3. الحذف :

يشير مصطلح الحذف إلى « علاقة داخل النص ، وفي معظم الأحيان يوجد العنصر المفترض في النص السابق ، وهذا يعني أن الحذف عادة علاقة قبلية » (16) ، وعلاقة الحذف لا تخلف أي أثر ، إذ لا يحل محل المحذوف أي شيء عكس الاستبدال الذي يترك أثرا وإثره يكمن في وجود عناصر الاستبدال ، ومن ثمة نجد في الجملة التي يقع فيها الحذف فراغا يهتدي القارئ إلى ملئه اعتمادا على ما ورد في الجملة الأولى .

والعربية كغيرها من اللغات يكثر فيها الحذف « فغالبا ما يقع في الجملة الصلة إذا استطالت ، وأسلوب الشرط ، وأسلوب القسم ، وفي سياق العطف وفي غيرها من المواضع » (17) .

ويظهر الحذف الاتساق في قصيدة درويش :

« حبيبي . .

تحلم أن النهار

على رصيف الليلة الآتية » (18) .

وأیضا قوله :

« حبيبي . .

فتشت عنها العيون .

(. . .)

فتشت عنها السجون

فلم أجد إلا فتات القمر» (19).

إن مكان النقطتان يبدو وكأنه تم حذف لكلمة ما ، فنستطيع أن نعوض ونضع اللفظة التي تناسب السياق من خلال قراءتنا كأن نقول حيبتي (الجميلة ، الخائفة . . .) ، وهنا تكمن علاقة النص بمتلقيه ، إذ ترك الشاعر مجالاً للمتلقي ليصبح طرفاً في هذه العملية .

4. التوصل :

بعد الوصل علاقة اتساق أساسية في النص ، فهو يحدد الطريقة التي تترابط بها الجملة السابقة مع اللاحقة بشكل منظم ، « فالنص عبارة عن جمل وامتاليات متعاقبة خطياً ، ولكي تدرك كوحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوعة تصل بين أجزاء النص » (20) .

وقد قدم هاليداي ورقية حسن تصنيفاً واسعاً لعناصر العلاقات الترابطية التي يمكن تحقيقها على مستوى الأدوات داخل النص ، والتي تزودنا بعلاقات ترابطية تربط بين أجزاء النص (21) ، وتنقسم هذه العناصر إلى إضافية وعكسية ، سببية وزمانية .

الوصل الإضافي : ويربط بين صورتين بينهما تشابه أو اتحاد ، ويتحقق ذلك بفضل الأداة « و » ، « أو » .

الوصل العكسي : ويربط بين صورتين بينهما علاقة تعارض أو تقابل ، ويتم بواسطة أدوات أخرى « لكن » ، « بل » ، « مع ذلك » .

الوصل السببي : يمكننا من إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر ، ويعبر عنه بعناصر مثل « إذن » ، « لذلك » .

الوصل الزمني : هو علاقة بين أطروحتي جملتين متتابعتين زمنياً ، وأشهر تعبير عن هذه العلاقة هي « ثم » .

وقد كان لأدوات الوصل حضور في النص وساهمت إلى حد كبير في إحداث شيء من الترابط داخله ، وأهم هذه الأدوات التي استخدمها الشاعر :

الواو 48 مرة ، اللام 10 مرات ، الفاء 4 مرات ، السين 3 مرات .

وإذا ما اخصينا عدد مرات استخدام أدوات الوصل كلها داخل القصيدة وجدناها تزيد عن (65 مرة) ، وبهذا تكون قد ساعدت بشكل كبير على تماسك القصيدة وتلاحمها ، ومن هذه الأدوات حرف العطف « الواو » الذي تكرر في مقطع واحد عدة مرات مما جعل من المقطع كلاً متكاملًا ومتناسقًا :

« على رصيف الليلة الآتية »

يشرب ظل الليل والانكسار
 من شرف الجندي والزانية
 تحلم أن المارد المستعار
 من نومنا ، أكلوبة فانية
 وأن زنراتنا ، لا جدار
 لها ، وأن الحلم طين ونار .» (22).

فهذا المقطع يوضح على نحو جلي كيف قام درويش بالانكفاء على الواو وحدها كأداة وصل رئيسية في ربط عرى النص وجمله ، بينما ظهرت الأدوات الأخرى على قلة مقارنة بالواو مثل : لام الجر ، الفاء ، السين . . . وهي جميعها تندرج تحت إطار ما يسمى بالوصل المنطقي ، وابتعاد درويش عنه جعل نصه أكثر شفافية .
 ولقد ظهرت « لام الجر » في القصيدة لتعزيز دلالة الانكسار والإحباط التي أدت بلا شك الشاعر لكتابة هذه القصيدة :

« لكل مناسبة لفظة
 ولكن موتك كان مفاجأة للكلام
 وكان مكافأة للمنافي .
 وجائزة للظلام
 فمن أين اكتشف اللفظة اللائقة .» (23).
 وفي مقطع آخر يقول الشاعر :
 « سأستحلف الشمس أن تترجل
 لتشربني عن كذب . .
 وتفتح أسرارها . .
 سأستحلف الليل أن يتصل
 من الخنجر الملتهب
 ويكشف أوراقه للمغني » (24).

نلاحظ أن الشاعر في هذه المقطوعة قد نوع في أدوات الوصل بين « الواو » و « السين » اللتان تكررتا مرتين ، وبين « اللام » التي وردت مرة واحدة ، وهذه الأدوات بقدر ما لعبت دورها النحوي في تماسك وترابط القصيدة وإعطائها تميزا خاصا ، عكست نفسية الشاعر لإعلاء كلمته ، وإيداء رأيه ، وإيضاح قضية وطنه .

5. الاتساق المعجمي:

يعد مظهرا من مظاهر اتساق النص ، لا يخضع لوسائل شكلية في الربط

بين عناصره ولا إلى عنصر محيل ومحال إليه ، وينقسم إلى قسمين :

أ/ التكرير:

يتطلب هذا النوع « ترديد لفظة معجمية معينة ، أو يكون بتكرار لكلمة أخرى مرادفة أو لكلمة عامة ، ومن ثم فإن الكلمات المكررة تحيل إلى بعضها مما يسهم في إحداث علاقة شكلية بينها» (25) ، وهذا ما يؤدي إلى ربط الجمل التي تحوي هذه المكررات معا محدثة ضربا من الاتساق المعجمي .

وقد مثل هذا النوع أداة واسعة الانتشار في القصيدة ، إما عن طريق تكرير مفردات أو تكرير عبارات أو مقطوعات ، ففي القصيدة تكرير لكلمات مبنية من أصوات استطاع الشاعر أن يخلق بها جوا موسيقيا مميزا وخصوصا يشيع دلالة معينة ، حيث نجده يكرر لفظة « حبيتي » في عدة مقاطع :

« حبيتي ..

أقمارها في السماء

(. . .)

حبيتي ..

فتشت عنها العيون .» (26).

وتكرار هذه اللفظة أعطى نعما موسيقيا متكاملا تتجاوز معه الأذن في القصيدة . وبالإضافة إلى تكرير لبعض الكلمات نجده أيضا يكرر بعض العبارات داخل المقطع نفسه ، أوفي القصيدة كلها « فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها» (27) ومن ذلك أن درويش قد بنى أحد مقاطع قصيدته على عبارة « أعيدينا لنا » :

« أصبح :

أعيدوا لنا بيتها

أعيدوا لنا صمتها

أعيدوا لنا موتها . . .» (28).

فعبارة (أعيدوا لنا) تأكيد على دلالة تعاقب الأعوام والسنين لطول انتظار العدو الذي تشبث بهذه الأرض زمنا طويلا واتخذ منها مكانا للعيش ، وأيضا على رجاء الشاعر وأمله من خروج العدو وتحرير بلده .

ب/ التضام:

هو «توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطها بحكم هذه

العلاقة أو تلك» (29) ، ومن هذه العلاقات علاقة ترادف أو تضاد أو تقابل الكل من الجزء أو الجزء من الجزء ، أو علاقة عناصر من نفس القسم العام . وسنتطرق هنا إلى هذه العلاقات مبرزين أهم ما تتفرع عنه هذه الأقسام .

في هذه القصيدة ذكر لبعض الخصائص والسمات المتعلقة أساسا بأرض فلسطين ، هذه السمات والمفردات تدل على عمق الأصالة والحضارة الضاربة في التاريخ ، نذكر من ذلك :

الزيتونة الأشجار . الورد - الإكليل الأزهار .

فالشاعر هنا في ذكر مختلف السمات المتعلقة بأرض فلسطين والممتدة في عمق التاريخ العربي ، كالزيتونة التي تعتبر رمزا حيا للأرض الفلسطينية .

كما نجد ذكر لبعض المفردات الخاصة بالطبيعة ومختلف الظواهر السائدة فيها : البرق - الشعاع - القمر - الشمس . . . فهذه الكلمات كلها مصادر للضوء . وقد تنوعت القصيدة من حيث مصدر الضوء والنور ، فهو رمز السعادة والأمل .

إضافة إلى علاقة القسم العام هناك علاقة نسقية أخرى تحكم بعض الأزواج في هذه القصيدة ، وهي علاقة التعارض والتضاد أو كما تسمى بمصطلح التخالف والتعاكس ، وهي ورود كلمتين مختلفتين متضادتين معنى ، ففي التضاد « يشعر المرء بأنه أمام نظام للخطاب : محكم ، دقيق ، صارم ، ومع ذلك يضل شعريا فياضا ، صادقا ، بسيطا ، فالبنى تتشابه إيقاعيا ، ثم قد تتعارض دلاليا» (30) ، ومن هذه الأزواج : الليل النهار ، المجد الانكسار ، الظلام النور . . .

بعد عرضنا لأدوات الاتساق الموجودة في القصيدة نستنتج أن هذه الأدوات أسهمت إلى حد كبير في تلاحم وتناسق أجزاء القصيدة ، بالرغم من أن هذه الأخيرة تفتقر نوعا ما إلى الاتساق التام ، وقد نقصتها بعض العناصر كالأستبدال وأدوات المقارنة ، ولهذا سوف نستعين ببعض آليات الانسجام التي تخدم التأويل . وآليات الانسجام التي سوف نتطرق إليها هي البنية الكبرى والعنوان .

1.1. الانسجام

اتفقت جل الدراسات على أنّ الانسجام هو حكم المتلقي (مستمعا كان أم قارئاً) ، إذ أن نظرية الانسجام تبرز « أهمية الدور الذي يقوم به المتلقي في عملية التأويل» (31) من خلال التزود بما يلزم من العلاقات لاستخراج المعنى منه (النص) ، وتمثل هذه العلاقات في مجموعة العناصر المنطقية كالسببية والغائية والقياسية ، كما تتضمن أيضا المعلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف فيما يتصل بالتجربة الإنسانية وتفاعلها مع معطيات النص .

ويتجاوز الانسجام ويتعدى الجانب الشكلي إلى الجانب الدلالي «الذي لا تكفي فيه الدلالة اللغوية وحدها للأقوال في فهم الخطاب وتأويله، فالقارئ في حاجة إلى الوقوف على ملاسبات القول من أحوال المتخاطبين وطبيعة العلاقة بينهم»⁽³²⁾، ولهذا يشير «محمد خطابي» إلى رأي «هايمس» حول عنصر السياق وعلاقته بالانسجام في قوله: «أنه بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال»⁽³³⁾، فالانسجام يدخل السياق بمعناه الواسع والعام.

وتتصل دراسة الانسجام برصد وسائل الاستمرار الدلالي الموجودة في النص، فهو عند «هاليداي» و«رقية حسن» «علاقة معنوية بين عنصر وعنصر آخر يكون ضروريا لتفسير هذا النص، هذا العنصر الآخر يوجد في النص، غير أنه لا يمكن تحديد مكانه إلا عن طريق العلاقة التماسكية»⁽³⁴⁾، وبهذا يكون الاتساق مرتبطا باللفظ في حين أن الانسجام يرتبط بالمعنى دائما.

1. العنوان :

يقصد الشاعر حين يضع عنوانا لقصيدته دلالة وهدفا معينا، فالعنوان يحمل جزءا أساسيا من رسالة النص، بل هو بؤرة النص ومفتاحه، وذهب «براون» و«يول» إلى أن عنوان أي خطاب لا يساوي موضوع ذلك الخطاب بل هو أحد التعبيرات الممكنة عنه، لذا فإن تناوله يفرض علينا التزود بما يلزم من العلاقات والأدوات اللازمة لفهمه وتأويله على نحو يساعدنا على معرفة ما يدور حوله النص.

فالعنوان لم يعد مجرد تسمية لمكتوب فقط بل «أصبح حلقة أساسية ضمن حلقات البناء الاستراتيجي للنص»⁽³⁵⁾، لأنه «مفتاح التجربة وكنزها المعبأ صنوف الوجدان»⁽³⁶⁾ ولهذا فإن العنوان يلمح ويحيل على أمر غائب في النص على القارئ أن يبحث عنه ويكتشفه بنفسه.

وحينما ننظر إلى العنوان «حبيبتني تنهض من نومها» نجده يتألف من عدة كلمات تحمل في طياتها انسجاما واضحا يتأتى من خلال الجمع بينها، وما يلفت الانتباه في هذا العنوان أنبأؤه وفق صيغة اسمية أي ابتدأؤه باسم، وليس ثمة من غرابة مقلقة في الأمر، فإذا تصفحنا قصائد محمود درويش نجد عتبات العناوين تغطي عليها الصيغ الاسمية، من مثل: حالة حصار، سرير الغريبة، آخر الليل، عاشق من فلسطين... وإذا كان الأمر هكذا، فلنبدأ بالبحث في اتجاه أسرار بنية العنوان «حبيبتني تنهض من نومها»: يظهر هذا العنوان في مركب اسمي - مبدوء في الأصل باسم - مشكلا بذلك مركبا اسميا اسناديا في شكل جملة بسيطة من حيث

أداؤها لفكرة مستقلة وواضحة مكثفة بذاتها ، غير أن ميزة العنوان « حبيبتني تنهض من نومها » قائمة على اشتغاله بصيغة المبتدأ ، « حبيبتني » مبتدأ ، « تنهض من نومها » خبر ، وهكذا يستحوذ العنوان بقوة على متلقيه ويدخله في مشهد بصري حاد ، ليتساءل المتلقي عن المقصود من وراء اختيار هذا العنوان؟ وكيف تم الربط بين مختلف كلماته؟ وهنا تتحقق وظيفة العنوان في كونه المنجم الذي يفتح الآفاق لإنتاج هذه الأسئلة ، وبذلك يرمي بالمتلقي ويلججه متاهة في النص بحثا عن الأجوبة .

2. البنية الكبرى :

يقصد بها « بنية سيميائية دلالية »⁽³⁷⁾ ، لذلك لا تختلف البنية الكبرى من الناحية الشكلية عن البنية الصغرى ، فهي تتكون أساسيا من قضايا ، ومن ثمة فإن « مفهوم البنية الكبرى يبدو نسبيا ، فهو يميز بنية ذات طبيعة عامة نسبيا ، بالنظر إلى أبنية خاصة على مستوى أدنى آخر »⁽³⁸⁾ ، فالبنية الكبرى في نص ما قد لا تكون نفسها في نص آخر ، ولكي يصل القارئ إلى البنية الكبرى يجب عليه أن يقوم بعمليات مختلفة : الحذف ، البناء ، التعميم ، إلى غير ذلك من العمليات التي تأخذ تسمية القواعد الكبرى ، وتوصف بأنها ممارسات إجرائية لما هو أساسي ومحوري في النص بوصفه وحدة دلالية .

وفي هذا الإطار نأتي إلى قصيدة « حبيبتني تنهض من نومها » لاستنباط بنيتها الكبرى كنموذج للخطاب الشعري الحديث الذي يتوه القارئ ويزج به في سياقات دقيقة ومختلفة ، لدرجة أن يختلط ويتداخل الفرعي بالأساسي والأحداث فيما بينها ، مما ينتج عنه انحراف الإجراء التحليلي عن مساره ، وبالتالي خطأ النتائج المتوصل إليها ، لكن قبل الخوض في كل هذا يجب الإشارة إلى التداخل الموجود بين موضوع الخطاب والبنية الكبرى . ذلك أن الموضوع يضاف إليه المعرفة الخلفية أو الإطار - كما تسمى - يساهمان في صياغة البنية الكبرى ، ويتضح ذلك كما يلي :

أ/ موضوع قصيدة « حبيبتني تنهض من نومها » :

يتضح من خلال تحليلنا لهذه القصيدة ومعالجتها أن موضوعها ينسبني على محورين أساسيين :

المحور الأول : نهوض وصمود الشعب الفلسطيني اتجاه العدو .

المحور الثاني : الموت حقيقة كبرى موجودة فينا .

ب/ المعرفة الخلفية (إطار القصيدة) :

إن الشاعر حينما يصوغ نصا شعريا ما يتكئ بصورة كبيرة في استحضار مكونات نصه من خلفياته المعرفية ، وهو بالتالي يلتقي مع المتلقي وما لديه من

خلفية معرفية تسهم في خلق معرفتي مشترك بينهما ، فالمعروف أن معالجة النص تعتمد من ضمن ما تعتمد على ما تراكم لدى القارئ من معارف سابقة تجمعت لديه كقارئ متمرس قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص والتجارب السابق له قراءتها ومعالجتها ، فالقارئ ليس من المعقول أن يستدعي كل تلك المعلومات الموجودة في ذهنه مع كل خطاب يواجهه ويحاول فهمه وتأويله ، بل يختار من المخزون ما يلاءم الخطاب المواجه ، وهذا يقود إلى تنظيم هذه المعرفة بطريقة ثابتة كوحدة يسهل الوصول إليها بدلا من مجموعة من الحقائق يحتاج إلى تجميعها من أجزاء مختلفة من الذاكرة .

وسنحاول هنا صياغة المعرفة الخلفية التي اعتمدها الشاعر في هذه القصيدة باعتبارها عنصرا أساسيا من عناصر البنية الكبرى . وعلى أساس ذلك يظهر ما يلي :

تدور محاور القصيدة حول عنصر القضية الفلسطينية ومعاناتها من طرف العدو الغاشم الذي يقتل ويدمر بلا رحمة ، وحتى من طرف الأشقاء العرب الذين أنكروا حق الشعب الفلسطيني في البقاء على أرضه ولو كان ذلك واردا ضمنيا في القصيدة . ولأن البنية الاجتماعية التي ينتمي إليها الشاعر مليئة بمثل هذه الأساليب والفتن ، نجد « محمود درويش » الشاعر قد صبغه بثقافته ، إذ قام باستحضار بعض الموضوعات والشخصيات الدينية التي تعتبر واحدة من مقومات الشخصية العربية والتي تعتمد في مواجهة الكيان الصهيوني الذي يريد محو كل أثر للتراث الديني والعربي ككل ، يقول درويش في هذه القصيدة :

« تفاصيل تلك الدقائق

كانت . .

عناوين موت معاد

وأسماء تلك الشوارع

كانت . .

وصايا نبي يباد

ولكنني جئت من طرف السنة الماضية

على قنطرة . .

ألا تفتحين شبابيك يوم جديد

بعيد عن المقبرة؟! » (39).

وقد استعار الشاعر كل هذه الأحداث ليرمز إلى عمق هذه القضية ، وأصالة هذا البلد الممتدة جذوره عبر التاريخ العربي المجيد ، رغم أنه لم يرقم بذكر اسم

هذا النبي إلا أنه من خلال ذلك يرمز إلا الإبادة والظلم التي لحقت هذا الشعب من طرف العدو.

إن التأمل في القصيدة السابقة « حبيبتني تنهض من نومها » يحيل على جانب من الوعي العميق بأن العناصر الملخصة إنما قامت بمقتضى تأويل البنى التركيبية المكونة لعناصر الموضوع ضمن إطار عام يصل في النهاية إلى أن هذه القصيدة هي بنية كلية متلاحمة الأجزاء يشكل كل عنصر منها جزءا من نص منسجم مع نفسه ، ومع سياق الوضع الموجود فيه .

الهوامش :

- 1 - صبحي إبراهيم الفقي ، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية ، ج1 ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2000 . ص 93 .
- 2 _Shirly Carter _ Thomas ، La cohérence textuelle . pour une nouvelle pédagogie de l'écrit ، L'Harmattan ، Paris 1993 . p 20.
- 3 - محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء - بيروت 2006 . ص 17 .
- 4 - صبحي إبراهيم الفقي ، المرجع السابق ، ص 41 .
- 5 - محمد خطابي ، المرجع السابق ، ص 18 .
- 6 - محمود درويش ، الديوان ، المجلد الأول ، ط14 ، دار العودة ، بيروت 1994 . ص 319 .
- 7 - المرجع نفسه ، ص 321 .
- 8 - نفسه ، ص 318 .
- 9 - نفسه ، ص 319 .
- 10 - نفسه ، ص 312 - 313 .
- 11 - نفسه ، ص 312 .
- 12 - نفسه ، ص 316 - 317 .
- 13 - عمر محمد أبوخرمة ، نقد النظرية وبناء أخرى ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، أربد - الأردن 2004 . ص 82 .
- 14 - زتسيلاف واووز رزنيك ، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص ، ترجمة : سعيد حسن بحيري ، ط 1 ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة 2003 . ص 61 .
- 15 - محمد خطابي ، المرجع السابق ، ص 19 .
- 16 - المرجع نفسه ، ص 21 .
- 17 - طاهر سليمان حمودة ، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، الدار الجامعية ، الإسكندرية 1999 . ص 43 .
- 18 - محمود درويش ، المرجع السابق ، ص 314 .
- 19 - المرجع نفسه ، ص 315 .
- 20 - محمد خطابي ، المرجع السابق ، ص 22 - 23 .
- 21 - ج . ب . براون - ج . يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة : محمد لطفي الزليطي - منير التركي ، جامعة الملك سعود للنشر العالمي والمطابع ، الرياض 1997 . ص 228 .
- 22 - محمود درويش ، المرجع السابق ، ص 314 .
- 23 - المرجع نفسه ، ص 316 .
- 24 - نفسه ، الصفحة نفسها .
- 25 - يوسف أبوعلوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، ط1 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان 2007 . ص 237 .
- 26 - محمود درويش ، المرجع السابق ، ص 314 - 315 .

- 27 - نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ط13 ، دار العلم للملايين ، بيروت 2004 . ص 276 .
- 28 - محمود درويش ، المرجع السابق ، ص 318 .
- 29 - محمد خطابي ، المرجع السابق ، ص 25 .
- 30 - عبد المالك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لتقصيدة « أشجان يمانية » ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ت . ص 136 .
- 31 - Shirly Carter _ Thomas . La cohérence textuelle . P 157.
- 32 - فتيحة بوسنة ، انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي ، مقارنة تداولية ، دار بلاد للنشر ، الجزائر ، د ت . ص 30 - 31 .
- 33 - محمد خطابي ، المرجع السابق ، ص 53 .
- 34 - أحمد عفيفي ، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة 2001 . ص 90 .
- 35 - أحمد محمد مداس ، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، أريد - الأردن 2007 . ص 41 .
- 36 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- 37 - Marie _ Anne Paveau _ George elia sarfati . Les grandes théories de la linguistique de la grammaire comparée a la pragmatique . Armand Colin . Mars 2003 . p 187.
- 38 - فان ديك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة : سعيد حسن بحيري ، ط 1 ، دار القاهرة للكتاب ، القاهرة 2001 . ص 75 .
- 39 - محمود درويش ، المرجع السابق ، ص 316 - 317 .

قائمة المراجع :

- 1 - صبحي إبراهيم الفقي ، علم لغة النص بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية ، ج 1 ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة 2000 .
- 2 - Shirly Carter _ Thomas ، La cohérence textuelle . pour une nouvelle pédagogie de l'écrit ، L'Harmattan ، Paris 1993
- 3 - محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، ط 2 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء - بيروت 2006 .
- 4 - محمود درويش ، الديوان ، المجلد الأول ، ط 14 ، دار العودة ، بيروت 1994 .
- 5 - عمر محمد أبوخرمة ، نقد النظرية وبناء أخرى ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ، أريد - الأردن 2004 .
- 6 - زتسيلاف واوز رزنيك ، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص ، ترجمة : سعيد حسن بحيري ، ط 1 ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة 2003 .
- 7 - طاهر سليمان حمودة ، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، الدار الجامعية ، الإسكندرية 1999 . ص 43 .
- 8 - محمود درويش ، المرجع السابق ،
- 9 - ج . ب . براون - ج . يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة : محمد لطفي الزليطني - منير التركي ، جامعة الملك سعود للنشر العالمي والمطابع ، الرياض 1997 .
- 10 - يوسف أبوعلوس ، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، ط 1 ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان 2007 .
- 11 - نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ط 13 ، دار العلم للملايين ، بيروت 2004 .
- 12 - عبد المالك مرتاض ، بنية الخطاب الشعري دراسة تشريحية لتقصيدة « أشجان يمانية » ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
- 13 - أحمد عفيفي ، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة 2001 .
- 14 - أحمد محمد مداس ، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري ، ط 1 ، عالم الكتب الحديث ،

النص :مقاربة لسانية اصطلاحية

رشيد حليم*

الملخص:

عرف البحث اللساني مصطلحات لغوية حملت شحنات مفاهيمية موالية لبيئات علمية مختلفة التنظير.ومن تلك المصطلحات اللسانية التي لها حضور معرفي متميز في واقع الدراسة نذكر مصطلح النص ،عدّ موضوع النص من أعسر المسائل العلمية التي شهدها واقع النقد اللساني المعاصر فهو ميدان معرفي خصب مازال الباحثون يستقصون حدوده ويقاربون مفاهيمه .

ولأهمية هذا الموضوع تأتي مقالي لتقارب حدود النص ، وتحلل الإشكال المفهومي الذي يحمله في نظر النقد والدارسين

Abstract :

Text rapprochement linguistic and terminology. linguistic research has been entrusted with the linguistic terms corresponding to concepts environments for scientific theories. Among the Baths which are used much, and have also a distinct presence in the reality of the study we mention the words of the text. the subject of the text is the most difficult scientific issue in contemporary criticism. it is still a fertile field for researchers and cognitive who tries to define its.concepts.

The importance of this question is the subject of my article that studies the approximation of this term and analyze the conceptual forms performed by the scientists.to.opinion.

تمهيد

إن إيجاد تعريف جامع لماهية النص عملية صعبة إن لم نقل إنها مستحيلة إلى حد ما ، ذلك أن الاختلاف حول جوهره يكمن أساسا في اختلاف التصور لكيونته والأهداف المرجوة من دراسته ، ولكن المعرفة لا تصدها العراقيل ، إذ يمكن الوقوف على مفاهيم مختلفة لهذا المصطلح إذا ما حاولنا اللجوء إلى جهات معرفية تكشف عن مفاهيمه .

* كلية الآداب واللغات ، محاضر قسم أ ، جامعة الطارف.

1- مفهوم النص :

إن حدود النص ونظريته ومفهوميه تتجسد وتتبلور وفق منطلقات شتى ، سواء أكانت إيديولوجية أم نفسية أم خلقية ، فالنص يتموقع في الزمان الذي ينتجه عبر لغة مزدوجة تتم في مادة اللسان وسط نتاج التاريخ الاجتماعي .

أ. مفهوم لغوي :

قال ابن منظور في مادة - نصص - النص : فعل الشيء ، نص الحديث ، ينصه نصا ، رفعه وكل ما أظهر فقد نص . قال أبو عمرو بن دينار : ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري (1) ، أي أرفع له وأسند . يقال : نص الحديث إلى فلان أي رفعه ، وكذلك نصصته إليه (2) ، ومنه قول الفقهاء : نص القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من أحكام (3) .

ونوافق بعض اللغويين عند تعريف كلمة « نص » بأنها : الرفع ومن ثم قالوا : نص القول أي رفعه وأسنده إلى صاحبه (4) وهو المعنى الذي أشار إليه طرفة بن العبد في قوله : (متقارب) (5) .

فنص الحديث إلى أهله فإن الوثيقة في نصه

ب. اصطلاحا :

من العسير تحديد ماهية النص وأبعاده الاصطلاحية لتتبع الاتجاهات وتعدد الرؤى ، ولكونه فضاء لأبعاد مختلفة متعددة ومتنازعة إضافة إلى كونه شحنة انفعالية محكومة بضوابط لغوية وقيم أخلاقية ومرجعيات ثقافية وخصائص اجتماعية ، لقد ظل النص محكوما بسلطتين : سلطة إنتاجه وسلطة القارئ ، وهناك علاقة جدلية بين المبدع والمتلقي ، وكل منهما يتمتع بسلطته .

غير أن بعض المنظرين للمعرفة الأدبية واللغوية والفلسفية زهدوا في صنع تعريف ظاهر للنص ، كما يقول جيرار جينت : « لا أهتم بتعريفه على الإطلاق إذ مهما كان النص في إمكانني أن أدخله وأن أحلله كما أشاء » (6) .

وهكذا اتسع مفهوم هذا المصطلح وتشعب حقله تشعبا تجاوز أي حقل معرفي آخر ، فأصبح النص كيانا منسوجا من الملمصقات والتطعيمات والإضافات إنه جسد من علاقات مختلفة ، بل إنه لعبة متفتحة ومنغلقة في الوقت ذاته ، ولهذا السبب فمن المحال أن تكتشف النسب الوحيد والأولي للنص ، ذلك أن النص مولود لأكثر من أب ، فليس للنص والد واحد بل مجموعة من الأقارب والأنساب والأجداد والآباء ، تتشكل على هيئة طبقات جيولوجية يصطف بعضها فوق بعض وتتراكم أتربة فوق أتربة مشكلة طبقة رسوبية وكل طبقة من طبقاته تنتمي إلى

عصر معين دون غيره ، فالنص الواحد لا يتمتع بحدائثة أو بقدم إنه يتناسل قي مجموعة من الأعمال وينزل مرة واحدة ، ولذلك فهو مطعم بمجموعة هذه الطبقات والتشكيلات الرسوبية (7).

أما من زاوية القراءة ، فالنص يتموقع في محيطها ، فيلبس مفاهيمها ويتلون بتلون النظريات الأدبية والمدارس النقدية ، فالنص في نظر السيميائيين نظام سيميائي مادته مركزة على التواصل ، كما عدّ في نظر اللسانيين مساحة للتأليف وتحليل المكتوب ونقده ، وأما شكله وصيغته فإنه نظام إعلامي جهازه الأول الدال والمدلول ، أما الأسلوبين فيرون أن النص بنية لغوية مغلقة ومستقلة عن وعي المتلقي لها .

لقد حاول بعض المهتمين بالظاهرة النصية تقديم تصورات إجرائية لعالم النص ، وممن اشتهر في هذا المجال ، نذكر :

2- مفهوم النص عند مُنظريه :

أ. عند علماء العربية القدامى :

حظي مصطلح النص باهتمام علماء العربية على اختلاف مشاربهم العلمية والمذهبية ، ومن ثمة ظل النص صناعة أساسية تدور في فلكها كل ما أنتجه العقل العربي من صناعات وما صاغه من أفكار ، لأن مداره لم يتجاوز - في الغالب - سلطة النص المقدس ، فسبق الممارسة الإجرائية تصدرها النص القرآني ، إذ لم يحظ نص من نصوص العربية بعناية الباحثين والعلماء مثل ما حظي به القرآن الكريم (8).

ويشير الأصوليون إلى ارتباط مصطلح النص في الثقافة العربية بمادة لا يتطرق إليها ظن أو احتمال ، فلا بد لها من الإبانة والوضوح خاصة في مجال الأحكام ، فنص القرآن ونص السنة أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من أحكام (9) ، وبذلك حمل مصطلح النص مطلق الأحكام التي لا تحتمل إلا دلالة واحدة ، أي دلالة متفردة لا تحتمل التأويل (10).

اقتربت دلالة النص عند أغلب الأصوليين بالتعيين واستبعاد التأويل ، وإلغاء أي دلالة مستترة ، يقول الإمام الشافعي - رحمه الله - النص خطاب يعلم ما أريد به من حكم سواء كان مستقلا بنفسه ، أو العلم المراد به غيره نافي الاجتهاد (11).

وفي التراث النحوي العربي ، دل مصطلح النص على المنقول من كلام العلماء المسطر في مظان مؤلفاتهم ، كما ترى في احتجاج ابن هشام بما يذهب إليه سيبويه من تخريجات نحوية ، و ينص على أن ما يستخلصه من قواعد ما - نص عليه سيبويه - (12) ، وقبله ابن جني يشتق اسم المفعول - المنصوص - من

الفعل نص ، للدلالة على نصوص المدونة اللغوية العربية التي أجمع العلماء على صحة الاحتجاج بنصوصها ، قال ابن جنبي : اعلم أن إجماع أهل البلدين إنما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده ألا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص» (13).

نخلص إلى التأكيد على أن مصطلح النص قد ارتبط بالنص المعجز ، وفصيح كلام النبي ، وما ورد عن العرب من شعر ونثر ، وهذه النصوص جميعها تحيل على معنى رفعة الإسناد وقوة الشاهد اللغوي ، إضافة إلى الكمال اللغوي من جهة وإلى تناهي هذه النصوص في الزمان والمكان بما لا نظير لها ، وهي الأنموذج اللساني في لسان العرب Modèle linguistique arabe.

ب. عند الغربيين :

1. مصطلح النص في الدرس اللساني الغربي :

لم يكن مصطلح النص في الثقافة اللسانية الغربية على الدلالة المعجمية التي تحيل على مفهوم النسيج : tissu ، ليتجلى بصور مفاهيمية متعددة تبعاً لتتبع المرجعيات العلمية واختلاف المدارس اللسانية والاتجاهات النقدية ، ولذلك يتلون مفهوم النص باتجاه كل باحث وانتمائه العلمي و منطلقاته الفكرية والإيديولوجية ، مما وفر للدارسين كماً متنوعاً من المفاهيم التي تطرقت إلى إزالة الستار عن هذا الغرض ، سنقتصر على المهم منها ، دون إخلال بالموضوع أو إطالة تجرّ إلى السآمة .

إن تعريف النص في الدرس اللساني الغربي قائم على المادة اللغوية المشكلة للنص من أقوال و ملفوظات محددة ، مكتوبة كانت أو شفاهية كما في تعريف جون دييوا : النص مجموعة المنطوقات اللسانية المعدة للتحليل ، فالنص يصير عندئذ عينة من السلوكات اللسانية التي تحتمل أن تأتي مكتوبة أو منطوقة ، هذا ما وفقنا إلى ترجمته من هذا النص الأصلي (14).

On appelle texte l'ensemble des énoncés linguistiques soumis à l'analyse le texte est donc un chantions de comportement linguistique qui peut être écrit ou parlé.

لقد ارتبط مفهوم النص بمنظريه الذين كانت لهم توجهات علمية ومنهجية في حقل البحث اللساني ، تجلى في ما كتبه أصحاب المدرسة البنوية على اختلاف انتماءاتهم العلمية ، فيما يعرف في البحث اللساني الحديث بالاتجاهات اللسانية أو المدارس اللسانية وهي كلها ثمار الدرس اللساني السويسري الذي انبثق في مطلع القرن الماضي .

لم يصطلح رواد المدارس اللسانية الغربية على وضع مصطلح موحد ودقيق يجمع مفاهيم النص يمكن الاعتماد عليه بصفة نهائية في التحليل اللساني أو النصي . وتكفي الإشارات التعريفية التي نرصدها ليلم سليف ، هاريس وجون ليونز حيث يمثل كل واحد منهم اتجاها لسانيا معروفا .

دلالة النص عند يلمسليف HJELMESLEV :

يعد يلم سليف أحد أعمدة المدرسة النسقية (الغلو سيماتيك) ، وقد نظر هذا اللساني إلى مفهوم النص من خلال ما ورثه عن دوسوسير من آراء ، وما أتجه البنيويون من أبحاث ، ففي منظوره النص بنية لسانية كبرى قابلة للتحليل بدءا من العناصر اللغوية الأساسية وانتهاء بالعناصر الصغرى التي يمتنع معها أي فعل وصفي نظرا لامتناعها عن التجزئة ، فالنص قول قد يكون مكتوبا أو شفويا لا يخضع لمعياري المسافة أو الزمن ، فهو نتاج لساني مرتبط أساسا بغرضي الإفادة وهو ما يمثل جانب المضمون ، كما يتعلق بنيته الكبرى التي تتمتع بقابلية الوصف والتحليل (15).

- دلالة النص عند زيلنغ هاريس ، يعتبر هاريس أحد المؤسسين الأوائل للاتجاه البنيوي التوزيعي ، وهو أستاذ العلم الشهير نعوم تشومسكي ، ولقد ارتبط مفهوم النص عند العلمين بلسانيات الجملة حيث جاء التركيز في دراسة هاريس للنص على البنى اللغوية الشكلية دون إفادة الباحثين بمفهوم صارم للنص .

اعتبر هاريس النص وحدة ثقافية تضاف إلى ما يحمله النص من آليات لسانية لانحصار النص في نطاق التراكيب النحوية الظاهرة .

نشر هاريس دراسة في مجال النص عنونها : تحليل الخطاب ، استعمل في اكتشافه لعالم النص إجراءات اللسانيات البنوية ، وركز في عمله على آليتين مهمتين :

- العلاقات التوزيعية بين الجمل.

- الربط بين اللغة والموقف الاجتماعي.

1. مفهوم النص عند جون ليونز :

تجلت رؤية ليونز لماهية النص من خلال رفضه لقراءة هاريس للنص الذي اعتبر النص سلسلة من الجمل المترابطة ، وهي الجمل التي يتألف منها النص وهذه سمة تعرف بها النصوص من الوجهة الشكلية ، وهو المبدأ الذي قنع به فالنصوص تنسج بواسطة الجمل المختلفة أو التعبيرات الجاهزة (16) ، أما مفهوم النص فقد يكشف من خلال الخصائص المميزة التي يحتويها وتفرضي إلى التماسك (17).

إن مفهوم النص عند معظم اللسانيين المنتمين إلى المذهب البنوي يتفقون على اعتبار النص بنية لسانية عظيمة مكتفية بذاتها لا تحتاج إلى عوامل إحالية أخرى ، أو الوقوف أمام سلطة المعنى ومرجعياتها . والقاسم المشترك بين ما أوردنا من تعريفات هو إدراج مفهوم النص ضمن لسانيات الجملة التي كرس رواد البحث فيها على تحليل البنى النحوية .

إن الجهود المفعمة بالجد هي التي ساهمت في كشف قصور اللسانيات البنوية في ولوج كنه النص ولم يعد في نظرهم بنية كبرى مغلقة قابلة للتجزئة ، وصار الاهتمام بالنص ككيان له مقومات فاعلة تتمثل في ظروف إنتاجه وسياقات إخراجها وكيفية تلقيه .

لم يلبث التوجه الشكلي أن تدحرج أمام المحاولات العلمية الجادة التي ساهمت في إخراج النص فهما وقراءة من ذلك المستوى العلمي إلى ميدان آخر أرحب وأشمل لدراسة النص ، يعرف بلسانيات النص الذي لم يبرز للوجود إلا في سبعينيات من القرن الماضي .

2. مفهوم النص في لسانيات النص :

قابل بعض الباحثين مصطلح : science du texte المنتج بالفرنسية بما يناظره في العربية ، أي علم النص كما ألف صلاح فضل كتابا مهما تحت هذا العنوان - بلاغة الخطاب وعلم النص⁽¹⁸⁾ ومثاله صنيع سعيد حسن البحيري في كتابه - علم لغة النص⁽¹⁹⁾ أو بتسمية مقابلة للمصطلح الفرنسي : linguistique textuelle وهي لسانيات النص⁽²⁰⁾ وهذا الأخير ينسجم معرفيا وعلميا مع ما يبحثه هذا العلم إضافة إلى دقة الاصطلاح ، ولا ضير في استعمال المصطلح الأول .

تنحصر وظيفة لسانيات النص في وصف الجوانب المختلفة لإشكال الاستعمال اللساني وأنماط الاتصال وتوضيحها كما تحلل في العلوم المختلفة في ترابطها الداخلي والخارجي⁽²¹⁾.

ولقد اهتم الباحثون في هذا الميدان بإيجاد تعريف للنص ، وانتخبنا من أولئك العلماء :

1. رولان بارت :

ساهم رولان بارت في صياغة علم يخص النص ، فأحاطه بجملة من النظريات جمعتها العناوين الرئيسية التالية :

أ - أزمة العلامة

ب - نظرية النص

ج - النص والأثر الأدبي

د - الممارسة النصية : لقد عرف رولان بارت النص من زوايا متعددة ، حيث خص النص بأربعة مفاهيم تمثل جملة ما قيل عن النص في الدراسات الأدبية واللسانية والتعليمية ، وفي هذا المضمون يقول بأن النص يتكون ويصنع نفسه من خلال تشابك مستمر ، وأن نظرية النص علم كنسيح بيت العنكبوت ، ويقول أيضا إن النص هو نسيج الكلمات المنظومة في التأليف بحيث تفرض شكلا ثابتا (22).

لقد وضح بارت مفهوم النص من خلال تمثيله بيت محكم ، تسججه أحقر دواب الأرض ، وإن كان في الثقافة الإسلامية هو أو هن البيوت على الإطلاق (23) ، ولكن في صناعتها له دليل اتفاق وبه تتناظر ولادة النص ، فكل منهما ناتج عملية مجبوكة وشديدة التماسك ، ومن ثمة فقد وسّع بارت مفهوم النص باستخدام التشكيل الشبهي تارة وبالتركيز على الجوهر تارة أخرى ، بتأسيس نظرية خاصة به .

فالنص عنده نشاط وإنتاج ، وهو بهذه الآليات يصير قوة متحولة ، ويصير بناء يجمع معارف عدة ويتلقى ثقافات أخرى ، فهو بناء أساسه النقول المختلفة . وهو ما يتناقض مع نظرة جوليا كريستيفا .

2. جوليا كريستيفا :

وضعت جوليا كريستيفا منهجا جديدا تحدثت فيه عن النص وماهيته ونظريته في كتابها :

أ - بحوث في سبيل التحليل العلاماتي .

ب - نظرية الرواية

وقد أكملت كريستيفا الشكل النهائي لنظرية النص التي عينت بها المفاهيم البارتيّة بتطعيمها بأنظمة ممارستية خاصة بسيميائية الدلالة وهي :

- ممارسات دلالية - الإنتاجية - التمعن

- خلقة النص - التناص - تخلق النص

عرّفت كريستيفا النص تعريفا شاملا فهو ، آلة نقل لساني ، وأنه يعيد توزيع نظام اللغة ، فيضع الكلام التواصلي أي المعلومات المباشرة في علاقة تشترك فيها ملفوظات سابقة أو متزامنة (24).

وقد وضح الأستاذ سعيد يقطين غوامض هذا التعريف ، وذلك لنا مقاصده ، إذ يفهم حدود النص بأنه إنتاجية وله علاقة باللسان وهي علاقة توزيعية أي علاقة

قائمة على الهدم والبناء ، ثم إنه مؤسس على مجموعة متبادلة أو متناصدة إذ نجد في النص الواحد ملفوظات مأخوذة من نصوص عديدة غير النص الأصلي .

اعتبرت كرسيفا النص سلعة إنتاجية وهو مفهوم يشير إلى مجمل العمليات التي تجرى على المدلولات التي نعثر عليها منتجة أو محولة في هذا النص أو ذاك ، فالنص يمثل حركة مزدوجة بين فاعلية الكتابة ومخصلات القراءة الواعية ، وتمثل الكتابة قضايا الإنتاج والتحويل أما القراءة فتكشف علاقات التناص من خلال عمليات الهدم والبناء والتحويل بشكل يسمح بإبراز إنتاجية الأثر وقابليته على الانفتاح القرائي ، ما دام النص ملكا للجميع⁽²⁵⁾.

وبهذا التعريف كسرت كرسيفا تلك السياجات الحديدية التي أحكمت البنية إغلاقها على النص ، وأطلقت العنان لمفهوم النص رحبا يجوب عالما لا محدودا ، ويسبح في فضاء واسع الأرجاء .

3. مفهوم النص عند فان ديك :

ينظر هذا العالم إلى النص نظرة مبنية على اعتبار النص وحدة دلالية مستقلة تتشكل من بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية عميقة دلالية⁽²⁶⁾ ، وبتعريفه للنص يوضح فان ديك جملة من الشروط العملية تخص النص ، منها :

- يمكن تلخيصه في عنوان .

- استرجاع مضمون النص بواسطة ملفوظات أخرى لا تنتمي إلى النص الأصلي إذا كان طويلا خاصة.

- إمكانية تناسل نصوص أخرى متنوعة تتمتع ببنيات دلالية متميزة⁽²⁷⁾.

4. تعريف النص عند س. ج. شميث :

إذا كان مفهوم النص عند فان ديك يقوم على أسس دلالية بحثة تتم على مستوى البنية العميقة التي تكل جملة من التصورات والمفاهيم التي تسج عالم النص ، فهناك اتجاه آخر يمثله شميث ، حيث يعتبر النص آلية معدة للتواصل ، فهو يمثل تشكيلة لسانية منطوقة لها بعد اتصالي محدد المضمون .

يشترط شميث أن يحمل النص وحدة مزدوجة : محتوى ومقصد ، ويؤدي وظيفة الاتصال بإتقان ووضوح⁽²⁸⁾.

وقدم محمد مفتاح بين يدي الدارسين مجموعة من التعريفات المتشعبة ذات امتداد سري بماهية النص وحدوده .

- فهو مدونة كلامية : أي أن النص لا يمكن أن يكون صورة فوتوغرافية

- جامدة ، وإنما حدث كلامي .
- وهو حدث بمعنى أنه يقع في زمان ومكان محددين ، لا يمكن أن يتكرر عكس الحدث التاريخي .
- وتفاعلي أي يقوم بعملية التواصل ، مع أن النص يمتلك وظائف أخرى .
- وتوصلي : أي أنه يسعى إلى نقل الخبرات والتجارب إلى الآخر .
- ومغلق : أي له امتداد في الزمن من حيث أن الخط إيقونة تبدأ بمجال وتنتهي عنده ، وقد نبّه دوسوسير على هذا المبدأ (29).
- ولا شك في أن هذه التعريفات تعكس تنوع وجهات النظر في إرجاع مفهومية النص إلى الخصوصيات الاجتماعية والنفسية والحضارية ، فهناك التعريف البنيوي والتعريف الخاص باجتماعية الأدب ، والتعريف الذي يركز على الجانب النفساني في الأدب ، والتعريف الخاص باتجاه تحليل الخطاب .
- ومن هذه التعريفات خلاص محمد مفتاح إلى تركيب تعريف جامع للنص فهو- أي النص - مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة (30).
- والملاحظ أن هذا التعريف قد حاول الإحاطة بكل الجوانب المتعلقة بالنص الاجتماعية ، التاريخية ، النفسانية واللسانية . وعموما فإن الباحثين لإشكالية النص يتوزعون على خمس زمر في النظر إلى مفهوم النص :
- أ - يذهب جماعة منهم إلى تعريفه مباشرة من خلال مكوناته ، يمثلهم تودوروف ، فالنص في رأيه نظام تضميني يستطاع التمييز بين مكوناته على ثلاثة أوجه : ملفوظي ، نحوي ودلالي ، وهو يوازي النظام اللغوي ويتداخل معه .
- ب - قسم ثان يعرفه من خلال ارتباطه مع الإنتاج الأدبي ويمثله رولان بارت وجوليا كريستيفا ، فالنص في مفهومهما نسيج من الكلمات المنظومة في التأليف والمنسقة بشكل ثابت ، أهم مهماته إنه يضمن بقاء الشيء المكتوب وهو مرتبط تاريخيا بعالم أكمل من النظم والقانون والأدب والدين والتعليم .
- ج - يذهب قسم ثالث إلى ربطه بفعل الكتابة يمثله بول ريكور ، فالنص من منظور لساني ، هو كل خطاب تثبته الكتابة ، إذ هو أداء لساني وإنجاز لغوي يقوم به فرد معين .
- د - قسم رابع يذهب إلى أن النص يمثل بنية من نمط مختلف ، إنه يشكل وحدة دلالية تجيء في سياق بارز ، ويمثل هذا الاتجاه هالداي ورقية حسن وفان ديك
- ه - قسم خامس : يعرف النص على أنه وحدة دلالية مرتبط بعملية الاتصال وهي وظيفته الأولى ، ويمثل سميث هذا الاتجاه .

وعلى أية حال ، فالنص ظاهرة رمزية تتحدد ماهيته من خلال علاقته مع خارجه ، ويتعين بفعل مكوناته الداخلية وهو ليس مجرد مجموعة من الرموز اللغوية ، بل إنه بنية معقدة متعددة المستويات ، إنه تشكيلة كثيفة من علاقات الربط اللغوي والدلالي والتماسك المنطقي ، تتداخل فيها مساحات من الإيحاءات النفسية والاجتماعية والتاريخية وغيرها .

خاتمة

بعد أن استعرضت بالتفصيل المضامين المختلفة لمفهوم النص في كثير من التوجهات العلمية الحديثة والمعاصرة ، نخلص إلى مجموعة من النتائج نذكرها مرتبة :

1 - لم يصرح بمفهوم النص في الثقافة العربية القديمة إذ لم يرد ذكره في النص الحكيم ولا في مدونات فصيح أقوالهم إلا قليلا .

2 - إن مصطلح النص ليس غريبا عن الوعي الفكري للغة العربية ، والقول بأنه نتاج الحدائثة تجاوز لرصيد الحضاري الذي أسس بنيانه على ثقافة فهم النص المعجز والمقدس .

3 - إن تعدد مفاهيم هذا المصطلح دليل على أننا أمام غرض معرفي معقد ، وبالفعل يمكن إرجاع هذا الثراء المفهومي إلى اختلاف الباحثين في تصوراتهم لمثل هذه الحقول المعرفية واختلافهم في مناهج دراستها مما يصعب على الدارس أن يحيط بها ويوحد رؤيتها العلمية تجاهها .

4 - لقد أدت لسانيات الجملة دورا مهما في إبراز مفهوم النص باعتباره سلسلة متواصلة من الجمل المترابطة وخلصت مفهومه من قبضة المفاهيم البنيوية المغلقة .

5 - إن مفهوم النص ، وأهمية دراسته تبلور بعد الحركة العلمية النشطة التي سادت انطلاق المشروع النقدي المعاصر ممثلا في نظرية القراءة والتلقي التي بشرت بها لسانيات النص في نهاية القرن الماضي .

6 - إن مفهوم النص لا يمكن بحال من الأحوال حصره في ما أوردنا له من مفاهيم وتعريفات في الثقافة الغربية ، وذلك لتنوع طبيعة النصوص اللامتناهية ، إضافة إلى ارتباط النص ومفهومه بجملة من الشروط الأصولية والفكرية التي تخص البنيات الفكرية والعقائدية للمفكرين والدارسين .

الإحالات والهوامش :

1 - لسان العرب ، طبعة دار صادر ، ط3 ، بيروت ، ج7 ، ص 97 (نصص) .

2 - م ن ، ج ن ، ص 99 (نصص) .

3 - م ن ، ج ن ، ص ن (نصص) .

- 4 - جبران مسعود ، معجم الرائد ، طبعة بيروت ج2 ص1504 .
- 5 - ديوان طرفة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1987 ، ص 36 .
- 6 - جامع النص ، ترجمة عبد الرحمان أيوب ، دار توفيق للنشر ، الدار البيضاء ، ص 90 .
- 7 - حسين محمد حماد ، تداخل النصوص في الرواية العربية ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1997 ، ص 38 .
- 8 - عبد القادر شرشار ، تحليل الخطاب الأدبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص15 .
- 9 - لسان العرب ، ج 5 ، ص 648 .
- 10 - الشريف الجرجاني ، التعريفات ، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ط1 ، بيروت 1983 ، ص237 .
- 11 - الرسالة ، تحقيق محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، ط1 ، القاهرة ، ص14 .
- 12 - مغني اللبيب ، تحقيق حنا الفاخوري ، طبعة دار نهضة بيروت ، ج1 ، ص98 .
- 13 - الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، طبعة دار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج1 ، ص190 .
- 14 - J. DUBOIS et autres dictionnaire de linguistique et des sciences de la langage p482
- 15 - حامد أبو حامد ، الخطاب والقارئ ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، مركز الحضارة العربية ط2 ، بيروت 2003 ، ص60 .
- 16 - أحمد عفيفي ، نحو النص ، مكتبة زهراء الشرق ، ط1 ، مصر 2001 ، ص23 .
- 17 - م ن ، ص ن .
- 18 - صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت 1992 .
- 19 - سعيد حسن البحيري ، علم لغة النص ، مفاهيم واتجاهات ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط1 ، مصر 1997 .
- 20 - ورد مصطلح لسانيات النص عنوانا لكتاب محمد الخطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، كما ورد هذا المصطلح في كتاب مبادئ في اللسانيات للأستاذة خولة طالب الإبراهيمي .
- 21 - فان ديك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن البحيري ، دار القاهرة للكتاب ، ط1 ، مصر ، ص11 .
- 22 - منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري ، ط1 ، بيروت 2002 ، ص124 ، وينظر لذة النص ، ترجمة محمد الرفرافي ومحمد خير البقاعي ، مجلة العرب والفكر العالمي ع 10 ، 1990 ، ص35 .
- 23 - لم تأت تسمية السور القرآنية من الحشرات إلا بالنمل والعنكبوت والنحل وأشير إلى النمل بمساكنه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل18] كما وصف بيت العنكبوت بقوله تعالى : ﴿مَثَلِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت41] .
- 24 - محمد عبد الجبار ، النص الأدبي والمتلقي ، الفكر العربي ع 89 سنة 1997 ، ص06 .
- 25 - محمد حمود إستراتيجية القراءة والإقراء ، منشورات ديداكتيكا ، دار الخطابي للطباعة والنشر ط1 الدار البيضاء 1993 ، ص28 .
- 26 - زينتسلاف وأوريناك ، مدخل إلى علم النص ، ترجمة سعيد حسن البحيري ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، ط1 ، القاهرة 2003 ، ص56 .
- 27 - م ن ، ص ن .
- 28 - سعيد حسن البحيري ، علم لغة النص ، ص 81 .
- 29 - تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناس) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء ، ص119 .
- 30 - م ن ، ص120 .

قائمة المراجع :

- 1 - لسان العرب ، طبعة دار صادر ، ط3 ، بيروت ، ج7 ، (نصص) .
- 2 - جبران مسعود ، معجم الرائد ، طبعة بيروت ج2 .
- 3 - ديوان طرفة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت 1987 .
- 4 - جامع النص ، ترجمة عبد الرحمان أيوب ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء .
- 5 - حسين محمد حماد ، تناخل النصوص في الرواية العربية ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1997 .
- 6 - عبد القادر شرشار ، تحليل الخطاب الأدبي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .
- 7 - الشريف الجرجاني ، التعريفات ، وضع حواشيه محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ط1 ، بيروت 1983 .
- 8 - الرسالة ، تحقيق محمد شاكر ، المكتبة العلمية ، ط1 ، القاهرة .
- 9 - مغني اللبيب ، تحقيق حنا الفاخوري ، طبعة دار نهضة بيروت ، ج1 .
- 10 - الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، طبعة دار الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ج1 .
- 11 - J - DUBOIS et autres dictionnaire de linguistique et des sciences de la langue
- 12 - حامد أبرحامد ، الخطاب والقارئ ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، مركز الحضارة العربية ط2 ، بيروت 2003 .
- 13 - أحمد عفيفي ، نحو النص ، مكتبة زهراء الشرق ، ط1 ، مصر 2001 .
- 14 - صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت 1992 .
- 15 - سعيد حسن البحيري ، علم لغة النص ، مفاهيم واتجاهات ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، ط1 ، مصر 1997 .
- 16 - فان ديك ، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة سعيد حسن البحيري ، دار القاهرة للكتاب ، ط1 ، مصر .
- 17 - منذر عياشي ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، مركز الإنماء الحضاري ، ط1 ، بيروت 2002 ، ص124 ، وينظر لثة النص ، ترجمة محمد الرفرافي ومحمد خير البقاعي ، مجلة العرب والفكر العالمي ع 10 .
- 18 - محمد حمود إستراتيجية القراءة والإقراء ، منشورات ديلاكتيكا ، دار الخطابي للطباعة والنشر ط1 الدار البيضاء 1993 .
- 19 - تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء ، ص119 .

الأبعاد البلاغية والتركيبية للفظ القرآني بين الأداء والجمالية

مفيدة بنوناس*

الملخص :

تحاول هذه الدراسة الغوص في العالم الإعجازي للفظة القرآنية باعتبارها جزءاً مهماً في التركيب القرآني الذي كان ولا يزال الأنموذج اللغوي الأسمى الذي تشرب إليه أعناق الدارسين ، وتهوي إليه أفئدتهم ، فتكشف للمتلقي جمالية أدائها الإبلاغي المعتمد على ثقلها المعنوي المتزن وقوة تركيبها على جميع المستويات اللغوية ، متخذين من آراء ابن الأثير والرافعي سنداً في دراستنا الجمالية، كما سنركز على قيمة اللفظة في سياق الخطاب القرآني ، ونكشف سهولة فهمها وقرب تناولها من القارئ، فنؤكد بلاغة هذا الخطاب الذي كلما أرسل العلماء فيه البصر، وأجالوا فيه الفكر تكشفت حقائقه ، واستضاءت جوانبه .

Abstract :

This study tries to comprehend and go deep into this miracle Coran lexis which is an important element in Coran text structure and construction . This latter was and will always be a linguistic model attracting many scholars attention , trying to find out and discover its structural , linguistic and aesthetic construction images at all levels of language aspects , taking into account the views of many outstanding figures of language study as Ibn Athir, Rafai . Equally important , the study focuses the importance of the lexis word in the context of Coran discourse , uncovering the easiness of its comprehension to the reader . In doing so , the study proves the relevance and greatness of this discourse , which , the more scholars and linguists deal with it , the more aesthetic and artistic aspects of this text are uncovered and lights are shadowed over its .

بسط منهجي :

يعد الخطاب القرآني المعين الأول الذي ينبغي أن يرجع إليه من وجد في نفسه قابلية للتأدب بأدب الدرس وأدب النفس ، كيف لا وهو خطاب أنزل بلسان عربي مبين ، تحدى أهل البيان بجودة سبك وإتقان .

* قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات - جامعة الطارف . Mofida2010@gmail.com

الخطاب القرآني ينتمي إلى اللغة ، ولكنه تميز بخصائص ومعان أدخلته حيز اللغة التي ليست كاللغة العادية ، وظل مفارقا لغيره من النصوص ، مهما أجاد البلغاء تقليده يعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز ويخرج من طوق البشر .

وهذا الخطاب القرآني بألفاظه وجمله ، نال العناية شديدة مما جعله يستولي على عقول الدارسين على اختلاف أزمته ، وتباين مرجعياتهم الفكرية ، فقد إستفرغ النحاة القدامى الجهد في سبيل دراسته سنين عددا ، لكشف أنظمتها المخبأة ، وأسارته التي لا تنقضي ، وعجائبه التي لا تنتهي ، وتوالت الجهود من بعدهم في تقصي أنماط بنائه ، وتضافرت لتبيان إعجازه .

وعلى هذا الأساس فقد آثرنا المزوجة بين استخدام القدماء ، وتمثل آليات المحدثين وإجراءاتهم النقدية المتطورة في قراءة الخطاب القرآني وتحليله ، ليتبين جمالية اللفظ في البنية الداخلية للخطاب القرآني التي غدت في الدراسات الراهنة منهجا نقديا قابلا لدراسة أي نص .

وعليه ستعتمد الدراسة للحديث عن الأبعاد البلاغية والتركيبية للمفردة القرآنية على :

- 1- حسية الإبلاغ وقوة التركيب في اللفظ القرآني .
- 2- معايير جمالية اللفظ القرآني .

1- حسية الإبلاغ وقوة التركيب في اللفظ القرآني :

المتأمل للنص القرآني يجده مفتوحا على أبعاد كبرى في كل زمان ومكان ، يدعو أصحاب الأقلام الحرة إلى قراءة بنيته الجمالية قراءة واعية مدركة لأبعاد الجمال والجلال فيه ، بعيدا عن كل خلفية فكرية مريضة أو أحكام مسبقة(1).

لقد أسلمت الأمة العربية مقادتها لبلاغة القرآن إذ « لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جملة ، ألحانا لغوية رائعة ، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها ، فلم يفهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبين في عجزهم »(2).

فسر جمال التعبير القرآني يبدأ بالأحرف بأعيانها لتشكل اللفظة ، وكثيرا ما نحس بأن هذه اللفظة أجمل من اللفظة المرادفة لها في المعنى ، وليس الأمر

(1) ينظر حسن جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، دار النمير للطباعة والنشر دمشق ، 205 ص9.
(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 9 ، 1393 هـ - 1973 ، ص 214.

إلا أن تكون أصوات الحروف جميلة تروق السمع ، فالمعول عليه إذا إنما هو جمال الصوت في ذاته ، وهو جمال محسوس يحتكم فيه إلى الأذن ، وقد أشار النقاد إلى طبيعة الصوت الذي يلذ للأذن ، وهو ذلك الذي يأتيها باعتدال وفق ما ركبت عليه ، فكأن للأذن مستوى في الاستعاب تجمل الأصوات حين تفد عليها في هذا المستوى ، وتقبح حين ترتفع فوقه أو تهبط دونه ، ومما يتصل بهذا عند النقاد العرب قول ابن طباطبا : « إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعته له ، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها ؛ فالعين تألف المرأى الحسن وتقذى بالمرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمتن الخبيث ، والفم يتلذذ بالمذاق الحلو ، ويمج البشع المر ، والأذن تشوف للصوت الخفيض الساكن ، وتتأذى بالجهير الهائل ، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي . وعلّة كل حسن مقبول الاعتدال ، كما أن علّة كل قبيح منفي الاضطراب »(1).

وقول مصطفى صادق الرافعي : « وليس بخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرج فيه مدّاً أو غنّة أوليناً أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ، أو الإطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت في الموسيقى »(2).

وغير بعيد عن هذا رأي ابن الأثير الذي ذهب إلى أن أساس جودة اللفظ هو أصوات حروفه مما يستلذه السمع ؛ فما استلذه من الأصوات التي تصدر عن مخارج الحروف هو الحسن الجميل ، وما استقبحه وأنكره هو القبيح المردود ، وكأنه يقول بموسيقية التعبير اللغوي ، وقد حدد ابن الأثير أن أداة الحكم الجمالي على ألفاظ اللغة هي « الذوق » ، فحكومة الذوق هي التي ترضي في مذهبه ، وما استحسنه الذوق السليم هو الحسن ، يقول : « واعلم ، أيها الناظر في كتابي ، أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب - وإن كان فيما يلقبه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا - فإن الدربة والإدمان أجدي عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً »(3).

(1) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1956 م ، ص 14 ، 15 .

(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 215 ، 216 .

(3) ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد

وعنده لا يجوز التقليد إطلاقاً في شأن الحكم على مفردات اللغة بالجمال والقبح ، والجمال مادي « فيزيقي » غير عزيز إدراكه على من أوتي ملكة التذوق السليم ، وإذا كان الناس قد درجوا على استحسان ما استحسنه الأجداد واستقبح ما استقبحوه فإن ابن الأثير لا يكيل بكيلهم ، ولا يحطب بحبلهم ، بل ينبغي عنده أن يتلمس الجمال ويتذوق ، يقول : « فإن استحسان الألفاظ واستقبحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات ، إذا وجدت علم حسنه من قبحه » (1).

ويعتمد صاحب المثل السائر إلى المقايسة بقياس ضرب جمال يدرك بحاسة على ضرب يدرك بحاسة أخرى قصد الإقناع بـ « جمالية اللفظ القرآني » وإمكان تصيده ، فيقول : « ومن له أذن بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نعمة لذينة كنعمة أوتار ، وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النعمات والطعوم » (2).

والحق أنه بزّ السابقين في النهل من معين القرآن ، فقد وقر في صدره أن بيان القرآن فوق كل بيان ، وعنده أن كتاب الله ضم في جنباته البيان بأسره .

لقد امتلك ابن الأثير ذائقة لغوية ممتازة ، تتحسس في مفردات اللغة وظيفة أخرى غير الوظيفة البيانية ، فذهب في الإدراك الجمالي للألفاظ مذهبا بعيدا ، فمن أجمل ما قيل في شأن إدراك المتلقي لدلالات التعبير وجمالياته قوله : « اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص لها مهابه ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات ، وقد تحلّين بأصناف الحلبي » (3).

وبعد أن حددنا روح الجمال اللغوي وجوهره لنمض إلى الخطاب القرآني لنبين الشواهد التي تؤيد ما ذهبنا إليه ، ونأخذ في بيان أسباب جمالية اللفظ القرآني ، وهو ما إليه صبونا منذ البدء ، وما نحن إليه ماضون ، وهو لا يخرج عما أسماه ابن الأثير بـ « إمتاع الصوت للأذن » والمعايير التي نستند إليها بيانها فيما يلي :

محبي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، 1358هـ - 1939م ، 5 / 1 .

(1) المصدر نفسه ، 1 / 151 .

(2) المصدر نفسه ، 1 / 150 .

(3) المصدر نفسه ، 1 / 178 .

2- معايير جمالية اللفظ القرآني :

أ. عيار التأليف الصوتي :

يعتبر القرآن الكريم الأصل الأصيل للأصوات في اللسان العربي ، وقد حافظت أصواته على جوهرها بفضل جهود علماء القراءات والتجويد في تطبيق وترسيخ أحكام التلاوة الصحيحة ، وهي أصوات تميزها جمالية الأتلاف في أحرف المفردة الواحدة طالت أو قصرت ، وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام في عدد حروفها ومقاطعها ولكنها مع ذلك تخرج في نظمه منحرجاً سرياً ، وتكون من أحضر الألفاظ وأعذبها منطقاً ، وأخفها تركيباً كقوله تعالى : ﴿يَسْتَخْلِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾ فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، وبذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله : ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ﴾⁽²⁾ فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها⁽³⁾ وكتابهما حسنة لائقة .

ب. عيار الأتلاف اللفظي :

اعتنى القرآن الكريم بالألفاظ من حيث كونها أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات ، وأيضا اعتنى بدلالاتها من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب ، حتى إن أي مفردة في أي تركيب بمنزلة الفريدة من حب العقد ، إذا سقطت عز على الفصحاء سقوطها ، وهذه الدقة في الأتلاف اللفظي استرعت أنظار العلماء ، كيف لا وألفاظ القرآن هي لب كلام العرب و زبدته ، وما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر.

وإذا كان أهل الصناعة في اللغة العربية قد بذلوا جهودهم لوضع معايير يشترط بموجبها أن تكون اللفظة الفصيحة خالية من عيب تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، واشتراطوا أن يكون الكلام البليغ خاليا من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات والتعقيد ، ومن كثرة التكرار وتتابع الإضافات ، فالمتمامل في الخطاب القرآني المعجز يجده قد اخترق هذه المعايير ، ومع ذلك جاءت تعابيره على غاية من الدقة البيانية الجمالية سواء على مستوى الألفاظ أو

(1) النور ، الآية : 55 .

(2) البقرة ، الآية : 137 .

(3) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 229 .

التراكيب ، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يعسر على المرء حصرها ، منها قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرٌ نَّتَرِيبُ بِهِ رَبِّهِمْ أَلَمْ تَرَ يَوْمَ الْقَوْمِ قُلْ تَرِيبُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَّاغُوتٌ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِدَلٍّ لَّا يُؤْمِنُونَ فَبَلِّغْ لَهُمُ الْبَيِّنَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَمْ يَقُولُونَ خِزْيَانُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِطْرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعِيهِمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرُومٍ أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ أَمْ لَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ آلَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

فالمتأمل للآيات القرآنية يجد أن كلمة (أم) تكررت خمس عشرة مرة ، ومع ذلك جاء الخطاب القرآني في غاية الدقة والبيان البديعي بالرغم من التكرار .

ج. عيار سهولة النطق :

ويكون هذا إذا كانت المفردة مؤلفة من أحرف يسهل النطق بها ، سواء كانت الكلمة طويلة أم قصيرة ، وأيضا أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها ، وفي هذا قال ابن الأثير : «ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة ؛ ليخف النطق بها ، وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ؛ فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت ؛ ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء ؛ لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنها حركتان خفيفتان ، واعلم أنه قد توالى حركة الضم في بعض الألفاظ ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ ؛ فحركة الضم في هذه الألفاظ متوالية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة » (2).

وقد استوقفت هذه الألفاظ الرافعي وعدها خاصة للقرآن الكريم ، فقال : « ومن ذلك لفظة (النذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوته في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء في القرآن على العكس ، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ ، فتأمل هذا التركيب ، وأنعم ثم أنعم على ما تأمله ، وتدقق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها

(1) الطور ، الآية 30 - 43 .

(2) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 191 ، 192 .

في حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) ، وفي الطاء من (بطشتنا) ، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى (واو) تماروا) مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ؛ ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها ، وللغة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر) (1) ، وهو رأي غاية في الوجاهة .

د. عيار سهولة الفهم وقرب تناول :

تميز القرآن الكريم بلغته السهلة الممتعة ، التي يدرك شيئاً من دلالتها عامة الناس فيأنسون في أنفسهم قدرا من الفهم لممدلولاتهم ألفاظ الذكر الحكيم ، وهذه الصفة في القرآن الكريم تعتبر من مخايل اللغة الجميلة ، والبيان العالي ، ومكمن الجمال ها هنا سرعة انجلاء الدلالة لعقل المتلقي وغزوها لقلبه دونما إذن ، وقد تبين ابن الأثير آثار سهولة الفهم فقال معلقا على لغة فاتحة الكتاب المبين : « وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ ، يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوق ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ؛ فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب تناولها» (2).

وعدها الرافي صوت إعجاز القرآن الكريم « الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أوفي أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز» (3).

هـ. عيار ملائمة السياق :

أساس الملائمة هنا أن بعض الألفاظ أحق من مرادفها في أن تقع في جملة من الجمل ؛ فالسياق اللغوي قد يستجيد لفظاً وينكر مرادفه مكانه ، على الرغم من أنه يتفق معه في الدلالة ، وذلك قد يرتبط بالسبب والتألف بين الألفاظ ، وفي

(1) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 227 ، 228 .

(2) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 157 ، 158 .

(3) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 217 .

هذا المقام قال صاحب المثل السائر : « ومن الذي يؤتاه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها. ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على وزن واحدة وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَجْعَلُ اللَّهِ كَرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُكَ مَافِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضاً، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف يفعل؟» (1).

وقد يكون مرد الأمر هنا للدلالة الإيحائية لكل من اللفظتين، فلفظة الجوف تختلف عن لفظة البطن، إذ توحى الأولى بالضمور والعمق على عكس مادة البطن التي توحى بالنتوء والبروز والانكشاف، وهذا أنسب للدلالة على الحمل من مادة الجوف.

ومن جهة أخرى نجد أن بعض المفردات القرآنية قد جملت كثيرا لمناسبتها للسياق الصوتي أو التركيب الذي وردت فيه، وجماليتها ليست في ذاتها، وإنما أحرزتها بموافقته للسياق الذي وقعت فيه، ومن ذلك في القرآن «لفظة (ضيزى) فإنها في موضعها لا يسد غيرها مسدّها، ألا ترى أن السورة كلها، التي هي سورة النجم، مسجوعة على حرف الياء، فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وكذلك إلى آخر السورة، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان بزعمه الكفار، قال: ﴿الْكُفْرُ وَالْكَرْبُ وَالْأَنْثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدّها في مكانها» (2).

وقد وقف الرافعي عند هذه الكلمة وبين من جمالها مظاهر كثيرة، ومخايل لا يملك من يطلع عليها إلا أن يخفض جناح الإقرار والتأييد، قال: «وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضيزى» من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضوع غيرها؛ فإن السورة التي هي منها، وهي سورة النجم، مفصلة كلها على

(1) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 1/ 143.

(2) المصدر نفسه، 1/ 156، 157.

الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع أولادهم البنات ، فقال تعالى : ﴿ كُمْ الذِّكْرُ وَالْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمٌ ضِيزَىٰ ﴾ ، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها ، الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهمك في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغيراتها اللفظية... وأن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه مع ما قبلها ، إذ هي مقطعان : أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنيتين في «إذن» و«قسمة». وإحدهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكانها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي ، وهذا معنى رابع للثلاثة التي عدناها آنفاً. أما خامس هذه المعاني ، فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها ، إنما هي أربعة أحرف⁽¹⁾.

وهكذا عملت هذه اللفظة على التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره حتى تماسكت وتعانقت أشد التماسك والتعانق ، وذلك ليس بالأمر الهين ، بل هو مطلب كبير يحتاج إلى مهارة ، وحذق ، ولطف حس في اختيار أحسن الألفاظ لأحسن سياق .

و. عيار الفرق في التعامل مع الحس :

لقد تعامل القرآن الكريم مع الحس تعاملًا خاصًا ، فهو يرفق به ويسعى لإمتماعه ، ومن أمثلة هذا في القرآن الكريم ما وقف عليه ابن الأثير في قول العلي القدير : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾⁽²⁾ ، فقال : « وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له. فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ، فإنها تضمنت خمسة ألفاظ ، هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم فيها لفظة الطوفان والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخرًا ، وجعلت لفظة القمل والضفادع في الوسط ؛ ليطرق السمع أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهي إليه آخرًا ، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد ، وأخف في

(1) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 230 ، 231 .

(2) الأعراف ، الآية 133 .

الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها آخرأً. ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية» (1).

وقد وقف الرافعي عند هذه الآية وتبين أسباب الجمال فيها فقال مفصلاً مبيناً : « وما يشدُّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ، حتى أنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهي بالطبع مظنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيرها عنه ، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية ، بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء . تأمل قوله تعالى : ﴿ وَأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ فإنها خمسة أسماء ، أخفها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلها (القمل والضفادع) فقدم (الطوفان) لمكان المدين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مدّ ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغنة فيه ، ثم جيء بلفظة (الدم) آخرأً ، وهي أخف الخمسة وأقلها حروفاً ؛ ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بهذا الإعجاز في التركيب» (2) .

ز. عيار جمالية خاصة لبعض الصيغ :

المدقق في الاستخدام القرآني للمفردات يلاحظ أنه يصطفي صيغا صرفية خاصة للمفردات ، يلح عليها دون غيرها في استخداماته ، والممحص لها يدرك بعض الأسرار في إمساك القرآن بها ونبذ غيرها ، وتتصل بهذا مثلاً بعض الألفاظ التي تكون جميلة في حال الجمع وغير جميلة في حال الأفراد ، وقد يحدث العكس ، ويسري قانون جمالية المفردة القرآنية ها هنا بياثار الجميل واجتناب ما ليس كذلك « ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره فمن ذلك لفظة « اللب » الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر ، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة ، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى : ﴿ ولينذركم ولو ألآلآب ﴾ و ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي اللآب ﴾ وأشبه ذلك وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة ،

(1) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 148 .

(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 234 ، 235 .

وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافاً إليها» (1).

وقد استرعى هذا الرافعي فمضى يتبين ويتقصى حتى انتهى إلى قوله :
 «ومما لا يسعه طوق الإنسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر ، وكأنها صبّت على الجملة صباً أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها : كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِبُأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقوله : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ونحوهما ، ولم تجيء فيه مفردة ، بل جاء في مكانها (القلب) ؛ ذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها ، نصباً أو رفعاً أو جرّاً ، فأسقطها من نظمه بته ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة (الجب) ، وهي في وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة » (2).

أما عن استخدام بعض الألفاظ مفردة فقط فممنه «لفظة الأرض ، فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : (ومن الأرض مثلهن) في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ، ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعاً لفظة «البقعة» ، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿فَلَمَّا أَنَا هَانُودِيٍّ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَأْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ، والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة ، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا : بقاع الأرض ، أو ما جرى مجراها» (3).

كانت هذه الآيات البينات كلها شاهدة على جمالية المفردة القرآنية ، وإعجاز الخطاب القرآني الذي ما هو إلا «محاسن تتوالى وبدائع تترى» (4) بل هو كما وصفه عز وجل : ﴿الرَّكِبَاتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُمْ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (5).

(1) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 284 ، 285 .

(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 232 .

(3) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 286 ، 287 .

(4) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973 م ، 2 / 62 .

(5) هود ، الآية 01 .

إن القرآن الكريم خطاب معجز تحدى الملكة المبدعة لدى الإنسان ، ولا شك أن هذا الخطاب هو الذي هزَّ عقل الوليد بن المغيرة ووجدانه ، وهو الخبير بأشعار العرب كما اخبر هو عن نفسه ، عندما أتاه أبو جهل وطلب منه أن يقول في القرآن قولاً يدل على إنكاره وكرهيته له ، فقال وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمينير أعلاه مشرف أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته(1) .

قائمة المراجع :

- 1 القرآن الكريم ، رواية حفص.
- 2 ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، 1358هـ 1939.
- 4 ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1956.
- 5 الباقلائي ، إعجاز القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973.
- 6 حسن جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، دار النمير للطباعة والنشر ، دمشق ، ط 1 ، 2005.
- 7 محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن ، دار القلم ، الكويت ، ط 4 ، 1977.
- 8 مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 9 ، 1393هـ.

(1) محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن - دار القلم ، الكويت ، ط 4 ، 1977م ، ص 101 .

آليات التناص ومظاهره في مسرحية الأستاذ (أحمد رضا حوحو)

كمال علوات *

الملخص:

لعل إثارة بعض القضايا الفنية حول مستوى الكتابة الدرامية عند الكاتب رضا حوحو من جديد، هي استعادة جديدة للقدرة الخلاقة التي يمتلكها هذا الكاتب المميز على مستوى الساحة المسرحية الجزائرية، و بالتالي العمل على إعادة إدراجها من جديد نمطا فنيا مميزا وظاهرة جديدة ومنفردة على مستوى طبيعة النصوص الدرامية التي سادت جيل عصره والتي جاءت بعده، لاسيما في الوقت الذي تنتقل فيه الكتابة من موقع الاستهلاك اليومي من جهة و الغياب من جهة أخرى إلى مواقع الخلق والإبداع.

وتأتي عملية الاستعادة والإدراج لنصوص الكاتب الدرامية على نحو يتطلب التحليل و التنقيب في مصادرها وخصائصها وجمالياتها الفنية بإخضاعها لمختلف المناهج النقدية الحديثة التي سلطت الضوء على مكونات الأثر الأدبي والمسرحي، بما فيها المناهج التي تسعى إلى توضيح فكرة العلاقة الترابطية بين النصوص في تداخلها و تعالقها، على صعيد ما يمكن الاصطلاح عليه في لغة النقد الحديثة بنظرية التناص، من هذا المنطلق يأتي طرح الإشكالية الرئيسية التي تتمثل في:

طرح الإشكالية: أين تكمن آليات التناص و مظاهره و أشكاله في مسرح الكاتب الجزائري أحمد رضا حوحو؟

فكرة التجديد في البحث: تتمحور في طرح قضايا أخرى في مجال الأدب المسرحي الجزائري وبالخصوص مسرح رضا حوحو الذي سبق وأن عرف في الجانب القصصي فحسب في حين أنه يعتبر من رواد المسرح الجزائري الحديث.

الكلمات المفتاحية: أحمد رضا حوحو - المسرح الجزائري - مسرحية الأستاذ - التناص وآلياته - النص الدرامي - المناهج النقدية الحديثة - العلاقة الترابطية - الاقتباس - الحوارية - باختين - رولان بارث - مسرحية النائب المحترم

* كلية الآداب واللغات، جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة . kalaouat@yahoo.fr .

Abstract :

Raise some questions on the artistic level of playwriting at the dramatist RédhaHouhou again is a new restoration of the creative capacity of the featured author on the art scene Algerian theater. And promote this activity as a new artistic style and feature new unique phenomenon in terms of the nature of dramatic texts of his day and the next, especially as year transfer of writing on one side of the daily consumption and on the other hand his absence to the reality of creation and creativity.

The recovery process and the integration of dramatic texts of the author requires analysis and resource exploration, and stylistic characteristics by subjecting them to various methods of modern criticism that highlight the impact of the structure literary and theatrical, including methods that seek to clarify the concept of correlation between the texts called the theory of intertextuality.

From this point of view, the main issue is put below:

The issue: Where do we find the mechanisms of intertextuality and its forms in the theatre of Ahmad RedhaHouhou?

The idea of renewal in research: Centered raise other issues in the field of Algerian literature playwright and theater in particular RedhaHouhou who previously knew only in narrative, then it is one of the pioneers of modern Algerian theater.

Key words: Ahmad RedhaHouhou, Algerian theater, the play teacher, intertextuality and its mechanisms, dramatic text, modern critical methods, Correlation, Adaptation, Dialogism, Bakhtin, Roland Barthes, the play The Attorney estimated, Paratext.

مقدمة :

لقد أسهمت الحركة النقدية الجديدة في مطلع القرن العشرين في إثراء الساحة الأدبية والفنية مفسرة مكنونات الإبداع الفني على مختلف الأشكال والأجناس الأدبية والفنية من قصة ومسرحية ورواية. هذا الإثراء الذي سطر في بداية الأمر منحني يحدد فيه مختلف المفاهيم النظرية في حقل العلوم الإنسانية التي يصعب فيها التوصل إلى تحديد نهائي لها، لكونها مبنية أساساً على «مبدأ تعدد المعاني (Polysémie) هذا ما يجعل منها مكاناً خصباً تلتقي فيه كل الأبحاث الجديدة الهادفة إلى اغناء الخطاب المعرفي وتطوير مسألة القراءة النقدية»⁽¹⁾ التي تقوم على تحليل أي إنتاج أدبي وعلى

(1) عبد الوهاب ترو، تفسير و تطبيق مفهوم التناس في الخطاب النقدي المعاصر، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 61/60 فيفري 1989، ص76.

مستوى النص بناء على خصائصه وحقوله التواصلية والدلالية .

من هذا المنطلق جاءت محاولة فهم المصطلحات النقدية التي تدعو المدارس إلى الوقوف على المصوغات الفكرية والجمالية التي انبثقت من أحضانها وبلورت توجهاته ، ذلك أن طرح موضوع ما يتوجب في بداية الأمر أن يتحدد في إطار ابستمولوجي (جنري) ومنهجي واضح قائم على سلسلة من الفرضيات والبراهين ، وينطبق الأمر على مفهوم التناص عندما يتوقف على حقيقة العلمية والاصطلاحية القائمة على «العلاقات الترابطية بين النصوص»⁽¹⁾ بتعدد أشكالها الأدبية والفنية.

مفاهيم أولية حول التناص:

1 - النشأة والمفهوم :

مصطلح التناص مفهوم معاصر وظاهرة أسلوبية وتحليلية أفرزها الفكر الغربي في النقد الأدبي ، ومناصها دراسة وتحليل الإنتاج الأدبي بشتى أنماطه الفنية وهذا الإنتاج الإبداعي يقوم على مستويات لغوية وبواعث جمالية تتستر وراء رموز وإيحاءات واقتباسات من نصوص أخرى .

والكتابة الأدبية لها صلة بالكتابات الأخرى ، لأن الكاتب وهو يكتب لا ينعزل عن الكتابات السابقة والآنية التي قد اطلع عليها «فالكتابة ليست إلا حوارا للكتابات الأخرى. فكأن الكاتب حين يكتب ، لا يكتب جديدا ، وإن ظن أنه يبدع ويجدد لأن اللغة ميراث مشترك بينه وبين الكتاب الآخرين ، ولأن الأفكار مطروحة في الطريق - على حد تعبير أبي عثمان الجاحظ - ويمكن لأي من الناس التقاطها واستعمالها فيما يستعملها هو»⁽²⁾ بيد أن عملية التحليل تكون منطلقا من نسق بعض المقولات النقدية المفسرة للإبداع من تصورات فكرية وجمالية.

❖ الحوارية عند ميخائيل باختين *

إذا ما تتبعنا نشأة وماهية مصطلح التناص نجد أنه قد ورد ضمن الحديث عن الدراسات اللسانية ، وبالضبط عند العالم الروسي ميخائيل باختين من خلال كتابه (الماركسية وفلسفة اللغة) ، وقد اعتمد « كمرجع أساسي في النظرية الألسنية

(1) م ن ، ص 76.

(2) عبد المالك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، مساءلات حول نظرية الكتابة ، دار الغرب للنشر و التوزيع وهران ، دط ، 2003 ، ص 281.

* ميخائيل باختين (1895 - 1975) BAKHTINE Mikhail ناقد أدبي سوفيتي كان يتردد إلى أوساط الشكلايين الروس في ليننغراد ، وهو من أهم منظري الأدب في ق 20 له دراسات في اللغة و الأدب من أهم أعماله : المنهج الشكلي في التاريخ 1928 - الماركسية و فلسفة اللغة 1929 - علم الجمال و نظرية الرواية 1965.

والإيديولوجية فقد أثار فعلا موجة من التساؤلات حول إشكالية الملفوظية (Enonciation) التي تنظم بنية الخطاب وتقنيات النقد السوسيلوجي للأثر الأدبي»⁽¹⁾، واتخذ هذا المصطلح تسمية الحوارية عند باختين .

لكن سرعان ما تبنته جوليا كريستيفا بتسمية التناس حين «استنبطته من باختين في دراسته لدستو فسكي، حيث وضعت تعددية الأصوات (البوليفونية) والحوارية (الديالوج) دون أن يستخدم مصطلح (التناس)»⁽²⁾ بعدها احتضنته البنيوية الفرنسية واتجاهات سيميائية وتفكيكية من كتابات كريستيفا ورولان بارث وتودوروف* وغيرهم من رواد النقد الحديث .

على الرغم من أن مفهوم التناس يحمل بذورا قديمة، إذ أنه ساد في الماضي إحساس عام بأن دراسة أعظم الأدباء لا يمكن أن تدور في فلكهم وحدهم لأن هذه الدراسة لا تكفي للوصول إلى معرفة كاملة بإنتاجهم الأدبي والفني وهذا يتطلب معرفة السلف وأكثر المبدعين أصالة من خلال الرواسب التي تحملها إبداعاتهم السابقة .

على هذا الصعيد فإن تودوروف يؤكد أن هذه الظاهرة التعبيرية تعود إلى الشكلايين الروس ذلك من خلال «ما كتبه شيكوفسكي إن العمل الفني يدرك من علاقته بالأعمال الأخرى وبالاستناد إلى الترابطات التي نقيمها فيما بينها»⁽³⁾ أثناء التحليل والتقيب .

ومن جهة أخرى يزيد في تفسير رأيه حول حركية العمل الفني الذي يبدع على نحو من التوازن والتقابل مع نماذج معينة من نصوص معارضة ومتفككة، وفي هذا الشأن «يرى أن باختين هو أول من صاغ نظرية حول تعدد القيم النصية المتداخلة، فهو يجزم بأن عنصرا مما يسميه رد الفعل على الأسلوب الأدبي السابق يوجد في كل أسلوب جديد... والفنان ينمو في عالم مليء بكلمات الآخرين فيبحث في خضمها عن طريقه وفكره لن يجد إلا كلمات قد تم حجزها»⁽⁴⁾ ويدخل

(1) عبد الوهاب ترو، تفسير و تطبيق مفهوم التناس في الخطاب النقدي المعاصر، م س، ص 77.

(2) محمد عزام، النص الغائب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 28.

** تريفان تودوروف (1939) TODOROV Tzvetan باحث و ناقد فرنسي و لد في صوفيا من أصل روسي نشر أعمال الشكلايين الروس ضمن كتابه نظرية الأدب 1965 له أعمال مهمة في الأدب و النقد و الدلالة منها: الأدب و الدلالة 1976 - مدخل إلى الأدب العجائبي 1970 - شعرية النثر 1971.

(3) عبد الستار جبر الأسدي، ماهية التناس (قراءة في إشكاليته النقدية)، أنظر الموقع الإلكتروني:

Www.fikrwanakd.aljabriabed.net/indexl.htm

(4) محمد عزام، النص الغائب، م س، ص 29.

* جماعة من النقاد الفرنسيين كونت مجلة سميت باسمها ظهرت عام 1960 وأخذت اسمها وتوجهها من الشاعر

التناص هنا ضمن مفهوم يقوم على تشكيل نص جديد مع نصوص سابقة ولاحقة . ومن هنا يؤكد تودوروف أن منطلق التناص كان من الحوارية الباختينية الذي تطور بعد ذلك على يد السميائيين ، لا يمكن عزل فكرة التناص في أصلها عن الأعمال النظرية « لجماعة » تيل كيل * Tel Quel ومجلتها الحاملة لاسمها فقد نشرت المفاهيم الرئيسية التي أعدتها طائفة من منظري الجماعة الذين تركوا بصمات عميقة من جيلهم ، ففي أوج مرحلة لها سنة 1969/1968 ظهر المفهوم الجوهري بشكل رسمي في المعجم النقدي للطليعة» (1) وعلى يد جوليا كريستيفا في أعمالها المنشورة في المجلة TelQuel و Critique وفي البداية جاءت به لتعريف مصطلح ايديولوجيم Idéologème الباختيني الذي يعني عندها « عينة تركيبية تدخل في تنظيم نصي معطى بالتعبير المتضمن فيه أو الذي يحيل إليه» (2) ، وبعد مرور عشرة سنوات على ظهوره أصبح التناص أكثر تبلورا وأكثر تناولا في المجالات وانتقل من أوروبا إلى أمريكا ، حيث أقيم في نيويورك منتدى دولي سنة 1979 خاص حول ظاهرة التناص وتوسع مفهومه وتولدت منه مصطلحات أخرى .

والتناص Intertextualité على العموم يشكل في معناه «التداخل النصي» فالنص في حالة صيرورته يتقاطع مع نصوص سابقة عليه لا يحصى عددها والتي قد يتمثلها إراديا أو غير ذلك .

بالإضافة إلى أنه مصطلح سميولوجي تشريحي عرفه روبرت شولز قائلا بأن «النصوص المتداخلة اصطلاح أخذ به السميولوجيون مثل رولان بارث وجيرار جينيت وجوليا كريستيفا وميكائيل ريفاتير. هو مصطلح يحمل معاني وثيقة الخصوصية تختلف بين ناقد وآخر ، والمبدأ العام فيه هو أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى مثلما أن الإشارات Signes تشير إلى نصوص أخرى ، وليس للأشياء المعنية مباشرة والفنان يكتب ، يرسم ، لا من الطبيعة وإنما من وسائل أسلافه في تحويل الطبيعة إلى نص آخر ليجسد المدلولات» (3) ، التي تتناسب مع إنتاجه الإبداعي الجديد من أفكار ورؤى بحيث تميز عمله عن النصوص الأخرى .

هذا المصطلح الذي جاء نتاج توجه فكري واستجابة لحاجيات ثقافية وفنية

الفرنسي بول فاليري الذي نشر عملا بهذا العنوان عام 1941 الجزء الأول و الجزء الثاني عام 1934 عن دار غاليمار : ينظر وائل بركات ، مفهومات في بنية النص ، دار معد ، دمشق ، ط1 ، 1996 ، ص84 .

(1) ب.م . دويبازي ، نظرية التناص ، تعريب : المختار حسني ، ينظر الموقع : Www.fikrwanakd.aljabriabed.net/21_30table.htm

(2) عبد الستار جبر الأسدي ، ماهية التناص (قراءة في إشكاليته النقدية) ، م.س.

(3) عبد الله الغلامي ، الخطيئة والتكفير ، النادي الأدبي ، جدة ، (د.ط) ، 1985 ، ص 321/320.

وباعتباره نظرية نقدية قائمة على تجربة مناصها أن « لا وجود لخاصية الإبداع الخالصة لأن أكثر النصوص أصالة تأكد أنها إعادة لنصوص أخرى أو على الأقل تسجيلات حديثة العهد مغطاة داخلها» (1)، فكل نص يمكن قراءته على أنه فضاء لتسرب ولتحول نص واحد أو أكثر من النصوص في نصوص أخرى .

ويؤكد ليتش LEITCH من جهة أخرى « أن النص ليس ذات مستقلة أو مادة موحدة ، ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى [...] إن شجرة نسب النص شبكة غير تامة من المقتطفات المستعارة شعوريا أو لا شعوريا» (2) ، وهذا المفهوم يوحي أن النص متولد من نصوص أخرى ، بمعنى أنه خلاصة من نصوص لا تعد ولا تحصى ، لأن النص يشكل تعالقا مع النصوص السابقة أو المعاصرة .

♦ التناص عند جوليا كريستيفا :

بيد أن أهم إسهام في مجال التناص قام به السيميائيون وعلى رأسهم جوليا كريستيفا التي طرحت لأول مرة مفهوم التناص في منتصف الستينات من القرن العشرين ، وذلك في أعمالها المنشورة في مجلة Tel Quel بين عامي (1966 - 1967) ، وكان منطلقها من الحوارية الباختينية التي اعتمدت في «استبصاراته النقدية في دراساته حول ديستوفسكي ورابليه ، حيث يؤكد أن كل خطاب أدبي إنما يكرر خطابا آخر ، وأن كل قراءة تشكل بنفسها خطابا ذلك أن الكتابة تعني ثلاثة عناصر : النص ، الكاتب ، المتلقي. بالإضافة إلى عنصر التناص الذي يناقش مع هذه العناصر الثلاثة» (3) ففي كل نص تناص ، سواء بوعي من الكاتب أو بغير وعي ، كما أن القراءة تثير لدى المتلقي ذكرياته وخبراته ومعلوماته السابقة .

على هذا الصعيد يمكن الإقرار على أن التناص عند كريستيفا حوار بين النص وكاتبه وبين ما يحمله من خبرات ، كما أنه حوار بين النص ومتلقيه وكذا ما يحمله المتلقي من اطلاع سابق وخبرات تعينه على اكتشاف تلك النصوص الغائبة والمتداخلة وهذا ما يفسر انطلاقة كريستيفا من الحوارية عند باختين الذي أطلقت عليه بعدها بالتناص وهي تقول : « يتشكل كل نص من موزاييك من الشواهد . وكل نص هو امتداد لنص آخر ، أو تحويل عنه Transformation (4) وبدلا من

(1) CHRISTIAN Achour, BEKKAT Amina, Clefs pour la lecture des récits, Edition de Tell, Algerie, 2002,p101.

(2) عبد الله الغلامي ، الخطيئة والتكفير ، م س ، ص 321.

(3) محمد عزام ، النص الغائب ، م س ، ص 38.

(4) Julia Kristiva, Semiotike, Recherche pour une sémanalyse, Seuil, Pointn°96, Paris, 1970,

استخدام مفهوم الحوار بين شخصين أو أكثر يتسنى استخدام التناصية وتأتي ازدواجية القراءة للغة الأدبية.

وفي تعريف كريستيفا للنص على أنه إنتاجية فهي تقرر «أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي ، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتألف ملفوظات عديدة متقطعة من نصوص أخرى...مع الملفوظات (المقاطع) التي سبق عبرها في فضائه أو التي يحيل إليها في فضاء النصوص (الدراسات السيميائية) الخارجية اسم الإيديولوجية الذي يعني تلك الوظيفة للتداخل النصي التي يمكن قراءتها ماديا على مستويات بناء كل نص تمتد على مساره مانحة إياه معطياته التاريخية والاجتماعية» (1) التي بدورها تعد بمثابة الخلفيات الأساسية في النص.

لابد أن هذا المفهوم الكريستيفي للتناص في النقد المعاصر يكاد يصل إلى الدرجة التي يرى فيها الكثير من الدارسين حتمية التناص في كل نص ، وقد اعتبر قانون النصوص كلها حيث «أن كل نص هو تناص» (2) لأن النص الجديد يقوم بفهم وتمثيل وتحويل النصوص التي سبقته ، لذا فهو لا يستطيع الخلاص من الوقوع في شرك جدلية القراءة - الكتابة التي تعتبر مرجعية الإنتاج النصي ، وتحدد علاقة النص الجديد مع النصوص الأخرى التي تفاعل معها ، ولا يمكننا الكشف عن طبيعة هذه العلاقة إلا عن طريق التناص .

لكن سرعان ما تخلت كريستيفا عن مصطلح التناص عندما لاحظت تسارع بعض النقاد إلى تبني هذا المصطلح أمثال : تودوروف وجيرار جينيت وميشيل آريفيي واستخدامه بالمعنى المبتدل وفضلت عليه مصطلحا آخر هو (المناقلة) أو (التحويل) (3) (Transformation) ما انصرفت عن الاهتمام بالواقع التاريخي للخطاب.

♦ التناص عند رولان بارث

يعد (رولان بارث R.Barthes) من بين النقاد السيميائيين الذين ساهموا في بلورة مفهوم التناص وتطويره ، متقصيا آثار جوليا كريستيفا ، لأنه لم يستعمل مصطلح التناص إلى غاية 1973 في كتابه «لذة النص» ويتمحور ذلك من خلال مفهومه للنص المقارب لمفهوم كريستيفا.

ويعرفه في مقال له بعنوان «النص» الذي يظهر في L'Encyclopaedia Universalis في 1973 قائلا : «النص إنتاجية ، وهذا لا يعني أنه إنتاج للعمل [...]»

(1) جوليا كريستيفا ، علم النص ، تر : فريد الزاهي ، دار تويقال للنشر ، المغرب ، ط1 ، 1991 ، ص 22/21.

(2) عبد الستار جبر الأسدي ، ماهية التناص (قراءة في إشكاليته النقدية) ، م س.

(3) محمد عزام ، النص الغائب ، م س ، ص 38.

ولكن المسرح على الرغم من أنه إنتاج أيمن يربط منتج النص بقارئه. إن النص يعمل في كل وقت ، ومن جهة أخرى عندما يتم اتخاذه» (1) ، فالنص بهذا المعنى يعيد توزيع اللغة والتناصية قدر كل نص مهما كان جنسه الذي ينتمي إليه.

ويصف بارث عملية تبادل النصوص - منطلقا من منجزات كريستيفا محاولة منه للتوسيع والشرح المفصل - على أنها « أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزا وفي النهاية تتحد معه ، هو واحدة من سبل ذلك التفكك والانباء ، كل نص تناص ، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصبية على الفهم بطريقة أو بأخرى ، إذ نتعرف نصوص الثقافة السالفة والحالية ، فكل نص ليس إلا نسيجا جديدا من إستشهادات سابقة» (2) ، لأن المؤلف وهو في مرحلة الكتابة يعتمد على موروثه الثقافي والإطلاع الواسع الذي شكل به نظرتة للكون والإبداع بما في ذلك من وسائل هي مادة الإبداع تعينه بما فيها اللغة والأسلوب الشخصي.

من خلال هذه العملية الإلهامية المركبة ، يأتي النص الأدبي والفني الذي هو ميدان ومسرح تدور فيه النصوص القديمة والحديثة ، لكن بارث لم يتخذ هذه العملية مسلمة باعتبار هذه النصوص المتداخلة متخفية وراء السطور تتطلب من المتلقي أن يمتلك قوة الإطلاع وموهبة التفسير للكشف عنها و«البحث عن أصول الأثر والمؤثر التي خضع لها رضوخ الأسطورة ، السلالة والانحدار ، أما الاقتباسات التي يتكون منها النص فهي مجهولة الاسم ولا يمكن ردها إلى أصولها ، ومع ذلك فقد سبقت قراءتها : إنها اقتباسات لا تقدم نفسها كذلك ولا توضع بين أقواس» (3) بل تنصهر وتذوب في نص المبدع الحاضر أكثر من أن تؤدي عملها كما يصبو إليه الكاتب وتخدم أهدافه المبتغاة .

من هنا نستنتج أن بارث لم يزد من مفهوم المصطلح سوى أنه قدم توضيحا واسعا ومفصلا لتظير كريستيفا حول التناص وعن الحوارية عند باختين ، واكتفى بتقديم معنى لمفهوم النص المتداخل حيث إن «النص هو بروسست أو الجريدة اليومية أو شاشة التلفزيون ، فالكاتب يصنع المعنى والمعنى يصنع الحياة» (4) وكلمة النص Texte عنده تعني النسيج أما نظرية النص فهي «علم نسيج

(1) Christan ACHOUR , Amina BEKKAT, Clefs pour la lecture des Récits , Op Cite, p105

(2) عز الدين المناصرة - التناص و التلاص - أنظر الموقع :

www.jehat.com/jehaat/a/janatAltaaweel/makalatNakadeya/aaldeenalmonasra.htm#1

(3) رولان بارث ، درس في السميولوجيا ، ترجمة : عبد السلام عبد العالي ، دار توبقال ، 1982 ، ص63.

(4) رولان بارث ، لذة النص ، ترجمة : فؤاد صفا و الحسين سبحان ، المغرب ، 1988 ، (د ط) ، ص40

العنكبوت»⁽¹⁾، بمعنى أنه شرح انفتاح النص على الحياة والمجتمع.

♦ المتعاليات النصية (جيرار جينيت G.Genette)

ويتناول الناقد الفرنسي جيرار جينيت من جهته التناص على أنه «متعالى نصي» (Transtextualite) الموازي لمنطلق التداخل النصي الذي يقصد به «الوجود اللغوي وربما كانت أوضح صور الاستشهاد بالنص الآخر، داخل قوسين بالنص الحاضر»⁽²⁾ وهنا يكشف لنا العلاقة الكامنة بين النص اللاحق بالنص السابق له.

وهذا المعنى يوحي بالمعرفة التي ترصد العلاقات الخفية والواضحة لنص معين مع النصوص الأخرى «كما يتضمن علاقة المحاكاة وعلاقة التغيير والمعارضة والمحاكاة الساخرة»⁽³⁾، ويحدد جينيت أنماط التناص بمايلي:

- **التناص Intertextualité**: وهو المفهوم الكريستيفي المحدد للعلاقة بين نصين أو أكثر، ويتجلى ذلك بالاستشهاد والسرققة والتلميح، أو يكون منحصرًا بحضور فعلي نص في نص آخر.

- **المتناص Métatextualite**: (أوما وراء النص) بمعنى علاقة التفسير التي تربط نصا بآخر، بحيث يتحدث عنه دون تلفظه بتعبير آخر «هي علاقة نقد»⁽⁴⁾ ويكون ذلك بالإشارة.

- **النص اللاحق Hypertexte**: تعالق نص لاحق بالمحاكاة أو التحويل إلى نص سابق، ومثالها (أوديسة هوميروس) التي تحاكيها (أوليس) جويس وتختلف عنها⁽⁵⁾.

- **المناص Para texte**: وهو ما نجده في العناوين والمقدمات والذبول، الصور، كلمات الناشر، ومثال ذلك رواية «أوليس» لجويس الذي عنوان كل فصل فيها بما يربط مشاهد الأوديسة: عرائس البحر.

- **معمارية النص Archi texte**: أو جامع النص ويتضمن علاقة تداخل الأنواع الأدبية من رواية وقصة ومسرحية وشعر وهو الشكل الأكثر تجريدًا وتضمنا لأنه يتضمن مجموعة الخصائص التي ينتمي إليها كل نص على حدة في تصنيفه على أنه جنس أدبي. هذه الأنماط الخمسة التي سطرها جينيت قد شرحها في كتابه بعنوان

(1) رولان بارث، درس في السميولوجيا، م س، ص 62.

(2) محمد عزام، النص الغائب، م س، ص 40.

(3) جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار توبقال، الدار البيضاء، ط3، 1986، ص 90.

(4) ب. م. دوييازي، نظرية التناص، م س.

(5) محمد عزام، النص الغائب، م س، ص 40.

« معمارية النص » عام 1986 وبشكل مستقل.

2 - قوانين التناس :

يمكن تحديد ثلاثة قوانين للتناس لها القدرة للكشف عن الحدود الفاصلة بين النص الغائب والنص المائل وهي :

- **الاجترار** : عملية إعادة كتابة النص الغائب « بوعي سكوني وتمجيد بعض المظاهر الشكلية الخارجية»⁽¹⁾ وفيه يستمد المؤلف مادته من عصور سابقة فينتج عن ذلك انفصال في عناصر الإبداع بين النصوص السابقة واللاحقة ويطفو السابق حتى ولو كان فارغا.

- **الامتصاص** : وهي نفس عملية الأول لكن وفق حاضر النص الجديد ليصبح استمرارا له متعاملا معه بمستوى حركي وتحولي « وفيه ينطلق الأديب من الإقرار بأهمية النص الغائب ، وضرورة(امتصاصه)»⁽²⁾ من خلال النص المائل المتضمن وكاستمرار متجدد ، والامتصاص هو أعلى درجة من سابقه .

- **الحوار** : يشكل أعلى المستويات ويعتمد على القراءة الواعية المعمقة التي تزود النص المائل ببنيات النصوص السابقة سواء معاصرة أو تراثية بحيث تتفاعل معها على قوانين الوعي واللاوعي.

3 - التناس في النص الدرامي :

تتجلى وراء أي إنتاج أدبي وإبداعي أو أي عمل فني رسالة معينة تسهم في إبلاغها حتمية تشتمل على بعض الوسائل المختلفة ، وتمثل هذه الحتمية في عملية التواصل بين المرسل (الكاتب والمبدع) الذي يريد الإبلاغ ، والمتلقي (القارئ والجمهور) الذي يحاول تفسير هذا البلاغ (الإبداع) ، ذلك لأن إدراك مضامين هذا الإنتاج الأدبي أو الفني وأبعاده الجمالية عملية لا تتم إلا من خلال تفاعل مشكلة الثقافة الناص و(المتلقي) التي تسهم في إنتاج النص وتلقيه.

ولعل هذه الحتمية تنطبق على الكتابة الدرامية ذلك لأن «التأليف المسرحي لون من ألوان النشاط الفني ، هو نوع أدبي يتحقق ما يتحقق في سائر الأنواع الأدبية من ارتباط بالحقيقة... والمشكلة هي تحديد الوسيلة التي يتناول بها المؤلف المسرحي الحقيقة ، وكيف يعرضها ، ثم طريقة فهمه لها»⁽³⁾ ، وهذه الحقيقة نابعة

(1) عبد الستار الأسدي ، ماهية التناقض(قراءة في إشكالية نقدية) م س .

(2) محمد عزام ، النص الغائب ، م س ، ص 40.

(3) عز الدين إسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 27.

من مصادر تاريخية وتراثية واجتماعية قام المؤلف - أثناء الاستعانة بها - ببلورتها وتعديلها لتصب في مبتغاه وأفكاره التي يريد إيصالها للمتلقي.

. مفهوم التناسخ في المجال الدرامي:

انطلاقاً من نظرية التناسخ في النص الأدبي التي أقرها كل من جوليا كريستيفا ورولان بارث، يحاول « باتريس بافيس Patrice Pavis » تقديم تعريف لمصطلح التناسخ في المجال الدرامي ويقول إنه « على نفس الكيفية، النص الدرامي والاستعراضية يقف داخل سلسلة من الإرشادات الدراماتورية والإجراءات الإخراجية، وأن بعض المخرجين لم يترددوا في إدراج نصوص أجنبية داخل نسيج النص المراد إعداده حيث تكون العلاقة الوحيدة في المسرحية تيمية وساخرة وتوضيحية»⁽¹⁾، كما يسهم من جهة أخرى في إعداد وتنظيم الحوار بين النص المقتبس والنص الأصلي، وهذه التقنية التي تميز بين موضع قريني اجتماعي أو سياسي بسيط بناء على عمليات إخراجية متعددة، ذلك « أن البحث في التداخل النصي يحول النص الأصلي بنفس الحجم على مستوى الدوال والمدلولات، إنه يعمل على تفجير الخرافة الخطية والإيهام المسرحي، ويواجه إيقاعين ومجالين من الكتابة غالباً ما تكون متعارضة، وتضع النص الأصلي بعيداً ومركزة على المادية»⁽²⁾، من هذا المنطلق ينبثق التداخل النصي بتواجد نصين دون إحداث أي تغيير في بنية النص الأصلي، والتناسخ هنا يدفع إلى البحث عن العلاقة بين نصين ويعمل على إحداث مقاربات جذرية بالإضافة إلى توسيع أفق الكتابة الدرامية.

تحاول الاتجاهات النقدية الحديثة النظر في المؤثرات النصية السابقة على النصّ الدرامي التي تتجلى في صياغات معلومة أو مجهولة النسب، وتضمينات واعية أو لا واعية في النصّ و اندياح للذاكرة أو استرجاع، مما يجعل النصوص المسرحية والنصوص الأدبية الأخرى « تتفاعل فيما بينها، وتتعلق مشتجرة، فالأدب ينمو في عالم مليء بكلمات الآخرين. والنصّ تشكيل لنصوص سابقة ومعاصرة أعيدت صياغتها بشكل جديد»⁽³⁾، بحيث لا تكون هناك حدود فاصلة بين نصّ وآخر، وإنما يأخذ النصّ من نصوص أخرى ويعطيها في آن واحد. وهكذا يبدو (النص الغائب) مكوناً رئيسياً للنصّ الدرامي (المائل)، ذلك أن

(1) Patrice Pavis, Op cite, p17 8

(2) Ibid, P178.

(3) محمد عزام، الكوميديا الساخرة في مسرح عبد الفتاح قلعه جي (مدينة من قش) نموذجاً، ينظر الموقع:

www.awu-study.htm_dam.org/book/indx

النصّ المائل لا ينشأ من لا شيء « وإنما يتغذى جنيناً من دم غيره ، ويرضع حليب أمهات عديدات وتتداخل فيه مكونات أدبية وثقافية متنوعة. قد كان من شروط تعلم الشعر عند العرب أن يطلب من الشاعر ، في مرحلة التلقي ، أن يحفظ كثيراً من أشعار غيره ، ثم ينساها ، في مرحلة العطاء الشعري ، لتدخل محفوظاته هذه في نسيج عطائه ، ولكن بشكل جديد. وهكذا يغذي الوعي اللاوعي» (1) ، ويظهر التناص من خلال علاقة تفاعل وتعالق بين نصوص سابقة ونصّ حاضر.

تتعدى الظاهرة التناصية دائرة تداخل النصوص فيما بينها من نفس الجنس لتشمل علاقة ترابطية تخصص تداخل الأنواع الأدبية ، بناء على مبدأ التحول من الكتابة في إطار جنس ما إلى جنس أدبي أو فني آخر ، وقد حدد « جيران جينيت » هذا المبدأ وهذا التداخل أثناء رصده لمصطلح « المتعاليات النصية » ، وأدرج ضمن هذه المتعاليات عنصراً تناصياً يمثل « معمارية النص (Archi texte) » ويقصد علاقة تداخل الأنواع الأدبية من رواية وقصة ، شعر ونص مسرحي ، وذلك عبر تمازج العناصر البنائية التي يقوم عليها كل نوع على حدة .

وتتطبق هذه العلاقة التداخلية على النص الروائي والنص المسرحي من خلال مبدأ التحول من الكتابة الدرامية إلى الكتابة الروائية ، كما يظهر ذلك في النص الدرامي « إليكترا (Electre) » للكاتب الفرنسي « جان جيروودو (J. Giraudoux) » الذي كتب هذا النص مرتين ، ففي المرة الأولى لم يبتعد كثيراً عن مصادر ونماذج هذا النص عند المؤلفين اليونانيين أمثال « سوفكل (Sophocle) ويوريبيد (Euripide) » (2) .

لكن في المرحلة الثانية التي تشمل النص الروائي ، فقد اعتمد على تقنيات ومصادر مغايرة للنص الدرامي حيث « أدخل لعبة التفاعل بين الخطابين الروائي والمسرحي من خلال مبدأ الانعكاس (spécularité) الذي رسم أبعاد التناص والأشخاص وسرد الحقيقة (Narration de la vérité) ضمن إطار قنوات الملفوظية التاريخية (historique énonciation) والملفوظية الجمالية (énonciation discursive) (3) والتي تستند بطبيعتها في بنية الكتابة الدرامية لأنها تقوم على وصف جمالية الأحداث ، بينما الملفوظية التاريخية التي تستند بالدرجة الأولى في مجال الكتابة الروائية لأنها تقوم على عنصر السرد. وهذا الطرح الجديد الذي بلوره « لوسيان ديلنباغ » في مصطلح التناص الداخلي المقيد ويمثل تداخل نصوص الكاتب

(1) محمد عزام ، م ن ، ص 54.

(2) Voir : JEAN Giraudoux, Electre _ Bordas, Paris, 1985, p : 19 _ 20.

(3) عبد الوهاب ترو ، تفسير و تطبيق مفهوم التناص في الخطاب النقدي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 81.

الواحد فيما بينها(1).

. الحقول التناسخية في النص الدرامي:

إن حتمية التواصل واستمرارية التفاهم في نسيج النص الأدبي في مختلف الأجناس قائمة على مسألة الحضور والغياب ، ولا جدل من تواجهها في متن النصوص الدرامية ، ذلك أن « طبيعة التناسخ تتجلى في الهيئة - الحالة - التي يتم عبرها التواصل »(2) ، في مستوى النص الدرامي التي تظهر في حقول معرفية ذات أشكال بنائية وفنية تعين المؤلف الدرامي في بناء معماره الدرامي مستعينا بموروثه الثقافي الذي « فيه تظهر أصالة الكاتب قوية عميقة إلى جانب تأثرهم بسابقيهم وإفادتهم منهم »(3).

والكاتب الدرامي يتخذ من المواقف الأدبية والفنية والنماذج البشرية طرقا فنية يعبر بها عن آراءه وعن مجتمعه تعبيرا فنيا ، فتتداخل النصوص فيما بينها وتتداخل عبر حقول تناسخية تشكل مدلولات وأنساق فنية متفاوتة ومختلفة أنتجتها وطأة التأثير والتأثير ، ومن هذا المنطلق تعامل المبدع مع النص الدرامي وفق منظور وخلفية ثقافية مكنته من إغناء تجربته وفطرته الفكرية والفنية ، وعلى هذا الأساس تداخلت النصوص المسرحية والأدبية فيما بينها مع هذا الموروث الثقافي العالمي والعربي الذي وظف بطرق وتقنيات متفاوتة بين المبدعين.

والحقول التناسخية هي « مجموعة البنى النصية التي تنتمي إلى منطوق فكري أو فني »(4) ، تتداخل وتتعلق مع النصوص الدرامية والأدبية عبر أشكال محددة ولا يمكن الفصل بينها أثناء تلقيها باعتبارها الأساس المساعد على إدراكها واستلها مضمانيها ومقاصدها الفنية والمعرفية وبالتالي فرزها في إطار منهجي يسهل ضبط الظواهر التناسخية للوقوف على المكونات البنائية والدلالية والجمالية ، والحقول التناسخية في النص الدرامي متنوعة ومتفاوتة الأدوار والدلالات ، فكل حقل من هذه الحقول يتضمنها المتن الدرامي :

1 - « الحقل الديني والعقائدي

2 - الحقل الشعبي (التراث)

(1) ينظر كوارى مبروك ، وظيفة التناسخ في الرواية الجزائرية 1972-1982 ، رسالة ماجستير ، إشراف :

عبد الملك مرتاض ، كلية الآداب و اللغات و الفنون ، جامعة وهران ، 1999 ، ص37.

(2) م ن ، ص48.

(3) محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار العودة و دار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، 1981 ، ص288.

(4) كوارى مبروك ، وظيفة التناسخ في الرواية الجزائرية 1972 - 1982 ، م س ، ص50.

3 - الحقل التاريخي (أحداث ، شخصيات ، مواقف)

4 - الحقل الإيديولوجي.

5 - الحقل الأدبي» (1).

آليات التناس وأشكاله في مسرح أحمد رضا حوحو* (2)

تنبثق تجربة الكتابة الدرامية من تقاليد وأعراف قائمة على مرجعية الكاتب من خلال توجهاته وميوله الفكرية وكذا تراثه الشعبي والأدبي والتاريخي فالكاتب أثناء كتابته يستعين بتقنيات إبداعية وخلفيات ثقافية ومعطيات اجتماعية تمثل بالنسبة له المصادر الهامة التي يطعم بها نصه أثناء عملية البناء وخلق شخصياته ورصد الأحداث الدرامية التي من خلالها يتشكل الصراع الذي ينبني بتأثير طبيعة الكاتب الاجتماعية والثقافية والتاريخية.

وتوظيف هذه المصادر تركز على تقنيات وآليات فنية ينطلق منها الكاتب في بناء عمله الدرامي سواء بوعي منه أو بغير وعي» (لأن الكاتب بمعايشته لأحداث وقراءات ومواقف على مدى تجربته الشخصية والأدبية ، يختزن الكثير منها وتتجمع في ذاكرته ، ولا يمكن للكاتب بنتيجة ذلك أن يكتب بمعزل عن ذاكرته التي تكون - أو من المفترض أن تكون - في اللاشعور حين استحضاره لتلك القراءات والمشاهدات» (3) ، وأول هذه التقنيات في الكتابة الدرامية التي نستشفها في نصوص رضا حوحو الدرامية هي التناس ، ومن خلالها نستلهم أهم أشكال التداخل النصي في نصوصه.

وبوصف التناس «ظاهرة حتمية ومؤكدة وقدر للنص يجعل النص مفتوحا على غيره من النصوص» (4) ، فتجربة رضا حوحو في الكتابة الدرامية تتضمن

(1) م ن ، ص 50.

(2)* يعد أحمد رضا حوحو من كبار ورواد الأدب الجزائري ومن أفذاذ القصة القصيرة في الجزائر ، من مواليد 1911م ببلدة سيدي عقبة بيسكرة ، كان ناقدا ساخرا ، يهوى الفن والتمثيل والموسيقى والمسرح ، كان عضوا فعالا في جمعية العلماء المسلمين ، أنشأ جمعية المزهر القسنطيني للموسيقى والمسرح ، حيث ترجم واقتبس العديد من المسرحيات منها (عنبسة - الأستاذ - أدباء المظهر) و هناك مسرحيات مقتبسة عن موليير وفكتور هيغو و مارسيل بانول و هي لا تزال مخطوطة منها (النائب المحترم - سي عاشور و التمدن - البخيل سي شعبان) بالإضافة إلى مسرحيات مستوحاة من التراث العربي القديم منها (صنيعة البرامكة - أبو الحسن التيمي) و هي من المسرحيات الضائعة ، كما قام بمسرحة رواية الروائي الفرنسي كزافييه دي مونتين «بائعة الخبز» و أصبحت مسرحية «بائعة الورد».

(3) همندار جزيري ، بين التصنع والإبداع ، (مقال نقدي تطبيقي) ، مجلة أوراق كردية ، سوريا ، العدد 7 ، 2003/02/01 ينظر الموقع : www.amude.com/ewraq_Ewraq_kurdiye/7/index.html

(4) همندار جزيري ، م س .

نصوصاً قد وظفها سواء بوعي منه أم بغير ذلك ، ويتجلى هذا التداخل والتعلق في كتاباته مع التراث الشعبي الذي يشمل الأمثال والحكم ، والتناسل التاريخي الذي يشمل الأحداث والشخصيات ، التناسل الأدبي ويشمل توظيف الشعارات والمواقف الأدبية ، وكذلك حضور أصوات أدباء ومفكرين في بعض المواضيع وبالتالي تظهر في الحقل اللغوي .

1. التناسل مع المثل الشعبي :

إن التراث باعتباره « ذلك المخزون الثقافي المتنوع والمتوارث من قبل الآباء والأجداد ، والمشمول على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية بما فيها عادات وتقاليد (...) ، وهو روح الماضي وروح الحاضر وروح المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا به ويموت به وتموت شخصيته وهويته إذا ابتعد عنه أو فقده» (1) فإنه يعد مادة أولية يصنع منها الكاتب عجيته الإبداعية بعدها تتشكل على هيئة تحدد انتماء الكاتب الاجتماعي والثقافي ، وتميزه عن غيره من الكتاب .

تناصت نصوص رضا حوحو مع التراث الشعبي الذي نجده ماثلاً في ثناياها بكثافة من ناحية الأمثال الشعبية .

وحضوره في المتن الدرامي يفرضه منطق الحوار الذي تبرره مواقف الشخصيات ، وقد يعتمد عليه للكشف عن أهداف الكاتب ومقاصده لأن الكاتب أثناء « توغله في قلب التراث سينطق ما في أعماقه من معاني وجماليات شكلية تخدم أغراضه الفنية» (2) ، وانتقاء رضا حوحو وتوظيفه للتراث الشعبي يعكس بالضرورة موقفه وموقف عصره من التراث لأنه نموذج جاهز يسهل عملية التواصل بين أقطاب الفعل الدرامي بين « الكاتب - النص - المتلقي» .

إن التراث حقل خصب لإثارة المشاعر والأحاسيس وتحريكها ، وإبراز المواقف وإصدار الأحكام ، وهو عنصر أساسي يتخلل نسيج النص الدرامي « ويسهم في بلورة البناء الفني للحدث» (3) ، يأتي في النصوص الدرامية في شكل بنية مستقلة تضيف على النص سمات جمالية عن طريق الإيحاء والتفسير الذي

(1) سيد علي إسماعيل - أثر التراث العربي في المسرح المعاصر - دار قباء للطباعة والنشر - القاهرة - د ط - دت - ص 40.

(2) وظفاء حمادة ، في تأصيل المسرح العربي ، مجلة الطريق ، العدد 4 ، 1993 ، ص 163.

(3) كوارى مبروك ، وظيفة التناسل في الرواية الجزائرية 1972 - 1982 ، م س ، ص 82.

يشير المتلقي ، وجسد رضا حوحو بدوره حقل المثل الشعبي العربي ووظيفه كأداة بناء تمكنه من إنشاء فضائه الدرامي.

ويتجلى الحقل التناسلي في نص رضا حوحو الدرامي «الأستاذ»^{1*} حينما يقدم لنا الكاتب شخصية «عبد الحق» البطل الرئيسي الذي يحب لقب الأستاذ ويعشقه بالرغم من أميته وجهله ، وبالمقابل يقدم لنا الشخصية المضادة والمحتالة «زكي» الذي يستغل جهل وأميه «عبد الحق» المريض بحب الأستاذية و التلقب بها ويحاول أن يرفع من شأنه عن طريق هذا المثل الشعبي العربي الفصيح قائلا :

- عبد الحق : «إنكم تجهلون اسمي على ما أظن ، فإن اسمي «عبد الحق» وليس اسمي «الأستاذ».

- زكي : إن اسمكم مشهور عند عامة الناس وخاصتهم «كأنه علم في رأسه نار» (2)

وأصل هذا المثل : «كان أشهر من نار على علم (لا يخفى على الناس القمر)» (3) ، وهو مثل يطلقه العرب على الشخص الذي يعرفه العامة والخاصة من الناس ، حيث إن شخصيته ساطعة مثل القمر في ليلة ظلماء أو نار ملتهبة فوق جبل ، لكن الكاتب غير صيغة المثل الأصلية للدلالة على التهمك والسخرية وتظهر هذه الدلالة حينما صدق «عبد الحق» كلام زكي الذي تبدو عليه علامات الجهل باللغة والموروث العربي ويظن أن النار تشتعل فوق رأسه قائلا :

- عبد الحق : (يلمس رأسه) يا لطيف !.. في رأسي نار !..» (4).

يتداخل (يتعالتق) هذا المناس مع المسرحية بنويها عبر علامات الترقيم المزدوجتين «..» هذا ما يوحي بوعي الكاتب في إدراج هذا المثل وبالتالي يندرج هذا النوع من التناسل بالتناسل الواعي أو الشعوري ، أما دلاليا فيحيل المتلقي على حرفية الكاتب في العرف العربي الشعبي ، فالدلالة هنا تتعارض مع ملفوظ «زكي» ، الذي يحاول خداع «عبد الحق» بهذه الحيلة طامعا أن يمد يد ابنته «زينب» مع أنها كانت خطيبة لقريب لها اسمه «ناصر» ، هذا القريب الذي اعتبره

*1 مسرحية الأستاذ الفنان أو الواهم موجودة ضمن مجموعته القصصية «غادة أم القرى و قصص أخرى» ، و هي مسرحية من فصل واحد مستوحاة من المشهد الثاني عشر من الفصل الثالث لمسرحية Le bourgeois gentilhomme للكاتب الفرنسي الكوميدي والكلاسيكي موليير Molière .

(2) أحمد رضا حوحو ، مسرحية الأستاذ ، غادة أم القرى و قصص أخرى ، تقديم : واسني الأعرج ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2000 ، ص251.

(3) جوزاف نعوم هجر ، المنجد في الأمثال و الحكم و الفوائد اللغوية (عربي ، فرنسي) ، دار الشروق ، بيروت ، توزيع المكتبة الشرقية ، لبنان ، دط ، ص214.

(4) رضا حوحو ، م س ، ص252 .

عبد الحق من رجال الأعمال وليس من الأدباء لأن بنت «الأديب لا تتزوج إلا بأديب! هذا هو قانون الأدب!»⁽¹⁾، كما صرح «عبد الحق» في النص.

وعنصر المعارضة واضح بين دلالة المناص في النسق الدرامي ودلالته في الحقل الشعبي، لكن زكي يزيد في إبراز خبثه بعدما تأكد من غباوة وسذاجة عبد الحق وهو يقول:

- **زكي**: وإنما لفظة الأستاذ، تعبير الأدباء ولقبهم المبجل، يلقبون من شاءوا من الأفاضل المثقفين، ولا ريب عندنا في أنكم من كبارهم...⁽²⁾.

ويظهر من خلال المقطع الحواري السابق مدى التلاعب والسخرية بالنص الشعبي من خلال ملفوظ زكي، إذ أفرغه من محتواه الدلالي عن طريق التحايل في استعماله من جانب وإهمال مضمونه من جانب آخر، وهذا ما يثير المتلقي ويجذبه إلى حوار مع النص الدرامي.

وموقف الكاتب في هذا الموضوع مبني على تنديده بأولئك الذين يدعون الأدب والألقاب المحترمة والراقية وهم جهلة المجتمع ريثما يسقطون في نهاية الأمر عرضة للسخرية والضحك في أيدي الأذكى والطامعين، هذا الموقف الذي أورده الكاتب في شخصية «زكي» وزملائه.

لكن بالمنظور الآخر يظهر موقف الكاتب الذي يحمل وجهتين متضادتين اتجاه موقف كل من الشخصيتين «عبد الحق» و«زكي» وهذا الرفض تناوله الكاتب بروح من السخرية والتهكم على هذا المزاج الرديء من الناس.

الوجهة الأولى: الرفض لتحايل الشخصية المضادة (موقف زكي) التي أفرغت من مضمون المثل الشعبي في الواقع والحامل لمعنى إيجابي، ثم غيرت بنيته الشكلية في مضمون النص الدرامي والحامل لمعنى سلبي ويمثل ادعاء الأدب لتحقيق أغراض شخصية.

الوجهة الثانية: الرفض لسفاهة الشخصية (موقف عبد الحق) على الرغم من كونها الشخصية البطلة في النص الدرامي إلا أنها تجهل العرف الشعبي لضعف المستوى المعرفي عندها والرغبة الجامحة التي تريد تحقيقها وتمثل الولوع بالألقاب الأدبية التي لا تناسبها.

والتفاعل الحاصل من جراء توظيف المثل يستشف من خلال تعارض

(1) رضا حوجو، م ن، ص 259.

(2) رضا حوجو، م س، ص 252.

الموقفين : موقف الكاتب/ موقف الشخصيتين(عبد الحق وزكي).

. أثر البنية التناسية من الناحية الدلالية :

- موقف الكاتب تباين بين مبدئه وطبيعة الشخصيتين في الواقع
- موقف البطل عبد الحق تباين بين طبيعته ومعنى المثل الشعبي الفصيح
- الحالة النفسية لزكي تباين بين حالته النفسية ومنطوق النص الشعبي
- الواقع الاجتماعي تباين بين النص الدرامي والواقع الاجتماعي
- بؤرة الصراع تباين بين الواقع المنشود والواقع الاجتماعي.
- من خلال تباين المواقف بين الشخصيات ، وبين الواقع الدرامي والواقع الاجتماعي يضع الكاتب المتلقي في عبثية المعنى المتولد من جراء الصيغة الخاطئة للمثل الشعبي فينساقي(المتلقي) نحو السخرية من الشخصيتين ، وهذه الخاصية تجعل المتلقي يتمرد وينساق وراء الأحداث.
- الواقع أن خاصية التناس مع التراث الشعبي متوفرة في نصوص رضا حوحو بشكل كبير خاصة المسرحيات المكتوبة باللغة العامية رغبة منه في محاكاة لغة العوام فاضطر إلى تطعيمها بالأمثال والكنائيات الشعبية.

2. التناس الأدبي :

المسرحية من حيث أنها جنس تعبيرى واسع الأفق غير منتهى في تكونه لأنه مفتوح على بقية الأجناس الأدبية والفنية الأخرى ، ويستمد منها بعض عناصرها ، حتى وإن حملنا عليه خصوصية التعامل معه بوصفه فن شامل وجامع أو ممارسة اجتماعية وجماعية تقوم على الحضور الحي للممثل والمتفرج ، فهو بطبيعته يتفتح على كل الأجناس الأدبية على مستوى النص والفنون الأخرى على مستوى العرض ، « ونظرا للتداخل الذي تشهده الساحة الثقافية المعاصرة بين الأجناس الأدبية وبين الفنون بشكل عام أصبح من الصعب رصد الخصوصية المسرحية»⁽¹⁾ وعزلها عن تلك الأجناس.

يبدو التناس الأدبي مبثوثا في ثنايا النص الدرامي بحيث يتربع على النسيج الدرامي لنصوص رضا حوحو ، واستمد مرجعيته من حضور أصوات جيل من

(1) حنان قصاب و ماري الياس، المعجم المسرحي، ناشرون، لبنان، ط1، 1997، ص186.
*2 وهي مسرحية اقتبسها رضا حوحو عن مسرحية « توباز Topaz » للكاتب المسرحي الفرنسي مارسيل بانيول Marcel Pagnol

الأدباء وشعراء العرب ، هذه الأصوات التي أثبتت كفاءة الكاتب في المجال الأدبي والفني ويبدو ذلك من الناحية الفنية بتوظيفه تقنيات جديدة مثل توظيف الحكم والشعارات الأدبية والاعتماد على أسلوب الرمز والإيحاء.

ففي مسرحية «النائب المحترم»^{1*} يشرح الكاتب بوصف المنظر المكاني الذي تبدأ فيه أحداث المسرحية ويمثل القسم الذي يدرس فيه «زعرور» ، فينبه المتلقي بوجود لوح مكتوب عليه هذا الشعار الأدبي المعروف «لا ينجح في الحياة إلا الرجل الشريف»⁽²⁾ هذه العبارة التي تمثل الشعار الأدبي الذي يتناص مع النص الدرامي بنويها عبر علامات الترقيم ، وأما على المستوى الدلالي فإنه يبدي صفة الشرف على أنه خلق وفضيلة تؤدي إلى الفوز والفلاح.

استهل الناص مسرحيته بهذا الشعار الأخلاقي الذي تجلى في طابع أدبي وأسلوب وعظي ديني يكشف عن الانتماء الفكري والديني للكاتب المنبثق من التيار الفكري الإصلاح والتربوي الذي تتزعمه جمعية علماء المسلمين والكاتب عضو بارز في هذه الجمعية.

شكلت العبارة إلى حد كبير داخل النسق الدرامي للنص ، المنطلق الذي توقف عليه البناء الفني لفكرة المسرحية من بدايتها إلى نهايتها ، فشخصية «زعرور» التي كانت تؤمن بهذا المبدأ الخلفي السامي بحيث تسير معه عبر الخط الدرامي بالرغم من فقره وبطالته إلا أن الواقع المزري قد دفع به إلى الإعراض عن مبدئه الخلفي والانغماس في الرذيلة والاحتيال ، وقد عبر عن موقفه هذا في حوار الأخير قبل أن ينتهي به المطاف إلى الانتحار :

زعرور: أجل ، لما كنت شريفا نزيها ، كنت أتصور جوعا ، لما انغمست في الرذيلة والاحتيال أصبحت غارقا في الأموال وزيادة على ذلك منحوني وسام المعارف والعلوم - يا لسخرية الزمن إني فخور بوسامي ، لقد خدعت المجتمع وسخرت منه...».

وفي موضع آخر من المسرحية يظهر التضاد مع الشعار الخلفي الايجابي الأول ونتيجته ، ذلك في توظيف الحكمة والشعارات الأدبية على الوجه السلبي ، وهذا التضاد تكشفه مواقف الشخصيات في المسرحية وطريقة تفكيرها ، ففي الوقت الذي يؤمن فيه المعلم «زعرور» بمبدأ الاتصاف بالخلق الشريف أساسا

(1) منور أحمد ، مسرح رضا حوحو(دراسة أدبية تحليلية مقارنة) ، شهادة ماجستير في الأدب العربي، إشراف:عبد الله ركيبي ، جامعة الجزائر، الجزء الثاني ، 1409هـ/1989م ، ص334.

(2) منور أحمد - مسرحية النائب المحترم - م س - ص385 .

للنجاح في الحياة تظهر بالمقابل الشخصية المناقضة لهذا المبدأ - بالرغم من توافق الشخصيتين في مهنة التعليم - وهي شخصية المعلم «غنام» الذي يؤمن بالظلم والعنف أساساً لكسب الهيبة عند التلاميذ.

ففي الوقت الذي يتناقش فيه «زعرور وغنام» حول كيفية التعامل مع الشغب لدى التلاميذ، يتبادر «غنام» برأيه السلبي:

زعرور: وإذا كان غيره أصبح التلميذ بريئاً وعوقب ظلماً.

غنام: إذا كان بريئاً وعوقب فخطأ شرعي يزيدني هيبة عند التلاميذ، لأن الإنسان الذي يريد السيطرة على التلاميذ أو غيرهم على السواء، لا بد له من الظلم من الفينة والفينة لأن الظلم هو الذي يثبت أقدام الحكم.

لكن سرعان ما تنكشف نتيجة ما يفكر به المعلم «غنام» عندما سمع أحد التلاميذ في الخارج يطلق العنان ضده بهذه الكناية الشعبية: «يا غنام يا وكال العظام، يا غنام يا وكال العظام»⁽¹⁾، فينقض على أحد التلاميذ دون أن يعرف أنه هو، ويحاول إرساله إلى المدير لتأديبه.

ويتدخل المعلم «عرفي» عنصراً مناقضاً ومعارضاً لموقف «غنام» ويكشف زيف تفكيره وعجزه في حل المشكلات الذي يؤدي به إلى نتيجة حتمية هي: «من يزرع الظلم يحصد الشر»⁽²⁾، إن هذا التضاد في الموقفين بين الشخصيتين (المعلم زعرور وغنام) يكشف عن تفكير الناص وأهدافه التربوية عبر توظيف الحكم والشعارات الأدبية على أنها تقنية فنية لإثارة اهتمام المتلقي وجذبه.

وهنا يكمن بعدها الجمالي حين يقارن المتلقي بين السلوك السيئ ونتيجته السلبية، وبين المبدأ الأخلاقي الإيجابي ونتيجته الإيجابية. فعبر هذه الصياغة يمتلك متعة بما يضيفه على النص من تأويلات، من خلال تداعي المعاني والعبر في ذهنه بالتضاد والتعارض بين المواقف.

3. معمارية النص وخاصة تداخل الأنواع:

يندرج هذا النمط من التناص ضمن المصطلح الذي بلوره «جيرار جينيت» بعد أن عدل فكرة معمار النص *texte Archi* سنة 1982 واستبدله «بمصطلح جديد أسماه (التعالّي النصّي) *Transtextualite* الذي يعني عنده: كل ما يجعل نصاً ما

(1) مسرحية النائب المحترم، م س، ص 344.

(2) م ن، ص 345.

يتداخل مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني»⁽¹⁾ ويفسر جينيت معمارية النص *texte Archi* على أنه النمط الأكثر تجريدا وتضمنا ، وهو يشكل علاقة تداخل الأنواع الأدبية والفنية من رواية وقصة ومسرحية وشعر.

من هذا المنطلق تظهر هذه العلاقة في نصوص رضا حوحو وتداخلها مع خصائص الجنس الروائي والقصصي وذلك في عنصر السرد الذي يدخل في بنية النسق الدرامي لتبرير الأحداث وإبراز أبعاد الشخصيات وطبيعتها.

تداخل عنصر السرد في الجنس القصصي والروائي وتعالق مع النص الدرامي بدل الحوار بوصفه عنصرا هاما وبارزا من بين عناصر البناء الدرامية المعروفة في الجنس المسرحي.

والسرد كما عبر عنه « جرو ترد شتاين هو ما يمكن لشخص أن يقوله بأي طريقة عن أي شيء يمكن حدوثه/حدث بالفعل / سوف يحدث أي شيء»⁽²⁾ فهو عنصر يشكل وظيفة بارزة في شتى الأجناس الأدبية .

وقد عرف عنصر السرد في المسرح اليوناني وتبناه المسرح الكلاسيكي الفرنسي في العصر الحديث ، أهمية كبيرة وفي عملية الخلق الدرامي فهو دعم فني لما تتطلبه القواعد المسرحية الصارمة على صعيد الكتابة من تكثيف لزمان الحدث والالتزام بالوحدات الثلاثة ، ولهذه الأسباب قبل السرد وتم التعامل مع وجوده في العمل المسرحي على أنه عرف من الأعراف المسرحية.

تداخل عنصر السرد في نصوص رضا حوحو لتبرير الأحداث ومواقف الشخصيات ووصف أحوالها وتحولاتها. ويتبدى هذا التداخل في مسرحية «الأستاذ» حيث حاول الكاتب اختصار الأحداث فاتخذ من عنصر السرد وسيلة لتصوير أحداث ماضية ، إذ أنه قبل أن يدخل في عرض الإطار الدرامي لموضوع المسرحية أستهلها بمقدمة يسرد فيها حالة الشخصية البطلة «عبد الحق» قبل أن يكون غنيا ، وجاء على لسان الكاتب هذا السرد القصصي :

كان عبد الحق عاملا بسيطا من عامة الناس ، أميا ، لم يتلق من العلوم شيئا ، لا قليلا ولا كثيرا...لا يعرفه أحد سوى زملائه في العمل وبعض جيرانه في الحي المتواضع الذي يسكنه لضالة مركزه الاجتماعي ولانصرافه عن الناس بالكد في سبيل العيش. وذات يوم توفي عمه الثري - وكان وارثه الوحيد - فاستولى على جميع أمواله و ثروته الطائلة ، وأصبح من كبار الأثرياء يشار إليه بالبنان ، وما كاد يشيع الخبر حتى

(1) محمد عزام ، النص الغائب ، ص 40 .

(2) فاضل الأسود ، السرد السينمائي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط 1 ، 1996 ، ص 79.

تجمهر على باب داره من مهنيين ، ومتسولين وفضولين(1).

تظهر صورة التناص بين الجنس الروائي و الجنس الدرامي بنويها عن طريق إدراج المقدمة السردية عبر علامات الترقيم المزدوجتين ، أما دلاليا فجاء لتلبية ضرورة درامية تكمن في تعريف القارئ والمتلقي بطبيعة الشخصية «عبد الحق» وحالتها التي كان عليها ، فاختزل جملة من الأحداث التي سايرت الخلفية الاجتماعية « لعبد الحق» وعلاقاته مع محيطه الاجتماعي عندما كان فقيرا وعاملا بسيطا ، لكن سرعان ما سطع نجمه في سماء الطامعين والمحتالين بعدما ورث مال عمه المتوفى وأصبح غنيا.

في المقابل فإن تدخل عنصر السرد في النسق الدرامي أسهم في التمسك بوحديتي الزمان والمكان الدراميين والحفاظ عليها في المسرحية ، والملاحظ أن أحداث المسرحية من بدايتها تدور في منزل «عبد الحق».

أما على مستوى الزمن الدرامي فقد أسهم بتقديم تعريف لما حصل قبل الدخول في فصل المسرحية قصد الابتعاد عن التكتيف الزمني في النسق الدرامي الذي يميز كتابة المسرحية ذات الفصل الواحد ، نفس التداخل الذي نجده في مسرحيته التاريخية «صنيعة البرامكة» عندما اخترق عنصر السرد بنية الحوار ، لكن في هذه المرة قد أدخل مسار الحدث الدرامي في النص مما شكل ضعفا كبيرا في البنية الفنية للحوار الدرامي ، لأن عنصر السرد قد ورد في نهاية المسرحية وعلى لسان «المنذر» الذي يحاول تبرئة نفسه مما خالف به أوامر المأمون وراح يسرد عليه قصته مع البرامكة في حوار سردي طويل(2).

الواقع أن توظيف عنصر السرد في النص الدرامي قد حقق أغراضا فنية أعطت له واقعيته وقربه من المتلقي ، ومن جملة القضايا الفنية التي حققها عنصر السرد النقاط التالية :

- عرض وتفسير الأحداث الماضية منها وربطها باللاحقة
- تعريف الشخصيات والكشف عن أبعادها
- الحفاظ على وحدة الزمان والمكان وتجنب الاختراق
- تجنب التكتيف في الأحداث والمواقف وتبريرها فنيا

(1) مسرحية الأستاذ ، م س ، ص 249.

(2) الخرفي صالح - أحمد رضا حوحو(شهيد الثورة الجزائرية في الحجاز 1945/1934 - صنيعة البرامكة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - د . ط - 1992.ص 236.

- مشابهة الحقيقة عن طريق رواية الأحداث بدلا من تقديمها
- السرد بكل مبرراته يخدم قاعدة وحدة الفعل الدرامي لأنه يسمح بالتركيز
على فعل واحد كما هو في مسرحية «الأستاذ».

خلاصة

و خلاصة القول في هذا البحث المختصر أنه في ظل التيارات النقدية الحديثة التي تسعى جاهدة إلى تحليل وتفسير الأثر الأدبي والفني وجدت نصوص الكاتب رضا حوحو - رغم أن خاصية الاقتباس تشكل في نصوصه ، المصدر الرئيسي الذي تقوم عليه عملية الكتابة بحيث أعطى لنفسه حرية كاملة في عمليات الاقتباس التي قام بها - مكانتها المرموقة أمام هذا التحليل والتفسير التي تنبني على فكرة العلاقة الترابطية والتداخلية مع مختلف المستويات التاريخية والاجتماعية ومع مختلف الأنواع الأدبية المعروفة ، وذلك بطرح نظرية التناص على مستوى نصوص الكاتب الدرامية ، حيث نجد في بداية الأمر تعامل الكاتب مع التراث الشعبي بتقنيات متباينة ووجد من الموروث الشعبي العربي والإسلامي مادة أساسية في بناء المعمار الدرامي وبسط في ثناياه الثقافة الشعبية والإنسانية ، ثم جاءت خاصية التناص مع التراث الأدبي الذي يشكل المنبع الأساسي في توجهات الكاتب الفكرية ، بالإضافة إلى تداخل بعض نصوصه الدرامية مع جنس الرواية من خلال تقنية السرد في تفسير المواقف والأحداث والمفاهيم الجمالية.

المصادر والمراجع :

I . قائمة المصادر :

- 1 - جوزاف نعوم هجر - المنجد في الأمثال والحكم والفوائد اللغوية (عربي ، فرنسي) - دار الشروق - بيروت - توزيع المكتبة الشرقية - لبنان - د.ط.
- 2 - حوحو أحمد رضا - مسرحية الأستاذ - غادة أم القرى وقصص أخرى - تقديم : واسني الأعرج - موفم للنشر والتوزيع - الجزائر - ط2 - 2000.
- 3 - حنان قصاب وماري الياس - المعجم المسرحي ، ناشرون ، لبنان ، ط1 ، 1997 .
- 4 - الخرفي صالح - أحمد رضا حوحو (شهادة الثورة الجزائرية في الحجاز 1945/1934 - صنيعة البرامكة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - د.ط - 1992.
- 5 - منور أحمد - مسرح حوحو (دراسة أدبية تحليلية مقارنة) - شهادة ماجستير في الأدب العربي ، إشراف : عبد الله ركيبي - جامعة الجزائر - الجزء الثاني - 1409هـ / 1989م .

II . قائمة المراجع :

- 1 - الأسود فاضل - السرد السينمائي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ط1 - 1996.
- 2 - سيد علي إسماعيل - أثر التراث العربي في المسرح المعاصر - دار قباء للطباعة والنشر القاهرة د ط - دت.
- 3 - عزام محمد - النص الغائب - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2001.
- 4 - عزام محمد ، الكوميديا الساخرة في مسرح عبد الفتاح قلعه جي (مدينة من قش) نموذجاً ، ينظر الموقع :

- Www.awu - dam.org/book/indx - study.htm
- 5 - كوارى مبروك - وظيفة التناص في الرواية الجزائرية 1972 - 1982 - رسالة ماجستير - إشراف : عبد الملك مرتاض - كلية الآداب واللغات والفنون - جامعة وهران - 1999.
- 6 - وظفء حمادة - في تأصيل المسرح العربي - مجلة الطريق - العدد 4 - 1993.
- 7 - همدار جزيري - بين التصنع والإبداع - (مقال نقدي تطبيقي) - مجلة أوراق كردية - سوريا - العدد 7 2003/02/01 ينظر الموقع : Ewraq kurdiye/7/index.html - Wwww.amude.com/ewraq
- 8 - عبد الوهاب ترو ، تفسير وتطبيق مفهوم التناص في الخطاب النقدي المعاصر ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد 61/60 فيفري 1989.
- 9 - عبد المالك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، مساءلات حول نظرية الكتابة ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، دط ، 2003
- 10 - عبد الستار جبر الأسدي ، ماهية التناص (قراءة في إشكاليته النقدية) ، أنظر الموقع الإلكتروني : Wwww.fikrwanakd.aljabriabed.net/indexl.htm
- 11 - عبد الله الغدامي ، الخطيئة والتكفير ، النادي الأدبي ، جدة ، (د.ط) ، 1985
- 12 - عز الدين إسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، (د ت)
- 13 - عز الدين المناصرة - التناص والتلاص - أنظر الموقع :
- www.jehat.com/jehaat/a/janatAltaaweel/makalatNakadeya/a - aldeen - Imounasra.htm#
- 14 - ب.م.دويبازي ، نظرية التناص ، تعريب : المختار حسني ، ينظر الموقع : Wwww.fikrwanakd.aljabriabed.net/21_30 table .htm
- 15 - وائل بركات ، مفهومات في بنية النص ، دار معد ، دمشق ، ط 1 ، 1996.
- 16 - جوليا كريستيفا ، علم النص ، تر : فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط 1 ، 1991
- 17 - رولان بارت ، درس في السميولوجيا ، ترجمة : عبد السلام عبد العالي ، دار توبقال ، 1982
- 18 - رولان بارت ، لذة النص ، ترجمة : فؤاد صفا والحسين سبحان ، دار توبقال ، المغرب ، 1988 ، (د ط)
- 19 - جيرار جينيت ، مدخل لجامع النص ، ترجمة : عبد الرحمن أيوب ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط 3 ، 1986.
- 20 - محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط 3 ، 1981

III . قائمة المراجع الأجنبية :

- _ PATRICE Pavis _ Dictionnaire du Théâtre (Termes et concepts de l'analyse théâtrale) _ Edition sociale _ Paris _ 1980.
- _ CHRISTIAN Achour, BEKKAT Amina, Clefs pour la lecture des récits, Edition de Tell, Algerie, 2002.
- _ Julia Kristiva, Semiotike, Recherche pour une sémanalyse, Seuil, Point n°96, Paris,
- _ JEAN Giraudoux, Electre _ Bordas

سلطة المعرفة في تشكيل الصورة الشعرية عند أبي تمام

كمال طاهير*

مقدمة :

يُنظر إلى شعر أبي تمام على أنه نسيج فني ، انتقل بالشعر العربي من طور إلى طور ، بيد أن هذا الانتقال أثار جدلا نقديا واسعا في الفعل النقدي العربي قديما وحديثا ، فهناك من اعتبره تطورا في صناعة الشعر ، يحسب لصاحبه على أنه نحا بالقصيدة العربية منحى عقليا يتجاوز حالة الركود التي آل إليها الشعر ، وهناك من اتهمه بالمروق على التقاليد الشعرية ؛ لأنه هز المسلمات السائدة حول الشعر في عصره ، فأحدث بذلك خلخلة فيه ، حين بين قصوره في استيعاب إنتاجه الشعري(1).

جعل أبو تمام الشعر - بمنهجه الجديد في مجال الإبداع - أمام واحد من الخيارين إما أن يعدل عن مفاهيمه وأحكامه ، ويعلن بذلك مسايرة التطور الحاصل في عملية الإبداع ، لأن مفاهيم الشعر مستوحاة من التقاليد التي يصنعها الفن الشعري ، وإما أن ينبذ هذا الوافد الشعري الجديد (شعر أبي تمام) ، باعتباره غير شعري ، لأنه إلى الفكر أميل .

سلك أبو تمام - بمذهبه في صناعة الشعر- مسلكا لم تعهده القصيدة العربية منذ بزوغها ، حتى قال عنه أبو الأعرابي : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل »(2).

استوقفت هذه القضية الأمدي في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحثري ، فيرى في شعر الأول على أنه نقيض لشعر البحثري ، « لأنه شديد التكلف ، صاحب صنعة ، ومستكره الألفاظ والمعاني ، وشعره لا يشبه الأوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة »(3).

يستخلص من موقف الأمدي أن أبا تمام قد أمعن في خط من التعبير مفارق للمعهود والمعترف به في أيامه في طرائق الصناعة الشعرية ، وشروطها ، أو ما يعرف بعمود الشعر^(*) ، والذي تتحدد معالمه الأولى من خلال الأسس الجمالية السائدة التي ذكرها الأمدي ، وهو يؤكد ما سمعه « من شيوخ العلم بالشعر ، والذين زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود ولا

* كلية الآداب واللغات ، جامعة خنشلة .

تستحكم إلا بأربعة أشياء وهي : الآلة ، وإصابة الغرض المقصود ، وصحة التأليف ، والانتهاؤ إلى نهاية الصنعة في غير نقص منها ولا زيادة عليها» (4).

تُحدد هذه المعايير جودة العمل الشعري ، وخصائمه ، من خلال قرب مأخذ ، وهو ما يجعله يلقي القبول عند المتلقي ؛ ليخلق أثرا جماليا في قارئه ، ولعله المقياس الذي اعتمده الأملدي في الحكم على كل من أبي تمام والبحتري ، فهو القائل : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتبي وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لاثقة بما استعيرت له ، وغير منافرة لمعناه ، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحتري» (5).

يفصل هذا القول في أساليب الصناعة التي حددها أهل العلم بالشعر قديما ، والتي لا يمتثل أبو تمام إليها في الكثير من شعره ، فمنهج في الصناعة الشعرية تظهر فيه جملة من الخصائص تخالف أساليب الصناعة المعهودة ، وهو ما وقف عنده نجيب البهيتي ، حين لخص مميزات شعر أبي تمام ، وهي :

- 1- طلب المعنى البعيد ، واللطف الجديد المبتدع ، على جهد وكد متواصلين.
- 2- محاولة إخفاء المعنى المنقول عن الغير بكثير من التغميض.
- 3- كثرة الاستعارات والإفراط في استعمالها مع خفاء العلاقة وبعدها أحيانا ، حتى ليبدو المنقول ، معنى جديدا.

4- اعتماد التجميل الصناعي للتخفيف من جفاء قد يعيب الشعر بسبب - إضافة إلى ما سبق - تكلف دمج الفكرة في الشعر ، فتحري أبو تمام أنواع البديع والمحسنات اللفظية من كل وجه وبكل سبيل ، وكان من نتائج اقتران طلب المعنى بطلب اللفظ ، على الوجه الذي أسلفته ، جور يلتحق بأحدهما ، فتكون الثمرة الغموض أو الغريب (6).

أما ونحن نتلبر هذا الميزات التي اصطبغ بها شعر أبي تمام ، فإننا نقف على اشتغال ملكة العقل في نهج الخطاب الشعري عنده ، لمحاولة تقريبه من الواقع والمنطق ، وهنا يفرض العنصر المعرفي حضوره في الخبرة الجمالية بالعمل الفني ، وبخاصة إذا علمنا تمرس الشاعر بأساليب الصناعة السابقة له ، يضاف إلى ذلك حسه النقدي المجسد في آثاره (*) ، والذي يظهر فيه تأثير العقل واضح ، فالعقل - كما لاحظ كانط - تكون له فاعلية في كل نواحي اتصالاته بالعالم الخارجي ، ولا يسجل أبدا بطريقة سلبية المؤثرات التي تصطدم بالأطراف العصبية ، فالعقل - بخلاف ذلك - يحول المؤثرات إلى انطباعات تدخل في مركبات تمثل صورا كلية Gestalten يتم

تسجيلها في النهاية على أنها ضرب من المعرفة ، ومن الواضح أن مجمل هذه العملية يشبه - إلى حد كبير - الإبداع الجمالي بوجه عام ، ويزداد هذا الشبه في حالة الإبداع اللفظي والتخييلي الذي يثمر الأدب (7).

وبما أن الخطاب الشعري يحوز جانبا مهما من المعرفة ، والمعرفة تبدو مطلب الإنسان الأسمى وبخاصة ، عندما كانت واقعا فكريا مستحدثا يستهوي كل إنسان باحث عن المعرفة ، كما هو الحال في العصر العباسي ومن هنا جاز لنا طرح أكثر من سؤال حول علاقتها بالشعر ، ومدى فاعليتها أثناء تشكل الخطاب الشعري ، وهل يمكن اعتبار المعرفة مطلبا ينشده الخطاب الشعري ؟ وكيف تمارس المعرفة سلطتها في إبداع الصورة الشعرية عند أبي تمام ؟ وهل الخطاب الشعري لأبي تمام ، يمثل في النهاية محصلة للخطاب المعرفي المهيمن آنذاك ؟ في ضوء هذه التساؤلات ، سنحاول الوقوف عند بعض القضايا المتعلقة بعملية الإبداع الشعري عند أبي تمام ، والشروط المهيمنة في مجال إبداع الصورة الشعرية.

أولا : علاقة التجربة الشعرية بالمعرفة :

تقوم العلاقة بين المعرفة والشعر انطلاقا من حاجة الإنسان لاكتشاف العالم ، والتعايش مع المحيط ، لاكتساب تصور حول الكون ، وإن كان نسبيا ، يقول برونفسكي : « كنا جميعا نعتقد أن السيادة تأتي من سيطرة الإنسان على بيئته الطبيعية ، أما الآن فقد أدركنا أن السيادة الحقيقية إنما تعود إلى فهم الإنسان للعالم الحي الذي يعيش فيه ، وإلى قدرته على تشكيل هذا العالم بالشكل الذي يريد » (8).

إن الثقة العلمية إزاء تفسير العالم عبر صيرورة مطمئنة من المقدمات المعرفية التي شاعت في مرحلة ما ، أوهمت الإنسان بتحقيقها من خلال سيطرته على بيئته الطبيعية ، لم تعد كذلك ، لأن الفهم وحده هو الذي يكفل السيادة الحقيقية على العالم ، ربما يتجاوز مفهوم السيادة ، التوهم بضرورة التحكم في قوانين الكون ، والهيمنة على أشياءه وما يتوزع فيه من عناصر ، بل إنه قد ينصرف أكثر إلى تأكيد حاجة الذات الإنسانية إلى إقامة علاقة مع العالم تحقق من خلالها الانسجام والتوازن ؛ ولكي يتحقق الانسجام المأمول بين الذات الشغوفة بالمعرفة وعالمها ، يجب أن لا تكتفي الذات الراغبة في المعرفة بطلبها فحسب ، لأن المعرفة ليست معطى جاهزا يمنحه الكون ، بل قد يساعد على تحقيقه ، إذا أحسن الإنسان التعامل معه ، وحسن التعامل يكون من خلال المشاركة في صناعة المعرفة ، وهنا فقط يحدث التقارب بين الإنسان والكون.

والمعرفة قد لا ترتفع بالضرورة إلى قوانين علمية صارمة ، أو إلى نظريات

فلسفية متماسكة ، فقد تكون مجموعة من التصورات والمفاهيم غير المستقرة ، كما قد تكون جملة من السنن المعلنة والضمنية التي تنظم وجود الإنسان ، والتي يعيها وعيا شعوريا واضحا ، أو يمارسها دون أن يعيها إذا كانت تنتمي إلى الجزء اللاواعي فيه .

يمكن أن يكون الشعر خطابا معرفيا ، في منطلقاته وفي غاياته ، إذا سلمنا بأن الشعر تعبير جمالي عن مأزق الوعي ، فالمعرفة هي التي تمنح الشاعر خزين العلامات التي تدخل في متنه الشعري ، كما أن الخطاب الشعري بعد تشكله يحيل إلى معرفة ما ، فالعلاقة معقدة بين الاثنين إلى حد التماهي أحيانا .

فإذا كان الشاعر يطمح إلى امتلاك العالم ، باعتماده أسلوب التصوير الذي يتجاوز من خلاله علاقات العالم الطبيعي للغة والأشياء ، حين يتصل بالباطن الذي يلح عليه في الغياب ، فإن إلهام الشاعر في عملية الخلق جزء من حضوره في المطلق ، ولكن العقل هو الذي يلح على الشاعر في رؤيته الشعرية ، عند محاولة الإقامة في ذلك المطلق ، وهو ما يذهب به إلى تأويل الفعل الشعري من كونه تعبيراً إلى معرفة .

لا يمكن أن تُدرج التجربة الشعرية إلا في محيطها المعرفي والثقافي والحضاري فالشاعر حين يبذل نصه يشتغل على مؤثرات متعددة تفرز ضميرها بصورة واعية ولا واعية ، وبحسب هذه المؤثرات تتحدد قيمة الخطاب الشعري ، وهذا طبعاً دون إغفال دور الموهبة في الرؤيا ، فيكون بذلك النص الشعري نتاجاً لتفاعل جملة من الأساق المعرفية والثقافية والحضارية داخل سياق واحد .

وبما أن الخطاب الشعري في جوهره يقدم رؤية للحياة ، تكون هذه الرؤيا مشحونة بما تمده لها المعارف المختلفة ، بذلك تنصب المعرفة نفسها كذات تمارس ضغطها على وعي الشاعر ، فيتعامل الشاعر مع المعرفة من خلال ما تمليه عليه ذاتيته فتكون الذات الشاعرة بذلك خاضعة لهيمنة المسارب المعرفية وفي الوقت نفسه تمنحها الرؤيا القدرة على التعامل مع المعرفة على اعتبار أنها لا تعدو أن تكون رافدا ومرجعية لها قيمتها في المشاركة في تأسيس خطاب شعري متكامل ، لا يتخلى عن وظيفته الجمالية والمعرفية في آن واحد .

ثانياً : المعرفة والصورة الشعرية

تمثل الصورة جوهر العمل الشعري ، بل هي مظهره الكاشف لبنيته الفكرية ، تبعاً لذلك اعتبر الشعر ضرباً من التصوير ، وهذا التصور شائع منذ هوراس حتى قيل : « الرسم شعر صامت ، والشعر صورة ناطقة »⁽⁹⁾.

اهتدى النقد العربي القديم إلى العلاقة بين الشعر والصورة ، وعلى ضوءها تحدد مفهوم الشعر ، فأصبحت قيمته وجودته تتحدد من منظور القدرة على خلق الصورة ، فالجاحظ يقول : « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها الأعجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير » (10) .

فالصورة الشعرية من هذا المنطلق ، يمكن اعتبارها أحد المكونات الهامة لعملية النظم ، بها يتحقق للمتن الشعري انسجامه ، من خلال الربط بين أجزائه ؛ لأن الشعر معنى ومبنى ينتظمان في الصورة ، يقول عبد القاهر الجرجاني : « واعلم أن قولنا (الصورة) إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة. فكان بين إنسان من إنسان و فرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذلك ، وكذلك كان الأمر [كذا] المصنوعات فكان بين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا : للمعنى في هذا صورة في غير صورته في ذلك ، وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ : وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير » (11) .

يتضح من خلال هذا النص أن الصورة تعتبر العلامة الفارقة المميزة لجودة العمل الفني ، والفضل في إبداع الصورة إنما يحسب للمخيلة التي تماثل وتقيس ما تعرفه العقول ، وتتحمسه الأبصار ، لأن المعنى لا يكون شعريا باعتبار جوهره أو مادة المعاني ، بل التشكيل المتميز للأصوات والدلالة وبقدرة الخيال على خلق توافق بينهما عن طريق تشكيل الصورة وصوغها .

ترتكز المخيلة في عملها الخلاق على ما تقدمه لها الحواس ، وعلى ما يطرحه الفكر من تصورات ومفاهيم حول الكون يكتسبها الذهن ، وهو يتلمس خطاه في تكوين واقع معرفي يحدد للشخصية الإطار الفكري الذي تتحرك فيه ، وبذلك تدين المخيلة إلى المعرفة في تنظيم الصورة وجعلها مطابقة للمنطق الإنساني ، وبهذا فقط ، يمكن للصورة أن تحدث أثرا جماليا في المتلقي .

وبما أن الصورة الفنية هي كل تعبير شعري ينقل إحساس المبدع إلى المتلقي ، فيثير انفعاله ويحرك مخيلته ويؤثر في فكره ووجدانه ، فإنها لا يمكن أن

تحدث هذا الأثر إلا إذا ارتبطت بالسياق الثقافي والمعرفي ، الذي ينتظم في داخله كل من المبدع والمتلقي ، وعلى ذلك نجد أنفسنا مرة أخرى نتساءل عن الطريقة التي تعامل بها أبو تمام في تشكيل صورته الشعرية وجعلها تتفاعل مع الواقع المعرفي السائد في عصره؟.

يقر أبو تمام بدور العقل في مده بالمعاني المبتكرة ، فيتخذ من عقله معوانه على نسج كل جديد غير معاد ، يقول في مدح أبا ذلف العجلي (12) :

ولو كان يفنى الشعر افنته ماقرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول إذا انجلت سحائب منه أعقبت سحائب

يحتكم الشاعر إلى العقل في إبداع صورته ومعانيه ، وهو يدرك بأن العقل هو الذي يجعل الشعر يوصله إلى الحقيقة التي ينشدها ، لأنه ساع إلى طرح معرفة لا يمكن لها أن تتحقق إلا بالعقل ، فكأن بالشاعر يميل إلى تقديس العقل ، ويرى فيه القادر على المعرفة ولولاه ما كانت معرفة ، وفي ذلك يتقاطع مع الأفكار التي جاء بها الجاحظ ، حين يقول : « فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » (13).

فالمعنى عند أبي تمام ساكن في العقل ، وما أن ينجلي حتى تتداعى المعاني منه ، فتشبه السحاب الذي يعطيه سحاب آخر ، وبما أن السحاب هو مسبب للمطر ، فالعقل كذلك هو السبب في تولد المعنى عنده ، وهي فكرة نجد لها موضعاً أيضاً عند المتكلمين ، فالغزالي حين يفسر عملية الإدراك ، يرى بأنه لا بد من التسليم بوجود جوهر مستقل توجد فيه هذه المعاني ، وتفيض منه عند الحاجة ، فإذا حدث اتصال بين هذا العقل والنفس الإنسانية فاضت منه المعاني وارتسمت فيها ، كما ترسم في مرآة محاذية لها ، وإذا أضرخت النفس عن هذه المعاني لاهتمامها بعالم الجسد يمحي ما تمثل فيها من قبل (14).

وبما أن أبا تمام يأخذ بهذا المنحى في شعره فإن فكرة السببية نجدها مهيمنة على مختلف صورته الشعرية ، والتي تكون بدورها خاضعة لسلطة العقل ، أو لنقل هي الأساس الذي يقوم عليه المنهج العقلي في التفكير السائد في العصر العباسي ؛ من خلال ما جاءت به الفرق الكلامية ، فالمعتزلة تجعل الخبرة والتجربة نوعاً من كمال العقل ، فهم « يعرفون بتأثير الأسباب في مسبباتها على وجه الضرورة والتلازم ، إذ من الواضح أن التوليد يعتمد على القول بالأسباب فخاصته اختلاف التولدات بحسب اختلاف أسبابها » (15).

يتحرك المعنى الشعري عند أبي تمام ضمن هذا المنهج الفكري ، يقول في وصف القلم (16) :

لك القلم الأعلى الذي بشباته	تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
له الخلوات اللاء لولا نجيبها	لما احتفلت للملك تلك المحافل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه	وأري الجني اشتارته أيد عواسل
له ريقة ظل ولكن وقعها	بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهوراكب	وأعجم إن خاطبته وهوراجل
إذا امتط الخمس اللطاف أفرغت	عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت	لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت	أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت	ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف	ضنى وسمينا خطبه وهوناحل

تندرج هذه الأبيات ضمن قصيدته التي قالها في مدح محمد بن عبد الملك الزيات والتي مطلعها

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل وقلبك منها عدة الدهر أهل
تقوم الصورة في هذه الأبيات على شبكة من العلاقات يقيمها الشاعر بين الممدوح والقلم ، وبين الذات والعالم الخارجي ، عالم الأشياء ، فارتباط القلم بالممدوح هو في الحقيقة وصف للممدوح بالعقل ، وثقابة الفكر ، وهنا يتحول القلم إلى رامنز إلى العقل ، وما يؤكد هذا الطرح إلحاق صفة العلو بالقلم ، ففيه إشارة إلى موضع العقل من الإنسان .

فالقلم بعظمته وفاعليته يمكن أن يصيب الكلى والمفاصل ، وهنا إشارة أيضا إلى قدرة العقل على إدراك الحقيقة الكامنة في جوهر الأشياء ، والتي لا يمكن أن تدرك إلا من إنسان حاذق مجرب وخبير ، متبصر بأمور الحياة ، يسنده في ذلك العقل ، وهو عند أبي تمام الشرط الأساس الذي يجب أن يتوفر في صاحب الرياسة والملك .

يولي الشاعر المعرفة والعلم اهتماما بالغا ، فيجعلهما في مقام رفيع ، فيضعهما شرطين أساسيين لا يكاد ينتظم الحكم إلا بهما ، بل يحقق الملك من خلالها غايته في استرضاء الناس ، من خلال إظهار توافقه مع الحكم ، والرضاء عليه ، ومن ثمة الولاء التام له (احتفلت للحكم تلك المحافل).

يجعل أبو تمام من العقل أساسا للهيمنة الفكرية والسياسية ، ومن هنا تبرز

خطورة القلم في تحكمه في الوجود، بما يطرحه من أفكار من شأنها أن تثبت دعائم الحكم، كما يمكن أن تنتزعه وتعزله، والشاعر يعبر عن هذه الفكرة، من خلال جمعه في البيت الثالث بين صورتين متناقضتين، بيد أنهما تعبران عن شيء واحد وهو القلم (لعاب الأفاعي القاتلات / أري الجني اشتارته أيد عواسل).

تكشف هاتان الصورتان عن مقدرة فنية مكينة عند الشاعر في عملية التشكيل، فهو يجعل من الأفكار التي يطرحها القلم، كالسم في وقعها على الإنسان فتصيب منه مقتلا، كما يمكن لها أن تكون أشهى مذاقا من العسل من خلال التمتع بما يطرحه الفكر من جواهر، فالقلم لا يتحكم في الملك فحسب، بل يتعداه ليتحكم في مصير الإنسان فيؤدي بذلك فعل الحياة والموت.

تظهر سلطة المنهج الفكري المنطقي القائم على مبدأ السببية المهيمنة على تشكيل الصورة وانتظامها داخل النص، فتختص الصور الأولى بما تحمله من أفكار في الأبيات الثلاثة الأولى، ففيها مقدمة عامة يلخص فيها أهمية القلم في الكون، ودور المعرفة في رسم نهج سليم لحياة الإنسان، لتأتي الأبيات التالية مفصلة في مستويات الفعل العقلي - القلم رمز العقل - وما يحققه لصاحبه من معرفة، وقد فرق أرسطو: «بين العقل الهولاني (المنفعل) والعقل (الفعال) أو بين العقل بالقوة والعقل بالفعل، فالعقل بالقوة هو تلك القدرة على الاستدلال وانتزاع المعرفة» (17).

وبما أن قيمة العقل تتحدد مع دوره في إرشاد الحياة الإنسانية إلى النهج القويم، وتوجيهها توجيهها سليما، وهذا ما يكشف عنه موقف أبي تمام، حين يجعل من آثار القلم رمز المعرفة المدركة بالعقل يقع نفعها على مشارق الأرض ومغاربها، ولعل الشاعر في تقديمه الشرق على الغرب في نظام النص له ما يبرره تاريخيا، لأن هذا التقديم صادر عن وعي معرفي، يقر بفضل الشرق على الغرب في تحصيل المعرفة.

كما يدرك الشاعر الأثر الذي تتركه المعرفة من حيث سرعة الانتشار والتوالد، من خلال استخدام هذه الصيغة (له ريقة ظل لكن وقعها) فالشاعر يجمع في هذه الصورة بين ريق الإنسان وفيه إشارة إلى الفعل الإنساني، والمطر الهطول الذي يعم بخيراته الكون.

ولما كانت المعرفة خاصية إنسانية ملازمة للعقل، ومجسدة لأفكاره، وهو الطرح الذي نجده في الفكر المعتزلي، حين ربطوا بين العقل والمعرفة، وهو ما يعرف عندهم بكمال العقل الذي يتميز به العاقل «فهي مجموعة من المعارف تخلق على صفة العلم بها، فالعاقل يولد وبه من الصفات والخصائص الواحدة الثابتة في كل العقلاء

من علم عن طريق الإدراك ، وبطريق الأخبار وكذلك التوليد عن الاستدلال ، فالعقل إذن هو هذه الصفة التي خلق عليها العاقل من علم أو معرفة « (18).

يسترسل أبو تمام في بقية الأبيات في تعليل حكمه على قيمة القلم ، فيصور علاقته بالإنسان وحركته في الأيدي ، فيجعله صاحب الفعل ، وهنا تتأكد رمزيتها وارتباطه بالعقل المدبر ، يتحول القلم في هذا المشهد إلى فارس يمتطي جواده ضاربا في الأرض باحثا عن المعرفة ، لا تحده في مسعاه أية حدود ، يساعده في ذلك مطيته السهلة الانقياد المطاوعة ، والتي ألحق بها أبو تمام صفة اللطافة ، وما هذه المطية إلا البنان وهي تنساب مع حركة الفكر.

يمجد الشاعر الفكر مرة أخرى ، فيجعله كامنا في العقل الإنساني ، الذي يجب أن يحوز الإرادة في البحث عن المعرفة ، بالجد والمثابرة في بلوغها ، لأن بها يحصل الإنسان على زاد معرفي متدفق ، وهي الصورة التي يرسمها له (أفرغت عليه شعاب الفكر) وهذه الصورة بدورها مكتنزة وحبلية بدلالات متعددة ، لأنها تعبر عن غنى العقل بالفكر ، فلا يجد الشاعر من مستعار منه أحسن من انسياب الماء من قمة الجبل على الشعاب ، فيكون الأثر والمنفعة في الاثنين كبيرا ، فكأنما المعرفة تشيع بين الناس مثل شيوخ الماء في الشعاب .

تفصح الصور الشعرية عن ثرائها المعرفي الذي يصدر عنه الشاعر ، فتتلاحق الصور كأنها تكشف عن بعضها البعض ، بشكل متناسق لا يصدر إلا عن شاعر يغلب عليه التفكير المنطقي ، فبعد أن تحدث في الأبيات الأولى عن أهمية القلم بالنسبة للممدوح وارتباطه ، جاءت المجموعة الثانية من الأبيات لتفسر هذه الأهمية من خلال التعبير عن الأثر الذي يتركه القلم ، بما يطرحه من معرفة وأفكار ، وتأتي الأبيات الأخيرة لتجعل من حركة القلم مرتبهة بما يمدد إياه الذهن الذكي .

يصور الشاعر الذهن الذكي في غزارته كالمطر الهطول الذي لا ينقطع ماؤه وهو ما يشكل إغراء للقلم ، فيقبل منحنيا إجلالا وإكبارا لما يحمله الفكر الإنساني ، فكأن بالذهن الذكي هو السبب في حركة القلم النشطة ، فالقلم بذلك خاضع لمشيئة الفكر ، وهنا يفصل الشاعر بين القدرة الإنسانية على الفعل في مقابل انقياد الوجود من حوله لقدرته العقلية ، وهنا نجد الشاعر ميالا إلى الفكرة التي تحصر طلب المعرفة في الرغبة الإنسانية ، لا في ما يعرضه العالم الخارجي على الفكر « ذلك لأنه قد ثبت أن لا طريق لمعرفة أحدنا بحال غيره في باب المعارف إلا أن يعرف حال نفسه فيها ، ثم يبنى عليها حال غيره لأنه لا يجوز أن

يحصل له العلم ابتداء ، بأن المعرفة لغيره سبب وطريق... فيعلم عنده أن حال غيره كحالة في هذا الباب» (19).

تأتي الصورة الشعرية الأخيرة في هذا المقطع - القصيدة المطولة - لتكشف عن تقدير الشاعر للعلم والمعرفة التي يرمز لها القلم ، فيجل شأن القلم وينحني له على رهافته ، لما يحمله من أفكار تفوق حجمه ، فيشبهه في نحالة الهيئة كإنسان أفنى جسده في البحث عن المعرفة والتفكير فيها.

خاتمة :

مما سبق يتبين لنا أن أبا تمام قد هيمنت عليه الفكرة المعرفية ، فشكلت هاجسا شعريا عنده يتمظهر في مختلف صورته الشعرية ، حتى كأنها أصبحت تفرض منطقتها وسلطانها عليه ، فالشاعر لا يطرق معنى شعريا ، إلا وهو محمل بعقب المعرفة السائدة في عصره ، منهجا وفكرا .

وأما من ناحية المنهج فالشاعر يخاطب العقل في المتلقي ، والذي يفترض فيه قدرا غير هين من المعرفة ، وثقابة الفكر لكي يحلل ويركب الصور الشعرية التي ينسجها أبو تمام في مخيلته ، كما أن الشاعر يعتمد مبدأ العلية والسببية في عرض أفكاره ، وهذا ما جعل صورته تتراتب بشكل متسلسل لتوضح كل صورة الصورة السابقة لها ، أثرت المعرفة الفكرية في الصورة الشعرية بشكل كبير ، فتحوّلت الصورة الشعرية عنده إلى أداة معرفية للكشف ، قائمة على التشخيص والتجسيم ، ممتطية أسلوب المبالغة ، وبخاصة حين يجعل من الفكر فارسا أسطوريا يجوب مشارق الأرض ومغاربها.

يعتمد أبو تمام أسلوب الموازنة القائم على الضدية ، في التأكيد على قيمة الموصوف في صورته الشعرية ، وهذا ما تأكد في جمعه بين العديد من المتناقضات في موضع واحد (الموت/ الحياة) يرجح أبو تمام الفكرة على حساب بناء الصورة الشعرية ، وشكلها الخارجي ، فنجد في كثير من الأحيان لا يراعي الجانب الجمالي في الصورة بقدر مراعاته لجانب المعنى الذي يطمح من خلاله إلى ملامسة الخارق والجديد المبتكر ، ومسوغ ذلك هيمنة المعرفة التي تمارس سلطتها على الإبداع عنده.

تميزت الصورة الشعرية عند أبي تمام على مقدرتها الفائقة على احتمال أكبر قدر من المعاني ، فكأن وظيفتها في النص قائمة على مبدأ الغائية والنفعية ، باعتبارها أداة لتوضيح المعنى وإثرائه ، وتبعاً لذلك اعتمد على الصورة الإشارية ؛ التي تقوم على إيحاءية اللفظ ، فكل لفظ فيها حامل لصورة متكاملة من شأنها أن تشرى المعنى الكلي الذي تشكله العلاقات بين الألفاظ.

جسدت الصورة الشعرية عند أبي تمام رغبة الشاعر في تجاوز المؤلف من الصور عند القدماء ، فانتقل بها من طور المماثلة القائمة على التناسب بين المستعار منه للمستعار له ، إلى حالة اللاتناسب بينهما على الأقل في أفق التوقع للمتلقي ، لأن الشاعر كان يتأمل في الصورة الشعرية خدمة الفكرة الجديدة لا مسيطرة التقاليد الفنية المتوارثة ، نحسب أن أبا تمام قد حقق نقلة كبيرة في مجال إبداع الصورة الشعرية ، فنقلها من تأثير الحواس إلى تأثير العقل في تشكيلها ، وهو في ذلك متأثر بثقافة عصره ، وما ساد فيه من جدل فكري كبير .

الهوامش :

- 1 - ينظر : عمر فروخ ، أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله ، دراسة تحليلية ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان ، (د/ط) ، 1964 ، ص 98 وما بعدها .
- 2 - الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أس الطائي وأبي عباد الوليد بن عبيد البحتري ، حقق أصوله وعلق حواشيه ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، مصر ، ط 2 ، 1959 ، ص 21
- 3 - نفسه ، ص 11 .
- (*) يتحدث المرزوقي عن عمود الشعر في مقدمة شرح ديوان الحماسة ، فيقول : « فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتبين تلبد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث... ويعلم أيضا الفرق بين المصنوع من المطبوع والشعراء الذين ساروا على عمود الشعر ، أنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف ، وعن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ؛ (ثم) المقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه وللمستعار له ، ومشاكله اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما (اقتضاء اللفظ والمعنى) للقفائية حتى لا تكون منافرة بينهما ، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل بيت منه معيار ومقياس » ، ينظر شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1991 ، م 1 ، ص 09 .
- 4 - الموازنة ، ص ص 380 - 381
- 5 - ينظر نفسه ، ص ص 380 - 381
- 6 - ينظر ، نجيب البهيتي ، أبو تمام الطائي ، حياته وشعره ، دار الفكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1970 ، ص 192 .
- (*) يمكن الإشارة هنا إلى جهوده النقدية من خلال عملية اختياره الشعر في كتابي الحماسة الكبرى والحماسة الصغرى ، والمعروفة أيضا بكتاب الوحشيات .
- 7 - ينظر ، واين شوماخر ، القيمة المعرفية للأدب ، فصل من كتاب (الأدب واللاعقلاني) ، ترجمة سعيد توفيق ، مجلة فصول ، تصدر عن الهيئة المصرية العامة ، م 6 ، ع 3 ، 1986 ، ص 26 .
- 8 - إرتقاء الإنسان ، ترجمة موفق شخا شير ، مراجعة زهير الكرمي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مارس 1981 ، ع 34 ، ص 22 .
- 9 - ينظر ، محمد حسن عبد الله ، الصورة والبناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة ، (د/ط) ، 1981 ، ص 12 .
- 10 - الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، (د/ط) ، 1992 ، ج 3 ، ص ص 131 - 132
- 11 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود التركي ، وعلق عليه السيد محمد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1998 ، ص 323 - 324
- 12 - أبو تمام ، الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 5 ، (د/ت) ، م 1 ، ص 214 .
- 13 - الجاحظ ، الحيوان ، ج 1 ، ص 07 .

- 14 - ينظر ، مهري حسن أبوسعدة ، الاتجاه العقلي في مشكلة المعرفة عند المعتزلة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط1 ، 1993 ، ص 86.
- 15 - ينظر نفسه نفسه ، ص 85.
- 16 - ديوانه ، م 3 ، ص ص 122 - 125.
- 17 - مهري حسن أبوسعدة ، ص 78.
- 18 - نفسه ، ص 83.
- 19 - نفسه ، ص 84.

قائمة المراجع :

- 1 - أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1991.
- 2 - أبو تمام ، الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف القاهرة ، ط5 ، (د/ت).
- 3 - جاكوب برونفسكي ، إرتقاء الإنسان ، ترجمة موفق شخا شيرو ، مراجعة زهير الكرمي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، مارس 1981 ، ع 34.
- 4 - الحسن بن بشر الأمدى ، الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري ، حقق أصوله وعلق حواشيه ، محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، مصر ، ط2 ، 1959 .
- 5 - عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، (د/ط) ، 1992.
- 6 - عمر فروخ ، أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله ، دراسة تحليلية ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان ، (د/ط) ، 1964.
- 7 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود التركي ، وعلق عليه السيد محمد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1998.
- 8 - محمد حسن عبد الله ، الصورة والبناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة ، (د/ط) ، 1989.
- 9 - مهري حسن أبوسعدة ، الاتجاه العقلي في مشكلة المعرفة عند المعتزلة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط1 .
- 10 - نجيب البهيتي ، أبو تمام الطائي ، حياته وشعره ، دار الفكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط2 ، 1970.
- 11 - واين شوماخر ، القيمة المعرفية للأدب ، فصل من كتاب (الأدب واللاعقلاني) ، ترجمة سعيد توفيق ، مجلة فصول ، تصدر عن الهيئة المصرية العامة ، م6 ، ع3 ، 1986.

البعد الديني والوطني في الشعر الشعبي الأمازيغي شعر (سي محند أومحمد) أنموذجاً

خالد عيقون*

الملخص :

اعتمدت الدراسة على نموذج رائد هو الشاعر «سي محند أومحمد»، وذلك بالتعريف بمسار حياته الاجتماعية والثقافية، ودراسة عينات من شعره ومركزة على الوحدة النصية الاستهلالية، التي غالباً ما تستهل بصيغة دينية، مثل «بسم الله»، «الحمد لله» أو «سبحان الله». أو وحدة نصية لغوية كالاستهلال بحرف من الحروف الهجائية، مثل «أ، ب، ت، ث» وغيرها. أو صيغة ذات دلالة وطنية كالاستهلال باسم مدينة من المدن الجزائرية، التي زارها الشاعر أو مرّ بها، مثل مدينة الجزائر العاصمة، عنابة، بليدة والبويرة... الخ. وتركز الوحدة الاختتامية على الدعاء والتضرع إلى الله عزّ وجلّ. وتختتم الدراسة بنتائج منها أن شعر «سي محند أومحمد» نموذج رائع ومثال رائد في توظيفه للأبعاد الدينية والوطنية، وفي إطار التواصل والتلاقي بين الأديبين العربي والأمازيغي، باعتبار التراث الإسلامي يمثل المصدر الأساسي والرافد الأول من روافد الأدب الشفوي والأمازيغي.

الإشكالية: تحاول الدراسة إبراز أهمية الخطاب الشفوي والأمازيغي وكشف الأبعاد الدينية والوطنية في الشعر الشعبي والأمازيغي، من خلال نموذج شعر سي محند أومحمد مع التركيز على مستويات البنية العميقة والخصائص والصور والدلالات وغيرها.

الكلمات المفتاحية: الشعر الشفوي والأمازيغي، البعد الوطني، البعد الديني، الخصائص اللغوية، الصور، الدلالات.

Abstract :

The study is based on a lighthouse model which is the poet Si Mohand Oumhand. It traces the path of his social and cultural life and studying samples of his poetry, based on introductory textual units, which often start by religious formulas, such as: In the name of God, Praise be to God and Subhan Allah Or

* جامعة مولود معمري تيزي وزو.

linguistic textual units that begin with letters of the alphabet, such as a, b, c, d and many others. Or a national significative formula by introducing a city among other algerian cities that the poet had visited or whereby he would transited, like the city of Algiers, Annaba, Blida, Bouira, etc.. Regarding the unity of the conclusion, it focuses on prayer and invoke God, the Almighty.

The study concludes with results such as Si Mohand Oumhand's poetry which is an excellent model for the use of national and religious dimensions in the context of the communication and convergence between the Arab and Amazigh literature in view of the fact that the islamic tradition is the main source and the first confluence of the oral amazigh literature.

problem: This study attempts to highlight the importance of the amazigh oral discourse and reveal national and religious dimensions of popular amazigh poetry through the model of poetry Si Mohand Omhand, and, focusing on levels of deep structure, characteristics, images, etc.

Keywords: Oral amazigh poetry, national dimension, religious dimension, linguistic features, images, significations.

مقدمة :

انطلاقاً من أنّ « محور وحدة المجتمع الجزائري عند معظم شعراء الأدب العربي : العربي والأمازيغي يندرج في إطار الوحدة الوطنية والدينية إذ أنّ الإسلام دين الجميع يوحد بين قلوب سائر المواطنين ويشكل أوثق الصلات بين أفراد المجتمع »⁽¹⁾، ونلاحظ أنّ الجانب الروحي يحتل مكانة سامية في الشعر الشعبي الأمازيغي ، خصوصاً في شعر « سي محند » لذا نحاول أن نركز عليه قصد إبراز طريقة توظيفه ودلالته ورؤيته ورموزه .

مولده ونشأته :

ولد الشاعر « سي محند أو محند » 1843 بنواحي الأربعا ناث إيراثن من عائلة ميسورة متعلقة بالعلم والدين لها الفضل في تأسيس زاوية لتعليم أبناء القرية تولى التدريس بها عم الشاعر ، وهو المكان الذي احتضن طفولته فحفظ القرآن الكريم حفظاً تاماً ، ثم انتقل « سي محند » إلى زاوية سيدي عبد الرحمن الإيلولي أين واصل دراسته ، فارتشف العلوم اللغوية والشرعية كالنحو والفقه والحديث والتجويد حتى عدّ عالماً من علماء عصره .

(1) عبد الحميد حاجيات : مظاهر وحدة المجتمع الجزائري ، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، 2002 ، ص15.

(2) أنظر: سعيد بوليفة .

ويبغان ربي يوحد
ذي سي محند أو محند
إغرا القرآن بوجود

وقد سار علماء السلف على هذا النهج منهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، فحسب دراسة أجنبية « كان تكوينه العلمي متطوراً جداً فلم يحفظ القرآن فقط ، بل أعاد حفظه ودرسته إحدى وعشرين ، ثم تلقى تأسيساً قوياً في العلوم اللغوية والشرعية كالنحو والبلاغة والفقه والأصول والقضاء ، واطلع على المسائل الشرعية في كل المذاهب»⁽¹⁾.

وهكذا قضى « سي محند » طفولته وهو ينعم بالسعادة والهناء شملته عناية أهله وهو يحلم بأن يواصل حمل رسالة الأسرة ويعلي شأنها بالعلم والدين ، وكانت ذكريات طفولته السعيدة تراوده طوال حياته.

بالأمس كنت غلاماً
جميلاً وسيماً سعيداً
تحت جناحي والدي
كنت ذائعاً معروفاً
أتقدم الصفوف
حتى أصبحت طالبا (2).

لم يدم الصفاء طويلاً فقد انقلبت الأمور فجأة رأساً على عقب حين اكتسحت قوات الاحتلال قريته فخربتها وهدمت ديارها وشردت أهلها ، واعتدت على الحرمات والمقدسات : المساجد والزوايا ، بما في ذلك أروع مسجد في منطقة القبائل كلها وهو مسجد « توريرت ميمون » ببني يني ، يقول الشاعر :

الجامع نتوريرت يغلي مسجد توريرت تهدم
وين ابنان إتركين ذك الذي بناه الأتراك
يرنا الزين ذالعلي هندسته الأنيقة انطفأت
يرى ثيرك الدحاجن ومعماراه مخرب منذك
يوثا الحزن الراسي عليك بالحداد أيتها النفس
السادات إيهودن أضرحة الأولياء في هلاك (3).

(1) Recueil de poésie kabyle, Awal, Alger, 1990, p45

(2) محمد الجابري : ابن خلدون من وجهة أجنبية ، مجلة التراث العربي ، العدد 50 ، دمشق ، سوريا ، ص24 .

(3) أنظر: مولود معمري . Les Isefra de Si Mohand, Maspero, Paris, 1972, p 116.

هذا وقد اشتركت عائلة الشاعر «سي أو محند» في ثورة المقراني 1871 وكان نتيجة ذلك أن قتل والده رميا بالرصاص في ساحة القرية أمام أنظار ابنه الشاعر ونفي عمه المعلم إلى كلدونيا ، وسجن الشاعر وكاد أن يلقى حتفه لولا العناية الإلهية ، وهرب أخوه الأكبر إلى تونس بما خفّ حمله وغلا ثمنه ، ثم التحقت به أمه وأخوه الأصغر .

وهكذا تشتت العائلة ما بين الموت والنفي والسجن والغربة ، وبقي الشاعر وحيداً لا دار ولا دوار يأوي إليه ولا ولي يحن إليه ومال يقات منه ، فانتقل فجأة من حياة العزّة والكرامة إلى حياة الذل ، التشرّد والغربة ، هذا الوضع الجديد المفروض عليه فجّر في أعماقه ينبوع الشعر ، الذي وجد فيه ملجأً آمناً ودواء شافياً احتفى به ولازمه إلى وفاته :

غورك أربي أنحرق

سلكخ نعوق

غورك يسهل كل شي

أربي إيلي ذاعوين

ذمحزون ووليو

الغربة يرنتس صبر (1)

إذا كانت الدراسة العلمية للنصوص تلتزم بضرورة فهم الأسس الجمالية التي تركز عليها بنيتها واكتشاف دلالاتها وخصائصها وعلاقاتها التي تربطها بجذورها فإنه من خلال تشريحنا وفحصنا لعينات من أشعار «سي محند أو محند» تبين لنا أنها تنبني على الأسس الآتية :

أولاً- الوحدة النصية الاستهلاكية :

اعتماداً على قانون الاستهلال نكتشف أنه وظف بحكم ثقافته الدينية وانتمائه إليها جل استهلالات القرآن الكريم حيث يستهل نصوصه بما تستهل به السور القرآنية من وحدات نصية موجزة مثل : (بسم الله ، الحمد لله وسبحان الله). ففي الاستهلال تتضح المعالم الأولى لتأثر الشاعر وقد فتحها على دلالات لا حصر لها وهي كافية لإبراز مدى التطور الذي شهدته القصيدة الأمازيغية في توظيفها للرمز الديني ، وهذا الحشد الهائل من الرموز والصيغ تعبر عن الرؤية المستمدة من المخزون الإسلامي الذي ترعرع فيه الشاعر.

(1) انظر محمد جلاوي : قراءة نقدية في كتاب أشعار شعبية من قبائل جرجرة لهانوطو ، ص 88.

أ - يستهل الشاعر نصوصه بوحدة نصية موجزة قد تكون « بسم الله » مثل :

بسم الله انبذوا سفروا
ار الله أذ يلهو
إردناذى الوضيات
أوسبحان الله مثل :
سبحان الله الواحد الأحد
ذوا لواجب اكنحمد
ثفكيند القدرة نصبراس
أواسم من أسماء الله الحسنى مثل : الحنين ، الرحيم ، العظيم.

الحنين كتش ذا الرحيم
سبحانك الله العظيم
مول الغاشي بلا اعداد(1).

- وهي الوحدات النصية نفسها التي استهلكت بها سور القرآن الكريم مثل : الأنعام ، الكهف ، الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...) ، وهكذا تجلى الرمز عند الشاعر في مستويات عديدة ، وجاء توظيفه تحت تأثير أسلوب القرآن الكريم وهذا ما يوضح عمق الصلة بين نصوصه ونصوص القرآن.

ب - الاستهلال بأسلوب القسم : تستهل بوحدة نصية لغوية متمثلة في أسلوب القسم ، مثل قوله :

يقول وول ارينطق
غورى أور يحذيق
نك غوري يفيث فيحل

وقوله :

يقول ووليواس ورفان
العياذ يمعنان
أورثفين ذلمحبة(2).

ويزخر القرآن الكريم بالسور التي تستهل بأسلوب القسم ، مثل : (والشمس وضحاها...).

(1) عبد الرحمان بوزيدة : الحوار الرفيع ، دار الحكمة ، الجزائر ، د ط ، ص 30.

(2) المرجع نفسه .

(والسماء والطارق...). (لا أقسم بهذا البلد).

ج- الاستهلال بالحروف الأبجدية: ولقد بلغ اهتمام الشاعر «سي محند أو محند» بالدلالات الرمزية العربية الإسلامية إلى حد توظيفه أو استخدامه الحروف الأبجدية استخداما رمزيا في مستويات متعددة، نكتفي بالتركيز على حرف الخاء والراء والميم فيما يأتي:

الحرفيويبذا غف الخا

يورا ذق النسخة

الدونيث أم لخريب

الحرف اثرفذع أف الرا

أطاس أي انزرا

نوقى كان ادنعثب

الحرف أثرذع أفلميم

أوليويسخميم

نتعجب ذقواس نزرا (1).

- إن هذا النهج الذي نهجه الشاعر في نصوصه قد شاع في النصوص العربية منذ القرن السابع عشر وقد ورد في أشكال عديدة منها:

- استهلال بيت كل قصيدة بحرف من حروف الهجائية مع مراعاة ترتيبها الألفبائي مثل:

الألف الفت الهوى محى ليحلف واجعل قلبي دار حبطة بأطرافه
باحث دمعتي بأسرار القلب شوف لخدى توجد المعنى مكتوب

ولا يزال الشعراء الأمازيغ المعاصرون يصوغون أشعارهم على هذا المنوال آخرهم الشاعر «رمضان محفوف» صاحب المنظومة الألفبائية التي تتشكل من سبعة ومائة بيت، وجعل أساس كل بيت ومخرجه حرفا من الحروف الألفبائية الثمانية والعشرين، مع مراعاة ترتيبها الألفبائي وتكرار الحرف في كل ثلاثية، مثل: ثوساد الموتس سا لحرف البا ثوفاد لهلاك ذا السبة

ثوساد الموتس سا لحرف التا كشمغ دار الموتغ

ازئنيذ افرططمة اتسرون الطيور ذقني

وقد يعود هذا الاستخدام للحروف إلى التأثير بالأسلوب القرآني الذي

(1) أنظر: عبد الحميد بوحبيب: سي محند أو محند، الشاعر الجوال (مخطوط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 1996، ص273.

تستهل كثير من سوره بالحروف مثل : الم - ص - ق - ن...

د - الاستهلال بالأمكنة الواقعية (المدن) : تمثل كل المدن الجزائرية ووطن الشاعر « سي محند » ، دون أن ينسى معاناة الهجرة ، وتأكد ارتباط المهاجر المتين بوطنه ، والحديث عن مرارة الغربة ومآسيها ، وكل مدينة لها ميزتها الخاصة ، فهذه عنابة يشد إليها الرحال ويطيب بها المقام ، فقد استقر الشاعر بعنابة فترة من الزمن ، وكان يكتب الرسائل العائلية للعمال المغتربين مقابل أجر زهيد فها هو يقول :

أطاس أي قغوان أعوين

علمن الوالدين

آدروحن أرك غر عنابة

سالاقلام أروذفرائين

غرواث اتسيلين

الحباب إكوذتسغيمما(1).

وهذه العاصمة المحروسة في كل حي حارس يحميها...

لذايير تسمذينت يلهلن

ثبساس الميزان

أمكول أزيق ذقس اعساس

أطاس إيوداك يزهان

أربحن الويزان

كل الخير يو ر فلاس

البعض الحو زنقان

ذي سيدي رمضان

ثفات أوردظهير فلاس

وهذه بليدة يجوب في أرجائها المغتربون :

هائين ذا لبليدة

ثاراوث الغربية

ذازناقي لا تسحويسن(2).

وهذه مدينة ذراع الميزان التي كست حلة بيضاء من الثلوج وحاصرت

(1) المرجع نفسه ، ص 276.

(2) المرجع نفسه ، ص 285.

الشاعر حينما نزل بها ، فوصف ذلك بقوله :

أقلي ذى ذراع الميزان
كل شي يسلمبزان
لشكات ثوقى اتصحو
يوثد اذفل ذا بركان
اقظع ابردان
عاذ مازال ادرنوا
يساتس المى ذات عباس
يرزاد ثيفيراس
يرناد اتشينا بغبابلو

وهذه مدينة البويرة :

أقلي ذثمورث أنحمزة
ثذمدينث البويرة
عشقن أوك مدن سكناس

وهذه مدينة عين الحمام المحطة الأخيرة في حياة الشاعر «سي محند» ، حيث عرج على الشيخ الحكيم «محند أو لحسين» ، وهو بمثابة لقاء بين الشاعر الجوال والحكيم المقيم ، وبين العاطفة والعقل وكلاهما يمثلان الثقافة الأمازيغية أحسن تمثيل ، كما يمثلان حلقة وصل بين الثقافة الأمازيغية والثقافة العربية الإسلامية ، وجرت بينهما مناظرة ، فها هو الشاعر «سي محند» يخاطب الحكيم الشيخ «محند أو لحسين» قائلا :

الشيخ محند أولحسين
نوساد أكنيسين
الباز أزدغن الحصين
إلاق أوسين
أثايا أكشميي أوسميض
السادات هكيث أعوين
سيشيزي أكين
ثمورث اتصدغن وياض(1).
آه يا شيخي «محند أولحسين»

(1) أنظر: مولود معمري Les poèmes de Si Mhand Oumhand, p 258

إليك هرعنا مسرعين
ركب الغيظ فؤادي
أيها الباز يا ساكن الجبل الحصين

يليق لك رفيق مستقيم
غير أنني أقشعر من الرهبة
أيها السادات للزاد احتياجي
به أطوي القمم وأمضي في الفجاج
ولتمضي الحياة بأجيال جديدة في بلادي.

وهكذا تميز الشاعر في توظيفه للمكان أو ما يعرف بأسلوب الرحلة متنقلا من مكان إلى آخر ، طمعا في حياة أفضل أو الهروب من الواقع لكن ينتهي به المطاف إلى المحطة الأخيرة بالسقوط في الموت المحتوم(لقد عاش ثلاثة وستين عاما في نفس عمر سيدنا محمد عليه السلام) (1)... وهكذا لفظ الشاعر أنفاسه بعد أن استثمر كل لحظة من عمره استثمارا تاما في إنتاج الشعر الذي وجد فيه لذة كبرى مستعينا به في مواجهة كثير من الصعاب والمحن التي انصبت عليه طوال حياته القاسية فاحتفى بالشعر ووجد فيه ملجأ آمنا مما ناله من الويلات وهو يعاني من البؤس والوحدة والغربة.

ثانيا . الوحدة النصية الاختتامية :

- يكاد أن يكون الاختتام مبنيا على نفس خصائص الاستهلال ، ويتميز بناؤه على ما يأتي :

أ - الدعاء والتضرع إلى الله بإلهامه الصبر والرحمة في الدنيا ودخوله الجنة في الآخرة مثل :

أتسخيلك اربي لحبيب
افكا نغذ اكرا نصيب
مولاش الروح ينعدم
أيحينن يسظهارن الحق
فيحل ما ينطق
ما ذمشوم أد ياس واديس
سحذع غربي اندعو

(1) أنظر: مولود فرعون ،، 2ème édition, p 110, Les poèmes de Si Mohand, Awal, 1992,

اذفلاس يعفو

انمليل ذ الحنث اسين(1).

يسرد الشاعر علينا محنته واصفا حالته النفسية ، على نحو يناجي ربه أن يخفف آلامه وهمومه ويلهمه الصبر والنصيب ، مما يشبه الجوّ القرآني الوارد في آخر السور القرآنية التي تختتم بالدعاء والتوسل إلى الله ، مثل آخر سورة البقرة (... واعف عنا واغفر لنا و أرحمنا...).

ب - الرضا والاستسلام للقضاء والقدر : عبرت شخصيته عن الرضا والصبر والتقبل للقضاء والقدر لما تقتضي به المشيئة الإلهية ، مما هون عليه بعض النكبات العائلية التي أصابته في عائلته ووالده وبعض أقربائه ونكبته في أمواله وممتلكاته وأراضيه.

يارب اركيناوض النيف

أي جوزغ الحيف

مازال لعشاب أوزكا

البعض ثقكبذاس لرزاق

كل الجهة اخراق

تشكرث ذ خاميس

البعض ثريط المشاق

ذا الزلط أوالعشق

اورسيد ذغريب الرّيس(2)

ج - الإحالة إلى القرآن الكريم والحديث الشريف : يحيل الشاعر المتلقي إلى المصادر التي تأثر بها ، وهي القرآن الكريم وباعتباره أحد حفظته وحامله في صدره.

أغريغ القرآن كل السطور

اتسزلغ الطهور

اسميوارمدن معروف

سماني مدن الملهوف

ناك هجاغ الحروف

ألمي اغريغ ستين حيزب

(1) المرجع نفسه ، ص 63.

(2) أنظر: عبد الرحمان يوزيدة ، الحوار الرفيع ، ص 53.

أنسيغ أفوزكا يتسرو
أغريغ الحمدو
أرنيغ أربع ياسين(1)

- وكان «سي محند» محظوظا بحفظه للقرآن الكريم ومعرفته للغة العربية وتشبعه بالثقافة العربية الإسلامية قد جلبت لصاحبه تلك المكانة العالية المتميزة وتوجته كأحد الرموز الكبرى في الأدب الأمازيغي الحديث، فهو يعتمد على الكثير من الألفاظ والصيغ القرآنية ويصوغ قصائده على ما يستوحيه منه وقد بلغ أحيانا حدّ النسيج على منوال الأسلوب القرآني.

- الإحالة إلى علم التوحيد والإشادة بعلمائه :

إيكاذ أثحبوظ الوحيد
أغران نتوحيد
فهمن كلّ المعاني

- الإحالة إلى الحديث الشريف :

اكا اتسنوفا ذا لحديث
قبليث نغ أجيث
واقى ذا لوقث اخذاع (2).

ثالثا- الألفاظ والصيغ :

- تشكل نصوص الشاعر بألفاظه وصيغته عوالم دلالية، وارتبطت الألفاظ الموظفة أكثرها بالمنظومة العربية الإسلامية خصوصا القرآن الكريم وباعتبار الاقتباس من القرآن يمثل شكلاً من أشكال التواصل واستلهام التراث الديني وهكذا رسم الشاعر بشعره حدود هذا التفاعل الثقافي والتواصل الحضاري، وهذا دليل على تماسكه بأصالته وارتباطه بالتراث العربي الإسلامي.

- وظّف الشاعر في متنه الشعري ألفاظ القرآن بكثافة، وتراكم، ونكتفي بذكر عينة لهذه الألفاظ مثل : الله، رب، القرآن نسخة، الحزب، القلم، الجنة، الموت، الصبر، الحمد، سورة، يسن، العظيم، الحنين. وترمز بعض الألفاظ إلى ذكريات طفولته الدراسية مثل الطالب، الكراس، اللوحة، الدواة، يقول الشاعر :

زكني نك ذا لطالب

(1) نفسه، ص 100.

(2) أنظر: عبد الحميد بوحبيب: سي محند أو محند، الشاعر الجوال، ص 270.

أن ستين حيزب ثدواتس ثور اكراس

ورغم أن محور الشاعر ينبنى على تشريح الواقع الذي عاشه ، والحياة الاجتماعية التي يحيهاها ووصف تجربته الشخصية ومسار حياته وتقلباته ، إلا أن نصوص شعره تزخر بالصور والرموز والدلالات الدينية ، وقد وردت بتراكم وكثافة إلى حدّ الجزم بالقول قد لا نجد شاعراً استطاع أن يجمع في شعره بين الواقع و اللاواقع ، وبين الدين ، والتمرد والرضا بالقضاء والقدر ، جمع كل ذلك في باقة واحدة فوجد سبيله إلى الأعماق والوجدان ، فتلقفت الجماهير شعره وحفظته وتداولته لأن كل فئة وجدت فيه ما تبحث عنه.

- إن هذا التوظيف للتراث ، وهذا التواصل الدلالي من شأنه أن يمد الجسور اللغوية ، لإقامة التواصل بين التراث الأمازيغي والعربي ، وبذلك أسس الشاعر وأصل أقوى جسور التواصل والترابط بين الماضي والحاضر وبين المشرق والمغرب.

تمثل أشعار «سي محند» نموذجاً رائعاً ومثالاً رائداً في إطار التواصل والتلاقي بين الأدبين الأمازيغي والعربي الإسلامي ، وباعتبار التراث الإسلامي يمثل المصدر الأساسي والأول ورافداً مهماً من روافد الأدب الشفوي.

قائمة المرجع :

- القرآن الكريم (رواية ورش عن نافع). (سورة الشمس ، طارق ، البلد ، الإسراء)
1. عبد الحميد حاجيات: مظاهر وحلة المجتمع الجزائري ، مجلة المجلس الأعلى للغة العربية ، 2002
 2. أنظر: سعيد بوليفة , Awal, Alger, 1990, Recueil de poésie kabyle,
 3. محمد الجابري: ابن خلدون من وجهة أجنبية ، مجلة التراث العربي ، العدد 50، دمشق ، سوريا .
 4. Les Isefra de Si Mohand, Maspero, Paris, 1972
 5. أنظر محمد جلاوي : قراءة نقدية في كتاب أشعار شعبية من قبائل جرجرة لهانوطو.
 6. عبد الرحمان بوزيدة: الحوار الرفيع، دار الحكمة، الجزائر، د ط.
 7. أنظر: عبد الحميد بوحبيب: سي محند أو محند، الشاعر الجوال (مخطوط)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر ، 1996.
 8. أنظر: مولود معمري.
 9. Les poèmes de Si Mhand Oumhand.
 10. أنظر: مولود فرعون .
 11. Les poèmes de Si Mohand, Awal, 1992, 2ème édition.
 12. أنظر: عبد الرحمان بوزيدة ، الحوار الرفيع .
 13. أنظر: عبد الحميد بوحبيب: سي محند أو محند ، الشاعر الجوال .

النص الأدبي المترابط : نص جديد لعصر جديد

قالم جمال*

الملخص:

لكلّ عصر ما يميّزه من أشكال تعبيرية ، فحينما اكتشف الإنسان الكتابة ظهرت الأساطير ومنها ولدت الملاحم فكانت الإلياذة والأوديسة وغيرهما ، وكان السرد يخلط بالشعري والهدف محاولة فهم الظواهر وإعطاء معنى للوجود الإنساني في ذلك العصر ، ثم تطورت البشرية قليلا فجاء العصر الزراعي والإقطاعي ، الذي تطورت معه الحكاية فحدث نوع من الانقسام ما بين السرد والشعر ، ومع دخول البشرية العصر الصناعي وبروز البرجوازية الصغيرة والطبقة الوسطى تطورت الكتابة أيضا فولدت الرواية ، التي هي ملحمة برجوازية على حدّ تعبير لو كاتش ، وبعد دخول البشرية العصر التكنولوجي في القرن العشرين ولد أدب الحداثة وما بعد الحداثة .

وها نحن نلج عصرنا آخر هو العصر الرقمي وعصر الثورة المعلوماتية ، الذي أفرز شكلا جديدا للكتابة ، فنتج نص جديد ، برزت من خلاله أجناس أدبية مختلفة عن سابقتها ، اختلف الدارسون والنقاد في تسميتها وتصنيفها ، فكان أن وسموا الأدب بالأدب الرقمي ، وألحقوا به الأجناس الأخرى كالرواية الرقمية والشعر الرقمي والمسرح الرقمي ... الخ ، لكلّ عصر ما يميّزه من أشكال تعبيرية ، ففي عصرنا هذا ولجنا عصرنا آخر هو العصر الرقمي وعصر الثورة المعلوماتية ، الذي أفرز شكلا جديدا للكتابة ، أنتجت نصا جديدا ، يمكن أن نعرفه بأنه كل نص ينشر ونشرا إلكترونيا سواء كان على شبكة الإنترنت ، أو على أقراص مدمجة ، أو في كتاب إلكتروني ، أو البريد الإلكتروني ، أو غيره ، تعتمد بنيته أساسا على الترابط ، كون الروابط هي الفارق بينه وبين النص الورقي . أو هو جماع نصوص وعلامات من مصادر وطبائع متعددة كلّ نص هو بمثابة وحدة مستقلة عن غيرها ، وليست متفرعة أو متشعبة عن أصل معين ، ودخل الأدب غمار الرقمية ، فبرزت أجناس أدبية مختلفة عن سابقتها ، اختلف الدارسون والنقاد في تسميتها وتصنيفها ، فكان أن وسموا الأدب بالأدب الرقمي ، وألحقوا به الأجناس الأخرى كالرواية الرقمية والشعر الرقمي والمسرح الرقمي ... الخ .

* كلية الآداب واللغات ، جامعة أكلي محند أولحاج بالبوية .

Abstract :

The digital and revolutionary age of informatics has spawned a new form of writing. This form has given rise to other types of literature different from traditional genres which in turn has led to the emergence of digital literature: digital novels, digital poetry, digital theatre, and so forth. What is then the meaning of digital literature, and what is the literary hypertext?

Texts have moved from paper space to digital or electronic space, adopting a binary digital language; hence the development of a digital feature that brought into being the so called digital or electronic literature. This literary text made use of such electronic resources as: links, two and three dimensional pictures and differently formed knobs and buttons that turn the digital literary text into a diversified body, revolting against all types of conventional writings. In a sense, the text no longer has a determined beginning or end.

There are, moreover, multiple joints and keys that give access to further open spaces. The text can therefore be simultaneously read, heard and seen, and can be mingled with different forms of expression. Accordingly, interconnectedness became its main characteristic, labeling it the hypertext.

In fact, the idea of the hypertext has been around in many traditional texts, embodied in the footnotes and margins used in manuscripts. Some time honored Arabic poems have also taken interconnected formulas that take the form of a tree, a watch or a fish. However, compared with the digital hypertext which combines the printed words with the related sound, picture and form, such an interconnection looks quite simplistic.

We are faced with many interpretations as to the Arabic equivalent of the foreign term "hypertext". Some linguistic experts prefer transliterating this term, rather than translating it. By contrast, there are those who tried to employ a corresponding Arabic term. Their efforts resulted in so many different interpretations that it is no easy task to list them all here. For example, we find: the super text, the miscellaneous text, the interconnected text, the networked text, the web text, the diversified text, the big text, and so on.

Eventually, we can say that a hypertext is any e text published on the Internet, on CD's, as an e book, through e mails, etc. It reflects the user's or the reader's free choice of links through which he or she explores the dark depths of the text links provided by the galloping modern day technology.

مقدمة :

لكل عصر ما يميّزه من أشكال تعبيرية ، فحينما اكتشف الإنسان الكتابة ظهرت الأساطير ومنها ولدت الملاحم فكانت الإلياذة والأوديسة وغيرهما ، وكان السردى يختلط بالشعري والهدف محاولة فهم الظواهر وإعطاء معنى للوجود الإنسانى في ذلك العصر ، ثم تطورت البشرية قليلا فجاء العصر الزراعى والإقطاعى ، الذى تطورت معه الحكاية وحدث نوع من الانقسام ما بين السرد والشعر ، ومع دخول البشرية العصر الصناعى وبروز البرجوازية الصغيرة والطبقة الوسطى تطورت الكتابة أيضا فولدت الرواية ، وبعد دخول البشرية العصر التكنولوجى في القرن العشرين ولد أدب الحداثة وما بعد الحداثة .

وها نحن قد ولجنا عصرا آخر هو العصر الرقمى وعصر الثورة المعلوماتية ، الذى أفرز شكلا جديدا للكتابة ، فبرزت منها أجناس أدبية مختلفة عن سابقتها ، اختلف الدارسون والنقاد في تسميتها وتصنيفها ، فكان أن وسموا الأدب بالأدب الرقمى ، وألحقوا به الأجناس الأخرى كالرواية الرقمى والشعر الرقمى والمسرح الرقمى . . . الخ ، فما المقصود بالأدب الرقمى ؟ وما هو النص الأدبى المترابط؟

أ . التعريف بالأدب الرقمى :

1 . لغة :

الرَّقْمُ والتَّرْقِيمُ : تَعْجِيمُ الكِتَابِ . وَرَقَمَ الكِتَابَ يَرْقُمُهُ رَقْمًا : أَعْجَمَهُ وَبَيَّنَّهُ . وَكِتَابٌ مَرْقُومٌ .

أى قد بيّنت حروفه بعلاماتها من التنقيط .

وقوله عز وجل : ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾⁽¹⁾ ؛ كتاب مكتوب ؛

وأُشْدُ : سَأْرُقِمُ فِي المَاءِ القِرَاحَ إِلَيْكُمْ ، عَلَى بُعْدِكُمْ ، إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمٌ

وَالرَّقْمُ : ضَرْبٌ مَخْطُوطٌ مِنَ الوَشْيِ .

وفي الحديث : كان يزيد في الرّقم أي ما يكتب على الثياب من أثمانها لتقع المرابحة عليه أو يعتز به المشتري ، ثم استعمله المحدثون فيمن يكذب ويزيد في حديثه⁽²⁾ .

(1) سورة المطففين ، الآية : 20

(2) ابن منظور ، لسان العرب ، ج 12 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 248 .

والرَّقِيمُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (1) هي الصِّخْرَةُ . وقيل : الوادي الذي فيه الكَهْفُ . وقيل : القرية التي خَرَجُوا منها . وقيل : الكلب . وهو - أيضاً - : الدَّوَاةُ بِلِسَانِ الرُّومِ . وَالكِتَابُ أَيْضًا . وقيل : لَوْحٌ كَانَتْ فِيهِ أَسْمَاءُهُمْ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ (2).

من خلال ما سبق ذكره مما ورد في المعاجم العربية حول الدلالة اللغوية لمادة (رقم) يتضح أن ما اشتق من هذه المادة يتصل أساسا بالكتابة والكتاب ، بل إنها « تضيف عنصرا أساسيا نجده يتحقق ، بالصدفة ، مع الحاسوب وهو المظهر المتعلق بـ : التزيين والوشى والتخطيط والنقش والحدق والتبيين وتوضيح علامات الترقيم . . . وسواها من العلامات التي تعطي لـ (الرقمي) طابعه التزييني المميز ، ولعل في الصفات التي اشتققناها من المادة نفسها : الراقم و الرقام محملة بكل الدلالات التي بها الجذر في اللغة العربية ما يسعنا بإقامة روابط عميقة بين الكتابة والرقامة ، ويدفعنا إلى تعميق تفكيرنا فيهما معاً من منظور جديد ومتجدد» (3).

2 . اصطلاحا :

انتقلت النصوص من الفضاء الورقي إلى الفضاء الرقمي أو الإلكتروني على أساس أنها تكتب باللغة الرقمية التي تعتمد ثنائية (0/1) ، فاكسب الأدب من خلال ذلك صفة الرقمية ، فظهر ما يعرف بالأدب الرقمي (Numérique / Digital) أو الأدب الإلكتروني (Électronique) ، وما لمسناه عند أغلب النقاد والأدباء عدم تفريقهم بين المصطلحين ، إلا أن بعضهم حاول إيجاد فوارق بينهما وتوضيح دلالاتهما ، فسعيد يقطين مثلاً فضلَ توظيف المصطلح الأول في كل ما يدخل في نطاق صناعة النصوص و كفاءات بنائها لتصبح قابلة للتلقي أو نقدها وتحليلها ، أما المصطلح الثاني (الإلكتروني) فيرى أنه من الأجلر استعماله لكل ما يتوقف عند حدود الاستعمال الأداتي (النشر الإلكتروني ، الصحافة الإلكترونية ، البريد الإلكتروني . . .) (4).

وإذا كان الاستعمالان (رقمي ، إلكتروني) يحيلان بشكل مباشر إلى دور الوسيط (الجهاز) في تقديم النص والتواصل معه من خلال شاشة الحاسوب ومستلزماته ، فإن المفهومين الآخرين اللذين يوظفان لتوصيف النص الجديد

(1) سورة الكهف ، الآية : 9 .

(2) ابن منظور ، المرجع السابق .

(3) سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، المركز الثقافي العربي ، لبنان / المغرب ، 2008م ، ص 154 .

(4) ينظر : نفسه ، ص 185 - 186 .

يتخذان أبعاداً أخرى ومواصفات مختلفة ، أما أولهما : النص المترابط (Hypertexte) ... وأما المفهوم الثاني فهو السيبرنص (Cybertexte) الذي وظّفه لأول مرة أرسيت (Espen j. Aarseth) ، فيتخذ بدوره دلالة خاصة تتصل بشكل بنائه وطبيعة تشكّله ، إلاّ أنّه يعطينا بعداً أعقد من الدلالة التي يتضمنها النص المترابط» (1) .

وقد استثمر هذا النص إمكانات البرامج الرقمية من روابط وصور ثنائية وثلاثية الأبعاد وعقد وأزرار مختلفة الملامح تجعل من النص الأدبي الرقمي جسداً متشعباً متمرداً على كل الأنماط الخطية التقليدية ، بمعنى لم تعد للنص بدايةً ولإنهاية بل هناك مفاصل ومفاتيح متعددة لولوج فضاءات مفتوحة ، فهو يقرأ ويسمع ويشاهد وتمتزج فيه مختلف الأشكال التعبيرية ، فأصبحت من أهم خصائصه الترابط ، فوسم بالنص المترابط .

أول من استخدم مصطلح النص المترابط (hypertextes) هو العالم تيد نلسون عام 1968م ، وكان تعريفه لهذا المصطلح هو: « توليفة من النص اللغوي الطبيعي مع قدرات الحاسب الآلي للتشعب التفاعلي أو العرض الديناميكي » (2).

وهناك من الباحثين من يرجعها إلى الثلاثينيات من القرن الماضي عندما قام (فايفارش) باستخدام حاسبات تناظرية وروابط بين الوثائق وأطلق على هذه الآلة تسمية (ميمكس memex) ، كما يرجع آخرون فكرة النص المترابط إلى أوائل الستينات في القرن الماضي عندما قامت جماعة (دوجلاس انجلبارت Douglas Engilbert) ببناء نظام حاسب آلي رقمي يتيح للمستخدمين التصفح بين أجزاء النص .

إشكالية المصطلح العربي :

إن إشكالية ضبط المصطلح في اللغة العربية مطروحة بحدّة في كل ميادين المعرفة خاصة الحديثة منها ، والأمر تزداد حدته إذا ارتبط بميدان المعلوماتية والاتصال ، حيث نجد المصطلح الواحد في اللغة الأصل تقابله عدة مصطلحات في اللغة العربية ، وفيما يخص النص المترابط واجهنا العديد منها ، فيوجد من الباحثين من آثر كتابة هذا المصطلح بالحروف العربية كما تنطق في لغتها الأصلية أي الهيبر تكست (3).

- (1) سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، ص 24 .
- (2) ينظر : ناريمان إسماعيل متولي ، تكنولوجيا النص التكويني (الهيبر تكست) وتنمية الابتكار لدى الطلاب والباحثين مجلة كلية التربية ، جامعة الإمارات ، 1996 ، ص 309 .
- (3) ينظر : حنا جريس ، الهيبر تكست (عصر الكلمة الإلكترونية) ، كتاب العربي: 5 (مستقبل الثورة الرقمية ، العرب والتحدّي القادم) مجلة العربي ، الكويت ، (15/01/2004) ص 128 .

وفي المقابل نجد من حاول أن يوظف مصطلحا يوافق هذا المصطلح الأجنبي ، لكن تعددت أشكال هذا المصطلح حتى أصبح من الصعب الإطاحة بها جميعا ، فعلى سبيل المثال لا الحصر هناك من الباحثين من اصطاح على تسمية (hypertexte) بالنص الفائق ، وهي ترجمة حرفية للمصطلح الأجنبي وهي ترجمة غير معبرة عن صفات هذا النص ، كما نجد أيضا مصطلحا آخرًا يطرحه بعض الباحثين كمقابل للمصطلح وهو مصطلح النص المتشعب ، ومصطلح النص المترابط ، وطبعا قائمة المصطلحات تطول وتتسع فنجد مثلا : النص الشبكي ، النص العنكبوتي ، النص التشعبي ، النص الكبير . . . إلخ .

إنّ هذا التعدد في المصطلح قد يرهق الباحث والمهتم بهذا المجال ، لذلك فالحاجة ملحة لوضع منظومة مصطلحية مضبوطة ، وهذه المهمة لا يقوم بها الأفراد لوحدهم بل هي مهمة منوطة بالمجامع اللغوية والمؤسسات البحثية الأكاديمية .

والمصطلح الذي آثرنا أن نتبناه لأنه يعبر بصفة واضحة عن خصائص النص الرقمي وطبيعته ، حسب اعتقادنا ، هو مصطلح الترابط ، لأنّ الدلالات اللغوية التي تحملها كلمة التشعب دالة على التفرّق والانتشار عن مصدر واحد (1) . أما الترابط فنجد في النص الورقي من خلال علاقة الجزء بالكل ، والحال بالمحل ، والمسبب بالسبب ، فهو يشمل العلائق بين المواد المعجمية والجميل وأبيات القصيدة أو أسطرها . . . أي أنّ هناك سببية ، كلّ كلمة تدعو أخرى ، وكلّ جملة تتسبب فيما بعدها ، ما يؤدي إلى سلسلة متصلة الحلقات من مكونات النص وعناصره .

لكن الترابط الذي نجده في النص الرقمي يتجاوز ما سبق ذكره في النص الورقي ، لأنّ النص الرقمي المترابط هو : « جماع نصوص وعلامات من مصادر وطبائع متعدّدة كلّ نص هو بمثابة وحدة مستقلة عن غيرها ، وليست متفرّعة أو متشعبة عن أصل معين » (2) .

كما أنّ هذا المصطلح قد لقي انتشارا وقبولا واستحسانا لدى الدارسين والباحثين ، خاصة في الفترة الأخيرة .

النص المترابط عند الدارسين العرب :

إن فكرة النص المترابط موجودة في نصوص تراثية كثيرة ، تجسده تلك الحواشي والهوامش في المخطوطات ، كذلك أخذت بعض القصائد التراثية العربية

(1) ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (شعب) .

(2) سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، ص 30 .

صيغة الترابط في شكل شجرة أو ساعة أو سمكة . . . الخ ، فقدّم بعض الشعراء نصوصاً وسمت ب (الشعر الهندسي) ، وهو مصطلح واحد يحاول به واضعه أن يشمل في كنفه عدداً من المصطلحات السابقة التي رأى أنها جزئية وتفتقد إلى الشمولية ، مثل (الشعر الشجري) ، و (الشعر الدائري) وغير ذلك ، هذا النمط من النصوص الشعرية (الأدبية) يقوم الشاعر بالرسم بالكلمات ، فينتج قصيدة على شكل مربع أو دائرة أو وردة أو شجرة أو خاتم أو غير ذلك ، وهو ما يعرف بالاشتغال الفضائي الدال ، والذي يعني « تلك الأشكال التي لا تقف عند مجرد العرض البصري التجسيمي الذي تتحكم فيه مقتضيات صوتية ونظمية ، بل تتجاوز ذلك إلى توظيف الاشتغال الفضائي للنص من أجل خلق إمكانات متعددة للقراءة» (1).

يرى الدكتور عبد الله الغدامي في تقديمه لكتاب مدخل إلى النص التفاعلي للدكتورة فاطمة البريكي أن « النص المتفرّع خاصية أسلوبية جديدة ربما كان لها شواهد قديمة في الشروح على المتن والحواشي المتفرّعة وما كان يسمّى حاشية الحاشية ، مما هو من الممارسات الشائعة لدى علمائنا الأوائل حيث يتفرّع المتن الأول للمؤلف الأول إلى متن فرعية تأتي على شاكلة الحواشي والشروح على المتن ، وتعددت صور هذه التفرّعات حتى رأينا كتاباً طريفاً لإسماعيل بن أبي بكر المقرئ عنوانه: « الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي » وهو كتاب كتبه صاحبه في حدود سنة ثمانمائة هجرية ، وصمّمه تصميمياً فيه نوع من الهيبتكست حيث تقرأ السطر الأول أفقياً فيتكون لك أحد هذه العلوم ثم تقرأ الأسطر عمودياً مثل أسطر الجرائد فيأتيك علم آخر ، ثم تقرأ الحاشية فيأتيك علم ثالث ، وهكذا حتى تجد أن الحرف الواحد يشترك في عدد من الكلمات المتقاطعة وفي حالة تقاطع تتشكل معها جملة مختلفة تدخلك في خطاب عن علم من هذه العلوم فهو نص متفرّع لعب صاحبه لعبة حرفية أنتجت لنا كتاباً تنطوي كل صفحة فيه وكل سطر على أربعة علوم» (2).

لكن هذا الترابط هو شكل مبسط جداً إذا ما قورن بالنص الرقمي المترابط الذي يجمع اللغة المطبوعة مع الصوت والصورة والملمس . . . تلعب الصورة إذن دوراً هاماً في تحريك النص العنكبوتي في الإنترنت سواء بمصاحبة النص القابل للتحريك ، أو من خلال وجودها كعنصر رئيس من عناصر النص ، وهي تمتلك الصدفية أكثر

(1) محمد الماكري ، الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت/الدار البيضاء ، 1991 ، ص 156 .

(2) فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، المركز الثقافي العربي /الدار البيضاء ، 2006 ، ص 10

من اللغة ، كما تمتلك التأثير الواسع على المشاهد/ القارئ ، إذ لم تعد الصورة ملحقا
تزيينا بالنص العنكبوتي على عكس وظيفتها في النص المطبوع .

أما مؤثر الصوت المرافق للنص الورقي فهو عزف منفرد ، لا صلة له بالنص ،
أي عامل خارجي عن بنيته ، أما الصوت في النص المترابط فيشكل جزءاً من بنية
النص لا يكتمل الكل إلا به . ويمكن إيراد بعض هذه التعريفات فيما يأتي :

يعرفه نبيل علي ويترجمه (النص الفائق) بأنه : « هو الأسلوب الذي يتيح للقارئ
وسائل عملية عديدة لتتبع مسارات العلاقات الداخلية بين ألفاظ النص وفقراته ويخلصه
من قيود خطية النص ، حيث يمكنه من التفرع في أي موضع داخله إلى أي موضع
لاحق أو سابق ، بل ويسمح أيضاً للقارئ عبر تقنية النص الفائق أن يمهر النص
بملاحظاته واستخلاصاته ، وأن يقوم بفهرسة النص وفقاً لهواه بأن يربط بين عدة
مواضيع في النص ربما يراها مترادفة أو مرتبطة تحت كلمة أو عدة كلمات مفتاحية ،
فتقنيه النص الفائق تنظر إلى النص ليس بوصفه سلسلة متلاحقة من الكلمات بل كشبكة
كثيفة من علاقة التداخل» (1).

ويعرفه حنا جريس ويترجمه (الهيبرتكست) بأنه : « التعبير الوصفي لأحدث أشكال
الكتابة الإلكترونية وهو يشكل نصاً إلكترونياً يرتبط بنصوص أخرى عن طريق روابط داخل
النص ... فالقارئ والقارئ يدركان أنهما ليس أمام كلمات مادية مثل النص المكتوب أو
المطبوع ، بل هما أمام حزمة إلكترونية فاقلة عنصر الثبات ، أما وسائط التخزين فهي لا
تخزن كلمات وإنما تخزن المناظر الرقمي لها ... و الهيبرتكست يتميز بخاصيتين :

الأولى : أنه يمكن قراءته على الشاشة بطريقة غير متتابعة ، فهو نص يتفرع
ويرتبط بنصوص الكترونية مرتبطة بدورها بنصوص أخرى وهكذا .

والثانية : إمكانية ربطه بملفات الصوت والصورة والأفلام المتحركة» (2) .

أما سعيد يقطين فيرى أن مفهوم النص المترابط يتحدد انطلاقاً من معطين :

1 - أن مفهوم النص المترابط ينطلق من النص أولاً ، وثانياً من الترابط الذي
يصل بين مختلف أجزائه .

2 - ارتباط النص المترابط بالحاسوب (الوسيط الجديد الذي يتحقق هذا النص من
خلاله) .

(1) نبيل علي ، العرب وعصر المعلومات (سلسلة كتب ثقافية العدد 184 المجلس الوطني للثقافة والفنون
والآداب - الكويت - 1994 .

(2) حنا جريس . المرجع نفسه ص 128-132 .

فيعرفه : « وثيقة رقمية تتشكل من عقد من المعلومات قابلة لأن يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط ، وتبعاً لذلك فتحدداته تتعدد بحسب الاستعمالات التي يوظف فيها» (1).

ويرى سعيد يقطين أن الترابط النصي مظهر من مظاهر التفاعل النصي ، وأن النص المترابط « يتشكل من مجموعة البيانات غير المترابطة ، التي يتصل بعضها ببعض بواسطة روابط يقوم القارئ بتشغيلها والتي تسمح له بالانتقال السريع بينها» (2).

ويعرف الناقد محمد أسليم الأدب الرقمي بأنه « نوع من الإبداع يوظف الحاسوب في كتابة النصوص وإمداد المؤلف ببرامج تثمر نصوصاً يتوارى فيها الوضع الاعتباري للمؤلف على نحو ما هو متعارف عليه وتختفي فيها الحدود التقليدية بين القراءة والكتابة» (3).

كما يعرفه حسام الخطيب بأنه : « مصطلح الهيبيرتكتست (hypertext) تسمية مجازية لطريقة في تقديم المعلومات يوصل فيها النص والصور والأصوات والأفعال معا في شبكة من الترابطات مركبة غير تعاقبية مما يسمح لمستعمل النص أن يتصفح الموضوعات ذات العلاقة دون التقييد بالترتيب الذي بنيت عليه هذه الموضوعات ، وهذه الوصلات تكون غالبا من تأسيس مؤلف وثيقة النص المفرع أو من تأسيس المستعمل حسبما يمليه مقصد الوثيقة» (4).

وتعرف الكاتبة سوسن مروة النص المترابط تحت عنوان (النص المتعاقب) بأنه « الربط المباشر بين موقع وآخر من النص نفسه أو نص آخر ، والقدرة على استحضارها في اللحظة ذاتها» (5).

ويعدد سعيد يقطين أنواع النص المترابط على النحو التالي :

- التوريق : أي ما يشبه تقليب الصفحات في الكتاب المطبوع من خلال النقر أسفل الصفحة والنقر على مثلثين متقابلين يشير أحدهما إلى الصفحة السابقة ، والآخر يشير إلى الصفحة التالية .

- الشجري : تقدم المعلومات منظمة في مستويات تأخذ بعدا تراتبيا يبدأ

(1) سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، ص 130 .

(2) سعيد يقطين ، نفسه ، ص 128 .

(3) محمد أسليم : <http://www.aslim.org>

(4) حسام الخطيب ، أفاق الإبداع ومرجعته في عصر المعلوماتية ، دار الفكر ، بيروت 2001 ص 50 .

(5) سوسن مروة ، نقد الواقعية الرقمية ، صحيفة الحوار المتمدن ، العدد : 1554 ، 18 / 5 / 2006 ،

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid 65070> .

- من الأصل وينحدر نحو الفروع المنضوية تحته .
- **النجمي** : يأخذ صورة النجم الذي يقع في محور الدائرة ، تدور في فلكه نجوم أخرى .
- **التولييفي** : يقدم النص المترابط بنية معمارية مركبة لا تخضع لأي نظام خطي .
- **الجدولي** : مزيج من التولييفي والشبكي .
- **الترابطي أو الشبكي** : يشبه الشبكة ويتميز بالترابط الشامل ، ويجسد البعد الافتراضي للنص المترابط ، ويسمح بالانتقال الحر المتعدد الأبعاد (1).
- ويذكر سعيد يقطين طريقتين للانتقال في النص المترابط (بين عقده وروابطه) :
- **التجوال** Browsing / Broutage : وهو انتقال بين العقد بدون غايات مضبوطة أو هدف غير التجوال لتمضية الوقت أو إشباع الفضول من خلال التحرك داخل عقد النص المترابط .
- **الإبحار** Navigation : أي الانتقال من عقدة إلى أخرى بواسطة الروابط لغاية محددة ، وتتمثل في البحث عن أشياء بعينها ، وهو أيضا أنواع (2).
- حيث يذكر سعيد يقطين ثلاثة أنواع فرعية للإبحار وفقا لنوعية النص المترابط ومقتضياته هي :
- أ - **الإبحار الإجرائي** (Navigation opérationnelle) : يسمح بالانتقال داخل المنتج بغض النظر عن محتواه أو مضمونه ، من خلال استثمار الوظائف المتاحة فيه مثل : الدخول ، الخروج ، الذهاب إلى التالي أو السابق ...
- ب - **الإبحار الدلالي** (Sémantique Navigation) : يتم من خلال انتقال المستخدم بين الروابط بحسب اشتراكها في الدلالة على شيء أو حقل محدد ، وذلك بتشيط كلمة مترابطة أو صور مترابطة ... ، حيث تكون محددة بلون مغاير أو بخط تحتها أو بتغيير مؤشر الفأرة عندما يمرر عليها .
- ج - **الإبحار الذاتي** (Navigating - Hypertext self) : يضمن هذا النوع للمستخدم حرية الحركة داخل النص المترابط ، بل إنه (المستخدم) يلعب دورا هاما في إنتاج

(1) سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، ص 136 - 140 .
وينظر أيضا : سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط ، مجلة عالم الفكر ، الكويت (أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر) ، 2003 ، ص 71 - 101 .

(2) ينظر : سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، ص 143

وتشكيل النص المترابط في حركة تفاعلية من خلال ما يقدمه النص من إمكانيات (1).

كما ينقسم النص المترابط إلى نسقين: نسق سلبي وآخر إيجابي .

فالنسق السلبي هو ذلك النص الذي يصمّمه الخبراء لتقديم مادة مضمونة محدّدة ، مثل الموسوعات ، وتاريخ الفن وما شابه ذلك ، ومثل هذا النص يكون مغلقا في وجه أية تعديلات على يد المتلقي/ المستخدم ، الذي تتاح له حرية التجوال بين شبكة النصوص والوصلات الرابطة بينها على النحو الذي يرضي هدفه ، ولكنه لا يستطيع تغيير أي شيء في الجسم الأصلي في النصوص ، أو في طريقة تشكيلها ، أو الإضافة إليها أو الحذف منها (2).

أما النسق الإيجابي فيتيح للمستخدمين أن يعدلوا ، ويحذفوا زمرا نصية ، وأن يعدلوا كذلك الوصلات بين هذه الزمر النصية ، ولكن كل ذلك مقيد بقيود وقواعد للتصرف بالنصوص ، وهذا النسق يمكن أن ينقل عملية تأليف النصوص نقلة نوعية من التأليف الفردي إلى التأليف الجماعي ، كما له درجات أكثر تعقيدا كفيلا بإعطاء القراء فرصا ممتازة لإغناء النصوص ، بحيث تخرج جماعية النص من نطاق مجموعة من المؤلفين إلى نطاق مجموعات المؤلفين ومجموعات القراء المهتمين (3).

خاتمة :

إذا فالنص الورقي بنيات وعلاقات ، أما النص الرقمي فهو عقد وروابط ، وأن مثل هذا النص عند طباعته يفقد خواصه الأساسية وهي الانتقال الحر بين أجزائه المختلفة كما أنه سيفقد الصوت والحركة للصورة المتحركة ، فمن الواضح أن مثل هذا النص مبتعد تماما عن الطباعة ولا يمكن قراءته أو التعامل معه إلا من خلال الشاشة الزرقاء ومن خلال تكنولوجيا الكتابة والنشر الإلكترونيين ، فالنص المترابط هو كل نص ينشر نشرا إلكترونيا سواء كان على شبكة الإنترنت ، أو على أقراص مدمجة ، أو في كتاب إلكتروني ، أو على البريد الإلكتروني ، أو غيره ، يجسّد الاختيار الحر للمستخدم أو القارئ عبر روابط يتجول ويبحر من خلالها في غيابات النص ، من خلال ما توفره التكنولوجيا الحديثة ، التي هي في تسارع مستمر .

(1) نفسه ، ص 144 .

(2) حسام الخطيب ، الأدب والتكنولوجيا ، ص 90 .

(3) نفسه ، ص 90 .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً : قائمة المصادر :

القرآن الكريم .

ثانياً : قائمة المراجع :

الكتب :

- 1 - بكري شيخ أمين ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (البديع) ، دار العلم للملايين ، ط7 ، بيروت ، 2003 .
- 2 - رسام الخطيب ، أفق الإبداع ومرجعياته في عصر المعلوماتية ، دار الفكر ، بيروت 2001 .
- 3 - حنا جريس ، الهيبرتكست (عصر الكلمة الإلكترونية) ، كتاب العربي : 55 (مستقبل الثورة الرقمية ، العرب والتحدي القادم) مجلة العربي ، الكويت ، (2004/01/15).
- 4 - سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، المركز الثقافي العربي ، لبنان / المغرب ، 2008 م .
- 5 - سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / بيروت ، 2005 .
- 6 - سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط ، مجلة عالم الفكر ، الكويت (نوفمبر - ديسمبر) ، 2003 .
- 7 - فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، المركز الثقافي العربي / بيروت - الدار البيضاء ، 2006 .
- 8 - محمد الماكري ، الشكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي) ، المركز الثقافي العربي ، بيروت / الدار البيضاء ، 1991 .
- 9 - محمد مفتاح ، النص من القراءة إلى التطوير ، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء ، 2000 .
- 10 - نبيل علي ، العرب وعصر المعلومات (سلسلة كتب ثقافية العدد 184 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - 1994 .

الجرائد والمجلات :

- 1- سوسن مروة ، نقد الواقعية الرقمية ، صحيفة الحوار المتمدن ، العدد : 1554 ، 18 / 5 / 2006 ،
http : //www . ahewar . org/debat/show . art . asp?aid =65070 .
- 2 - ناريمان إسماعيل متولي ، تكنولوجيا النص التكويني (الهيبرتكست) وتنمية الابتكار لدى الطلاب والباحثين مجلة كلية التربية ، جامعة الإمارات ، 1996 .

المعاجم والموسوعات :

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ، ج 12 ، دار المعارف ، القاهرة .
- 2 - موسوعة مايكروسوفت إنكارتا http : /encartaupdate . msn . com/teleport/teleport . asp?Lang F&Year 2009&name weblinks&ty chk&ud 741544235&ca 1024&vs =2009 .

المواقع الإلكترونية :

- 1 - محمد أسليم ، ttp : //www . aslim . org

نظرية الانعكاس في الأدب

نصيرة الوئاس *

الملخص:

لقد تعددت زوايا النظر إلى النص الأدبي في النقد الحديث والتي تلخصت في أربع زوايا : زاوية الفرد، زاوية المجتمع ، زاوية النص ، وزاوية القراءة . وما يعيننا في بحثنا الموسوم نظرية الانعكاس في الأدب هو تخصيص الكلام عن زاوية النظر الثانية؛ أي زاوية المجتمع التي نشأت عنها نظرية الانعكاس ، القائمة على أساس أن العمل الأدبي ليس وليد عوامل فردية، وإنما وليد عوامل اجتماعية ، وهو صورة لهذه العوامل على نحو أو آخر على الرغم من أن وراء كل عمل فني فرد إلا أنه يستمد مادته من مصدر اجتماعي. لقد أنتجت لنا هذه الزاوية عددا من الدراسات النقدية و ضمن هذه الدراسات نجد مجموعة من المناهج تحاول بحث النص على أنه واقعة اجتماعية ، وإذا حاولنا تصنيف كل ما أنتج في هذا الإطار نجدها تدخل ضمن اتجاه عام نسميه بالاتجاه الاجتماعي الذي يركز على علم الاجتماع والفلسفة الماركسية.

إذا كان الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي الذي أنتجه ، وإذا كانت صورة الأدب تتغير بتغير صورة المجتمع، فإن الرؤية الاجتماعية للأدب تفرض تغييرا في المفاهيم الأدبية كمفهوم الإبداع الأدبي الذي غدا فعالية اجتماعية، والأديب باعتباره كائن طبقي أو مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، والقارئ الذي يظهر دوره في تشكيل الأعمال الأدبية وتوجيهها ، أما عن وظيفة الأدب فهي اجتماعية صرفة؛ إذ تدفع بالقارئ إلى إدراك واقعه والمساهمة في تغييره مما يطرح مسألة الالتزام. لقد تطورت الأبحاث في مجال الاتجاه الاجتماعي أي في مجال نظرية الانعكاس ليظهر النقد السوسولوجي ، كما ظهرت البنيوية التكوينية

Abstract :

The visions of literary text differ according to modern criticism, we can divide them into : the individual vision, i.e., the social vision, the textual vision and the reading vision. In this paper, we will deal with the second vision. The social vision one which has yielded the theory of reflexivity based on the rule that the

* كلية الأدب واللغات ، جامعة أكلي محند أو لحاح - بالبويرة -

literary work is not a result of personal factors but it is the result of personal factors but it is the result of social factors.

This vision has yielded some surveys in criticism including several methods attempting to study the text as a social fact, If we try to classify what has been produced, this vision complies with a general orientation known as the social orientation which, itself, is based on sociology and marxist philosophy.

If literature reflects the social situation that has produced it, and if that social vision of literature imposes a change in literary concepts such as : the concept of literary creativity, the writer, the reader and the function of literature.

Research have made progress in social orientation, i.e, in the vision of reflexivity.

مقدمة :

لقد تعددت زوايا النظر إلى النص الأدبي في النقد الحديث والتي تلخصت في : زاوية الفرد ، المجتمع ، النص ، وزاوية القراءة ، غير أننا سنخصص حديثنا عن زاوية النظر الثانية التي نشأت عنها نظرية الانعكاس القائمة على أساس أن العمل الأدبي وليد عوامل اجتماعية. وقد أنتجت لنا هذه الزاوية عددا من الدراسات النقدية ، التي نجد ضمنها مجموعة من المناهج حاولت البحث في النص على أنه واقعة اجتماعية. وإذا حاولنا تصنيف كل ما أنتج في هذا الإطار نجدها تدخل ضمن اتجاه عام نسميه بالاتجاه الاجتماعي الذي يركز على علم الاجتماع والفلسفة الماركسية .

إن تحليل الأثر الأدبي بخصائصه المعقدة على أنه انعكاس للواقع الاجتماعي بنياته المختلفة يطرح جملة من الإشكاليات حول طبيعة هذه العلاقة بين الأدب والمجتمع وحدود التأثير. وسنحاول من خلال هذه الدراسة تحديد طبيعة تلك العلاقة الرابطة بين الأدب والمجتمع.

الإرهاصات الأولى للبعد الاجتماعي في الإنتاج الأدبي

هناك مقولة لطالما نجدها مرادة عن طبيعة الإنسان فقد قيل إنه اجتماعي بطبعه ، وإنه ابن بيئته وانعكاس لتفاعلاتها المختلفة ، إن النظر إلى العمل الأدبي على أنه يعكس الواقع الاجتماعي ليس حديثا ولكنه قديم يعود إلى عهد أفلاطون وأرسطو وإلى العصور التاريخية القديمة. ولكن هؤلاء حاولوا تبرير وجود الأدب وليس دراسة انعكاس الواقع في الأدب .

وقد نظرت العرب إلى الشعر على أنه ديوان العرب ، ولا شك أن الإسلام كان له موقف صارم من الشعر والشعراء نظرا لإدراكه للبعد الاجتماعي للشعر ومكانته ، وإذا تفحصنا الكتب الأدبية والنقدية القديمة فإنها لا تخلو من إشارات

جمّة تربط بين الشاعر وقبيلته. ومن المحاولات المتقدمة التي سعت للربط بين الأدب والواقع الاجتماعي محاولات المفكر الإيطالي جيامبا تيسا فيكو (1669 - 1744) في كتابه «مبادئ العلم الجديد» إنه ربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي ، وعليه فقد ربط ملاحم هو ميروس بالمجتمعات العشائرية ، وقال بأنّ الدراما نشأت مع ظهور المدينة ، أما الرواية فقد ظهرت مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم⁽¹⁾ ، معتدّاً في ذلك بعنصر الزمن.

لطالما وعى النقاد ضرورة البعد الاجتماعي للأدب ومنحوه قيمة في تحليلاتهم النقدية ، غير أنّهم لم يصلوا إلى بلورة نظرية نقدية متكاملة إلا في القرن 19 على يد مجموعة من النقاد . فقد ولد هذا الاتجاه على يد مدام دوستال Destoél وبلغ تطورا منهجيا ملحوظا على يد هيوليت تين Taine - A - H ثم على يد النقاد الماركسيين ، حيث ظهرت في فرنسا مدرستان نقديتان متميزتان تزعم الأولى مدام دوستال وتين وهي تنظر إلى الأدب في علاقته بالمحيط الاجتماعي ، وتزعم الثانية سانت بييف Sainte Beuve وهي تنظر إلى الأدب في علاقته بمننتجه.

I. أسس الاتجاه الاجتماعي في الدراسات الأدبية

1. مدام دوستال والاتجاه الاجتماعي (1766. 1817) : عادة ما يبدأ التأريخ لهذا الاتجاه بكتاب أصلرته عام 1800 بعنوان «الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية» ، حيث أكدت من خلاله على : «أننا لا نستطيع فهم الأثر الأدبي وتذوقه تذوقا حقيقيا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه وظهوره»⁽²⁾.

لقد اهتمت الناقدة بالبحث عن مدى تأثير العادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير هذا الأخير فيها⁽³⁾ ، ثم راحت تكشف عن ذلك من خلال أمثلة ساقتها لفهم هذه الظاهرة من ناحية اجتماعية.

2- تين والاتجاه الاجتماعي (1828. 1893) : يظهر تفسيره الاجتماعي للأدب من خلال كتابه «تاريخ الأدب الإنجليزي» (1863) ، وقد شرح فيه الكاتب منهجه القائم على اعتبار أنّ الأدب حصيلة عوامل ثلاثة :

- الوسط Le Milieu : المقصود به كل ما يحيط بالأديب من ظروف اجتماعية وبيئية واقتصادية...

(1) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب ، دار الحداثة ، لبنان ، ط 1 ، 1986 . ص 16.

(2) إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، الأردن ، ط 1 ، 2003 . ص 67.

(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 166.

- الزمن أو العصر le temp : « ويعني به روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث ، وربما يعني به ما عبر عنه شاعر عربي قديم بقوله : لكل زمان دولة ورجال» (1) ، وبالتالي فالزمن هو هذا الامتداد التاريخي الذي يؤثر على تطور الأدب. وقد نظر إليه تين نظرة سكونية .

- العرق أو الجنس Race : إنه تلك « الخصائص القومية والمقصود بها تأثير المناخ والتربة والحوادث الجسم والذواغ الغريزية والعناصر الوراثية والنزاعات الدفينة والعادات العدائية والملامح الجسدية» (2).

والملاحظ على منهج تين أنه كان مقيداً من ناحيتين : أولاً من حيث النظرة السكونية للتاريخ الأدبي ، وثانياً من حيث جعل الكلاسيكية مثلاً تقاس عليه الفنون ، كما أنه أهمل أثر الجانب الفردي. وعلى الرغم مما قدمه إلا أن التطور الحقيقي في دراسة الأدب اجتماعياً كان مع ظهور الفلسفة الماركسية .

3 - الفلسفة الماركسية والاتجاه الاجتماعي : الماركسية نظرية في الاقتصاد السياسي وضعها (كارل ماركس Karl Marx) (1818 - 1883) بمشاركة (فريدريك أنجلز Engels - F) (1820 - 1905) في منتصف القرن 19 ، وقد اشتهرت بالشيوعية ، كما أسماها البعض بالفسير المادي للتاريخ (3) ، أما عن نشأة هذه النظرية فقد كانت بتأثير النضال الخاص بطبقة العمال (البروليتاريا).

نظرت الماركسية إلى التاريخ نظرة حركية وقد قامت أساساً لتفسير حركة التاريخ والتحويلات الاجتماعية ، في محاولة استنباط القوانين التي تتحكم فيها ، فكان أن خلصت إلى قاعدتين أساسيتين تتحكمان في حركة التاريخ هما : الصراع الطبقي والمادية الجدلية.

1 - قاعدة الصراع الطبقي : فهناك طبقة أولى تسعى لإبطاء حركة التاريخ للحفاظ على مصالحها ، وهناك طبقة ثانية تسعى لإسراع الحركة والقضاء على النظام الطبقي. ودراسة مجمل التناقضات والتحويلات التي تصاحب فترة ما تدفع لحركية التاريخ التي تسعى لها الماركسية.

2 - قاعدة المادية الجدلية : صنفت الماركسية ضمن الاتجاه الثاني المادي والتي ترى بأن المجتمع مشروط بوسائل إنتاجه ، مضافة بذلك عاملاً رابعاً إلى ثالوث تين وهو وسائل الإنتاج التي تفرض بنيات المجتمع.

(1) المرجع نفسه . ص 82.

(2) المرجع نفسه . ص 81.

(3) ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي المغربي ، ط 1 ، 2003 . ص 223.

إنّ المادية الجدلية تقوم على خلفية أساسها أنّ البناء الاقتصادي تحكمه مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، وفوق هذا البناء نجد البناء الفوقي الذي تحكمه علاقات فكرية ، وأي تغيير في المبني التحتي يتبعه تغيير في المبني الفوقي « فليس البناء العلوي أو الفوقي المكوّن من القانون والفنّ يتطور على نحو ذاتي بل إنّهُ مرتبط في تطوره بالناحية التاريخية للمجتمع التي تمتدّ منحنياته على حسب تطور البناء الاقتصادي»⁽¹⁾. وفي ضوء هذه النظرة فقد أعاد الماركسيون النظر في أمرين : طبيعة الأدب وغايته⁽²⁾.

بالنسبة لطبيعة الأدب « فالماركسية تؤمن بأوليّة المادة وأنّ هذا الوجود هو الذي يقرّر الشعور... إنّ الأساس الإبداعي لعمل الفنان يتلخّص في أنّ كلّ عمله انعكاس للعالم الذي يعيش فيه »⁽³⁾.

أما عن غاية الأدب عندهم فهي وثيقة الصّلة بموقف المبدع من قضية الصراع الطبقي ، فالفنّ ليس خاصا بالمبدع وحده وإنّما له تأثيره على المجتمع ، إذ يعمل على تدعيم نظام ما أو الإطاحة به ، مما يحولّه إلى « سلاح يستغلّ في الصراع بين الطبقات ، ولا بدّ من ضرورة استخدامه»⁽⁴⁾.

II. الأسس الفكرية والمعرفية لنظرية الانعكاس

1. مفهوم الانعكاس : كان ظهور المصطلح في عام 1845م في كتابات كارل ماركس المتعلقة بتحليل الصّلة بين الأدب والمجتمع على ضوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية⁽⁵⁾. وبالتالي فمفهوم الانعكاس قد أخذ تحديده العلمي من خلال النظرية الماركسية ، ولاسيما بعد الدّراسة التي أقامها لينين حول تولستوي في مقالته « تولستوي مرآة الثورة الروسية » أين وظف كلمة الانعكاس ، فتولستوي في نظر لينين « يترجم يعكس يعرّي ويعبّر عن الواقع الاجتماعي للمرحلة التي تمتدّ ما بين 1861-1905...»⁽⁶⁾ ، ويرى لينين بأنّ التناقضات في وجهات نظر تولستوي ليست تناقضات في فكره الشخصي وحده « وإنّما هي انعكاس للظروف والتأثيرات الاجتماعية والتقاليد التاريخية المعقدة»⁽⁷⁾.

(1) رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، د ط ، د ت . ص 131.

(2) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، د ط ، 2004 . ص 28.

(3) رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق . ص 137.

(4) المرجع نفسه . ص 134.

(5) سمير حجازي معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة - دار الراتب الجامعية ، لبنان ص 115.

(6) محمد ولد بوعليّة ، النقد الغربي والنقد العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط 1 ، 2002 . ص 89.

(7) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي ، دراسة في نقد النقد ، عبد المنعم ناشرون ، حلب ، ط 1 ، 1999 . ص 112.

إنّ المتأمل في هذا القول يرى أنّ مفهوم الانعكاس عنده يحمل بعداً إيديولوجياً كونه ربط الانعكاس بتصوير العلاقات المعبرة عن صراعات المجتمع ، وارتباطها بالظروف التاريخية(1). وظلّ مفهومه كذلك حتى ظهرت آراء لوسيان غولدمان التي اعتبرت العمل الأدبي تعبيراً عن الكاتب والجماعة والعصر.

لقد أدت هذه النظرية إلى ظهور تفسيرات اجتماعية للأدب اتخذت من الأحوال الاقتصادية والاجتماعية منطلقاً لها ، مجاوزة بذلك التفسيرات النقدية التي سادت قبلها مثل فكرة الإلهام الشخصي ، وأنّ الأدب تعبير عن الرغبات المكبوتة وعن الأحلام واللاشعور.

2. الأسس المعرفية لنظرية الانعكاس : خلافاً للنظريات الأدبية التي سبقتها (المحاكاة والتعبير والخلق) فإنّ نظرية الانعكاس استندت في تفسيرها للأدب إلى الفلسفة المادية الجدلية ، ولكن دون أن تغفل أنّها تقوم كذلك على علم الاجتماع الأدبي أو Sociologie de la littérature .

إنّ دراسة العمل الأدبي بوصفه ظاهرة اجتماعية هي دراسة لها فعاليتها في فهم النصّ الأدبي وكشف بعض الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، مما يسهل على الدارسين فهم الكثير من الأعمال الأدبية ، ومن جهة أخرى فإنّ هذه الدراسات ستفيد علماء الاجتماع في تأكيد نظرياتهم ، لقد أثر علم الاجتماع الأدبي في الحركة الأدبية والنقدية بحيث ظهرت عدّة فروع له مثل : علم اجتماع النص ، وعلم اجتماع القراءة ، وعلم اجتماع الأجناس الأدبية ، وعلم اجتماع الرواية(2). ضف إلى ذلك أنه قد ساهم في بعث مجموعة من الدراسات التي تبحث عن الظاهرة الأدبية إبداعاً وطبيعة ووظيفة وعن العوامل المؤثرة في تطوّر الأدب ، وفي ظهور أنواع أدبية جديدة إثر التقدّم الصناعي والتكنولوجي وغيرها... (3).

فنظرية الانعكاس تقوم على علم الاجتماع وعلى الفلسفة المادية ، ولعلّ هذا ما جعلها تنتهج منهجاً يقوم على الوصف والتأمل والاستقراء ودراسة تاريخ الفنون ، كما حاولت تفسير الظاهرة الأدبية وتعليلها باعتبارها جزءاً من الظاهرة الثقافية عامة دون إهمال خصوصياتها واستقلاليتها النسبية عن باقي فروع المعرفة(4).

3. مستويات الانعكاس : لقد اتخذ مفهوم الانعكاس في الدراسات النقدية

(1) سمير حجازي ، معجم المصطلحات . ص 115.

(2) المرجع نفسه . ص 180.

(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 164.

(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 85.

مستويات مختلفة أهمها :

- المستوى الجدلي : يرتبط مفهوم الانعكاس في هذا النمط بمفهوم النموذج Modèl ويعتمد على الفلسفة الماركسية في تحليلاته الأدبية(1).

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العلاقة بين الأدب والواقع علاقة جدلية ، ولتوضيح مفهوم الانعكاس فإنهم ربطوه بعلاقة النموذج بالواقع. بالنسبة لدلالة الواقع عند الباحثين فهي مختلفة ، إذ هناك تعدد لا محدود لأشكال الواقع ، ففيشر مثلا حدّد مفهوم الواقع على أنه « مجمل العلاقات بين الذات والموضوع »(2) وتميّز مفهومه ذلك بإدخاله رؤية الأديب في تحديد مفهوم الواقع.

أما بالنسبة لمفهوم النموذج فهو مجموع الصفات التي تشكّل جوهر الموضوع(3) ، كما قد يرتبط بمحاولة التثبيت من صحّة تصوّرات الكاتب تجاه واقعه والمجسّدة في أعماله الأدبية ، لأنّ المرجعية في تقييمها تكون بمقارنتها بالواقع الاجتماعي. فالكاتب يقوم بتصوير الواقع في أعماله محاولة منه لتجسيده نموذجيا عبر تجربته الذاتية مما يجعل مفهوم الانعكاس ينحصر فيما هو جوهري في المجتمع ؛ والجوهري يعني تصوير الإنسان في لحظة من لحظات تطوّره ونزوعه نحو مزيد من التحرّر وتأسيس واقع أفضل(4).

- المستوى الآلي : « يرتكز على مفهوم النموذج عبر مماثلته للشخصية الاجتماعية أو الموضوع المعكوس »(5) ، أي أنّ هناك تماثلا للنموذج مع الرؤية الإيديولوجية للكاتب. فالآلية هي تصوير مباشر للعالم الواقعي وخاصة فيما يتعلق بتصوير الشخصيات النموذجية في الآثار الفنية أين « يتماثل النموذج مع رؤية الكاتب الإيديولوجية لتغيب العلاقة الموضوعية بين الاجتماعي والأدبي ، ولاسيما حين تشرع رؤية الناقد بتشكيل هذه العلاقة عبر مفهوم الانعكاس »(6).

وعليه فإنّ آلية الانعكاس لا تكون إلا من خلال مفهوم النموذج الذي يتوافق مع بنية عملية الأصل بتعبير « ريديكر » الذي يقول : « والطابع المميّز لانعكاس العملية المنمذج هو أنّ ما له أهمية هنا ليس التوافق الحسّي المادي أو

(1) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النص الأدبي الاجتماعي . ص 110.

(2) المرجع نفسه . ص 116 ، 117.

(3) المرجع نفسه . ص 118.

(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 92.

(5) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي . ص 114.

(6) المرجع نفسه . ص 115.

التشابه...ولكن ما له أهمية هنا كون بنية عملية الأصل تتكرر في النموذج»(1).

- المستوى الإنشائي: إن مفهوم الانعكاس في هذا المستوى يتجلى في عكس حياة فئة أو طبقة معينة من المجتمع بعيدا عن رصد علاقات الطبقات فيما بينها والتي يغذيها الصراع الاجتماعي، إن المجتمع من منظور الفلسفة الماركسية هو وحدة غير متجانسة تسوده ثقافتان، ثقافة الطبقة المسيطرة وثقافة الطبقة المسيطر عليها. والأدب طبعا خاضع لتلك الطبقة، هذا ما جعل الانعكاس على مستويات. ورأينا كيف أنه حدث هناك اختلاف حول مفهوم الشخصية الروائية ومدى مطابقتها للشخصية الاجتماعية مما جعلها تفقد قدرتها على الإقناع باعتبارها تمثل أبطالاً تنافس أبطال الواقع الحقيقي ولذلك نزعنا الرواية الجديدة إلى إهمال هذا الاتفاق وتهميش الشخصية الحية في العالم الروائي(2).

III- بعض مبادئها الفنية والأدبية :

إن الرؤية الاجتماعية للأدب تفرض تغييراً في المفاهيم الأدبية.

الإبداع الأدبي: إن الإبداع الأدبي «فعالية اجتماعية وإن بدا فرديا للوهلة الأولى»(3)، ويمكننا أن نلمس ذلك على مستوى الشكل والمضمون معا. فاللغة في هذا النوع من الطرح تعتبر «ظاهرة اجتماعية»؛ ومعنى ذلك «أن الأديب أيا كان عضواً في جماعة هذه الجماعة..هي خالقة اللغة والمفردات والرموز لذلك لا يمكن أن يتأتى له أن يبني شكلاً أدبياً (لغويًا) خارجاً عن جماعته»(4)، وفي إطار ذلك يرى وليك ووارين أن «الأدب مؤسسة اجتماعية أداته اللغة، وهي من خلق المجتمع»(5)، هذا شكلاً أما مضموناً فإن العمل الأدبي لا يخرج عن حدود تأثر الأديب بالمحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه ويستقي منه أفكاره (مصدره الأول).

تري نظرية الانعكاس أن ظهور الأنواع الأدبية أو انقراضها «مرتبطة بحاجات جمالية اجتماعية، أي أن النظام الاجتماعي هو الذي يفرض ظهور أنواع أدبية ملائمة لدرجة تطوره»(6)، وبالتالي فكل فترة تاريخية واجتماعية مميزة تخلق إنتاجاً أدبياً خاصاً بها.

(1) المرجع نفسه . ص 112 ، 113.

(2) خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي . ص 119 ، 120.

(3) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 90.

(4) المرجع نفسه . ص 91.

(5) رونييه وليك ، أوستن وارين ، نظرية الأدب ، تر : محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د ط ، 1987 . ص 97.

(6) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 102.

أما عن تطوّر أو تراجع حركة الإبداع الأدبي فهي ناتجة عن تطوّر حركة الصراع أو تراجعها داخل المجتمع. يرى أعلام النظرية أنّ للأدب قوانينه الخاصة والعامّة باعتباره جزءاً من الثقافة العامّة ، وهذا معناه أنّ الأعمال الأدبية الحديثة أكثر تطوّراً من الأعمال القديمة لكنها ليست أكثر فنية منها(1).

- الأديب : «الأديب عضو في جماعة ، إنّه كائن طبقي أو مجموعة من العلاقات الاجتماعية»(2) ، يستمد مادته من مصدر اجتماعي يتأثر به ويؤثر فيه ، ولا يعني ذلك أن يكون مرآة تعكس حياة المجتمع وإنّما يعكس فهمه هو على هذا المجتمع. وعليه فالمضمون الاجتماعي للعمل الأدبي وإن بدا مستمداً من واقع الحياة الاجتماعية إلا أنّه في حقيقته مستمد من الموقف الفكري للأديب من هذه الحياة(3) ، وكل ذلك يقود لحقيقة مفادها أنّ الأديب حين يكتب « فلكي يعبر عن علاقته بالواقع أو بالمجتمع أو بالعالم ، إنه يشعر أنّ هناك خللاً ما في تلك العلاقة ، وهذا ما يدفعه إلى تجسيد رؤية جديدة للمجتمع أو العالم متوسلاً شكلاً من أشكال الأدب»(4)، فالأديب وفقاً لنظرية الانعكاس «مجرّد ممثّل لما تسمّيه بالعقل الجمعي.. وصدى لهذا المجتمع وإنّه القائم بالتعبير عما يشعر به الناس وعمّا يعتمل في أحاسيسهم»(5).

- القارئ : لقد ظلّت صورة القارئ في مختلف النظريات الأدبية التي سبقت نظرية الانعكاس صورة سلبية باعتباره متلقياً ساذجاً للعمل الأدبي على خلاف نظرية الانعكاس التي تشرك القارئ في عملية الإبداع.

إنّ الأديب وهو يكتب ينبغي أن يراعي متلقي العمل الأدبي مما له صداه البالغ في كيفية تشكيله وصياغته. فقد يهدف إلى الارتقاء بذوق الجمهور ووعيهم الفني فيكتب بأسلوب مثير يدفعهم إلى مزيد من القراءة الواعية(6) أو «قد ينجح الكتاب في خلق جمهور خاص بهم»(7).

- وظيفة الأدب : لقد حدّدت نظرية الانعكاس الإبداع الأدبي على أنّه فعالية

(1) المرجع نفسه . ص 123 ، 124.

(2) المرجع نفسه . ص 89.

(3) داود غطاشة ، حسين راضي ، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها ، الدار العالمية الدّولية ودار الثقافة ، ط 1 ، 2000 . ص 98.

(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 90.

(5) رجاء عبد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق . ص 90.

(6) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 93 - 94.

(7) رونييه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب . ص 105.

اجتماعية « وهذا يعني أنّ الأدب تجربة إنسانية» (1) ، يسعى من خلالها الأديب كي ينقل تلك التجربة للقارئ ويجعله يشاركه إياها ، والمغزى من ذلك هو « خلق نوع من الاتساق الفكري والشعوري في الموقف الجماعي بطريقة غير مباشرة أي من خلال الرمز والإيماء» (2). وبالتالي فوظيفة الأدب هي « وظيفة اجتماعية أو فائدة لا يمكن أن تكون فردية صرفاً» (3).

- الالتزام: أي التزام الأديب بمعالجة قضايا المجتمع. فالأديب لا يكتب لذاته وإنما يكتب للجماعة بحيث يكون أدبه متكافلاً مع مصالحها. وهنا يصبح مفهوم الالتزام حسب د. شكري عزيز الماضي خارجاً عن إطاره الفني إذ يري أنّ أساس وعي الكاتب هو تصويره لما هو جوهري بعيداً عن السطحية « فكلما انغرس الأديب بتصوير العلاقات الاجتماعية من الداخل حقق لأدبه ارتقاءً وسمواً فنياً وبالمقابل فإنّ تصويره للهامش والسطحي أمر يهبط بالأدب والفن» (4).

من البديهي أن يعبر الكاتب عن واقعه الاجتماعي ، ولكن ليس من البديهي أن ينقل تفاصيل الواقع بحذافيره نقلاً كاملاً ، وإذا سلّمنا بذلك فهذا يوجب عليه أن يكون مطلعاً على أوضاع اجتماعية خاصّة.

لقد تناول ماركس المسألة إذ يرى أنّ الانعكاس ليس آلياً ، لأنّه قد يتأخّر وعي الإنسان لحاضره نتيجة للأفكار والتقاليد الموروثة (5) ، كما يقرّر بأنّه ليس هناك تلازم بين النهضة الفنية ومستوى الحياة الاجتماعية في العصر يقول : « أما فيما يخصّ الفنّ فمن المعلوم أنّ عصوراً معيّنة ليس لازدهار الفنّ فيها علاقة ما بالنمو العام للمجتمع ، وبالتالي لا علاقة لهذا الازدهار بالأساس المادي» (6). فماركس يضعنا أمام حقيقة جوهريّة مفادها أنّ تقدّم المجتمع يفرض تأخراً في الأشكال الفنية ، ضف إلى ذلك أنّ تواجد عدّة أدباء ينتمون إلى مجتمع وطبقة وعصر واحد لا يعني بالضرورة تماثلاً في إنتاجهم الأدبي ، ولكن دون أن ننفي وجود بعض السمات المشتركة ، وهذا الكلام مفاده أنّ «العلاقة بين الأدب والمجتمع ليست آلية ولا متوازية ، بل متداخلة ومعقدة» (7).

(1) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 94.

(2) المرجع نفسه . ص 94.

(3) رونيّه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب . ص 97.

(4) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 88.

(5) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث . ص 316.

(6) المرجع نفسه . ص 317.

(7) شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب . ص 92.

وبالإجمال نقول إنه على الكاتب أن يحسن وعيه وإدراكه لواقعه ، وأن يستجيب لدواعي الجماعة ، دون القول بوجوب تضمين الأعمال الأدبية كل قضايا المجتمع والعمل على تفسيرها ، والقول بخلاف ذلك تجاوز لحدود المتعة والجمال ، لأنّ للأديب حرّيته في اختيار موضوعاته وحرّيته في طريقة المعالجة الفنية.

خاتمة

وفي الختام وبناء على ما سبق من عرض تلك العناصر يمكن أن نستخلص جملة نتائج نحصرها في النقاط التالية :

- إنّ الأدب الاجتماعي ما هو إلا نوع من أنواع الأدب يعمل على محاكاة الواقع الاجتماعي غير أنّه من غير الممكن أن يحلّ محلّ علم الاجتماع لأنّ للأدب بنيته وشكله الخاصين به .

- لم تقتصر الفلسفة الماركسية على دراسة الصّلات بين الأدب والمجتمع ، وإنّما تجاوزت ذلك إلى تحديد ما ينبغي أن تكون عليه هذه الصّلات في مجتمع خال من مظاهر الصراع. وبالتالي فدراسة المضامين الاجتماعية في عمل أدبيّ ما لا تقوم على ما هي عليه في الواقع ، وإنّما فيما ينبغي أن تكون عليه.

- إنّ الاعتناء بالمحتوى الاجتماعي للعمل الأدبي أدّى إلى اتخاذه وسيلة لدعم الدراسات المتعلقة بالمجتمع.

- لقد أهملت نظرية الانعكاس في تحليلاتها الأدبية الجوانب الجمالية للعمل الأدبي ، وفي هذا تغاض عن أهمّ سمة فيه وهي عنصر الجمال.

- تميّزت النظرية بمفاهيم خاصة عن نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته ، وما يميّزها عن النظريات الأخرى أنّها لم تهتم بجانب واحد من جوانب الإبداع وإنّما تناولتها في كليتها.

- إذا كانت نظرية الانعكاس ترى أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي والظروف التاريخية ، فإنّ هناك إقراراً بأولوية الواقع و السيرورة التاريخية على الانعكاس ، لأنّ الواقع والتاريخ موجودان قبل أن نملك معرفتهما.

- لقد تطورت الأبحاث في مجال الاتجاه الاجتماعي أي في مجال نظرية الانعكاس ليظهر النقد السوسولوجي (Socio_Criticism) الذي يقوم على علم الاجتماع ، كما ظهرت البنيوية التكوينية (Genetic structuralisme) .

- إنّ تحليل العمل الأدبي وتفسيره من منظور نظرية الانعكاس بقدر ما يخدم نظرية الأدب في جوانب معينة كفهم بعض طروحات النص بقدر ما يكون

حاجزا في إنارة كل طروحاته وفي هذا تأكيد على أن دراسة العمل الأدبي من غير الممكن أن تعزى فيها الريادة إلى جانب واحد فقط.

قائمة المراجع :

- 1- إبراهيم محمود خليل ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، دار المسيرة ، الأردن ، ط12003.
- 2 - خالد أعرج ، في تأويل خطاب النقد الأدبي الاجتماعي ، دراسة في نقد النقد ، عبد المنعم ناشرون ، حلب ، ط1 ، 1999.
- 3 - داود غطاشة ، حسين راضي ، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها ، الدار العلمية الدولية ودار الثقافة ، دبي ، ط1 ، 2000.
- 4 - رجاء عيد ، فلسفة الالتزام بين النظرية والتطبيق ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، دط ، دت.
- 5 - رنيه وليك ، أوستين وارين ، نظرية الأدب ، تر : محي الدين صبحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، دب ، دط ، 1987.
- 6 - سمير حجازي ، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة ، دار راتب الجامعية ، لبنان ، دط ، دت.
- 7 - شكري عزيز الماضي ، في نظرية الأدب ، دار الحدائق ، لبنان ، ط1 ، 1986.
- 8 - محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر ، دط ، 2004.
- 9 - محمد ولد بوعليبة ، النقد الغربي والنقد العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط1 ، 2002.
- 10 - ميجان الرويلي ، سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط3 ، 2002.

المسرح الجزائري وإشكالية النص / طروحات ما بعد الاستقلال .

جبارة إسماعيل*

الملخص :

بعد أن استرجعت الجزائر استقلالها ، رأت الحكومة الجزائرية أنه من اللازم إعطاء أهمية بالغة للثقافة الوطنية عموماً ، والمسرح على وجه الخصوص، وهذا نظراً لدور الفعّال الذي تؤديه في توعية الجماهير، لذلك نجد أن المسرح الجزائري (Théâtre Algérien) بعد الاستقلال ، قد وقف إلى جانب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفتها البلاد ، و كان الطابع المميز له ، هو الطابع الشعبي ، فهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجماهير الشعبية ، وكان نابغاً أساساً من طبيعة المسرح الذي يعبر عن روح العصر، الذي يتطور بتطور الثقافات المختلفة. والمسرح الجزائري لفترة الاستقلال عبارة عن عروض مسرحية ، كانت تقدم في قاعة المسرح الوطني الجزائري ، وكان أعضاء الفرقة من الممثلين ، هم الذين يضطلعون بمهمة العرض.

رغم تأثر المسرح الجزائري بالمسرح العالمي ، كما هو واضح في مصادره، إلا أن هذا لم يفقده خصوصياته في التعبير بأساليب وأشكال مستوحاة من الواقع ، لأن المقتبس قام بإعادة النظر في النص الأصلي المقتبس ، ليجعل منه نصاً جزائرياً على مستوى الأحداث والشخصيات والمحافظة على البناء الفني ، وذلك بنقل الوسط الذي تدور فيه أحداث المسرحية المقتبسة إلى وسط محلي.

الإشكالية : ونظراً لقلّة النص المسرحي المحلي فقد اضطر الفنانون إلى الاقتباس والترجمة ، لتغطية العجز المطروح على الساحة المسرحية . فما طبيعة المسرح الجزائري لفترة ما بعد الاستقلال يا ترى ؟ وما هي أهم طروحاته ؟ وما هي أبرز الصعوبات والعقبات التي اعترضت نشاط الحركة المسرحية ؟ وهل استطاع المخرج المسرحي من خلال النص المترجم أو المقتبس أن يسد الثغرة التي عرفها المسرح الجزائري زمن ما بعد زوال الاستعمار ؟

* كلية الأدب واللغات ، جامعة آكلي محند أو لحاج - بالبويرة . somail3@ yahoo.fr

الكلمات المفتاحية : الثقافة الوطنية ، المسرح ، الجماهير، المسرح الجزائري ما بعد الاستقلال ، العروض المسرحية ، أعضاء الفرقة والممثلين ، الترجمة والاقتباس ، المخرج المسرحي ، المسرح الجزائري.

Abstract :

After the independence of Algeria, the government has given a great importance to the culture, in general, and to the theater, in particular, for its primordial role for the sensitization of people. This is the reason why after the independence, the Algerian theater was at the same level of cultural, economic and political transformation known by the country. Its specific trait was the popular dimension which is closely linked with the population which came from the nature of theater that reveals its era, and pursues the development of different cultures. The Algerian theater of the independence was a theatrical representation within the Algerian theater, and the members of the theatrical groups dealt with these representations.

Although inspired by the international theater, the Algerian theater, as reflected in its sources, has not lost its specificities in the methods of expression and forms inspired by the real, to achieve an Algerian text at the level of events, persons, and preserve its artistic structure, and this by transferring the environment in which events unfold of the original part to an environment typically Algerian.

The Issue:

Due to the lack of domestic theatrical text artists were forced to quote and translation to cover the shortfall before the theatrical arena, what the nature of the Algerian theater after the independence? What are the major arguments? Could the theater director managed through the translated text and quoted to bridge the gap defined by the theater post , colonial Algerian?

Key words: The Algerian text , independence culture , theatrical representation, primordial role , Algerian theater , forms , artistic structure , typically Algerian.

مقدمة :

لقد ارتبط المسرح الجزائري منذ نشأته بمسيرة المجتمع الجزائري وبالقضايا الأساسية للجماهير ، وتم توظيفه كسلاح لمحاربة مظاهر الفساد الاجتماعي ، أما أثناء الثورة المسلحة فتحول إلى سلاح قوي في يد جبهة التحرير الوطني ، سيما بعد تشكيل الفرقة الفنية.

وبعد الاستقلال سلكت الحركة المسرحية في الجزائر مسلكاً آخر ، وحددت أهدافاً جديدة ، وتناولت قضايا اجتماعية في موضوعات ملتصقة بالمجتمع أفراداً وجماعات. فما هي طبيعة هذه الحركة يا ترى؟.

طبيعة المسرح الجزائري / طروحات ما بعد الاستقلال؛

رغم تأثر المسرح الجزائري بالمسرح العالمي ، كما هو واضح في مصادره ، إلا أن هذا لم يفقده خصوصياته في التعبير بأساليب وأشكال مستوحاة من الواقع ، لأن المقتبس قام بإعادة النظر في النص الأصلي المقتبس ، ليجعل منه نصاً جزائرياً على مستوى الأحداث والشخصيات والمحافظة على البناء الفني ، وذلك بنقل الوسط الذي تلور فيه أحداث المسرحية المقتبسة إلى وسط محلي ، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى المسرحيات التالية : (الممثل رغم أنه ، سلاك الواحلي ، سي قدور المشحاح ، ديوان القراقوز) ففي هذه المسرحيات لم يكتف المقتبسون بترجمة الحوار بل ذهبوا في غالب الأحيان إلى تغيير عناوين المسرحيات ، مثل مسرحية «البخيل» التي تم تغيير عنوانها إلى عنوان جديد وهو «سي قدور المشحاح».

ويذكر المخرج علال المحب عند عرضه مسرحية «سي قدور المشحاح» ، «أنه تم اقتباس مسرحية كوميديا تجري أحداثها في القرن السابع عشر ، بحذف بعض المشاهد وتعويضها بمشاهد أخرى ، وحذف المواقف التي لا علاقة لها بتقاليدنا وعاداتنا ، وكان الهدف ترجمة مسرحية موليير حسب قيمنا ومشاعرنا التي تتناسب في الواقع مع القيم التي عبر عنها موليير ، قيم ذات منحى إنساني ، ذلك أن ظاهرة البخل مثلا لا تقتصر على مجتمع دون آخر ، فهي موجودة في كل مكان وزمان ، فقط تختلف طريقة معالجتها حسب ما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية»⁽¹⁾.

كما قام ولد عبد الرحمان كاكي باستلهام مسرحية «ديوان القراقوز» ، والتي يقول عنها : «لقد خلقت ديوان القراقوز ، أي أن المسرحية ليست مترجمة ولكنها مستوحاة من مسرحية الطائر الأخضر ، لأنني عمدت إلى تحويل الشخصيات ، إلى الواقع الذي له علاقة بالمجتمع الجزائري»⁽²⁾ ، فقد عمل كاكي على نقل الهيكل والشكل الخارجي للمسرحية ، وأعاد صياغته وضمّنه موضوعاً جزائرياً بصورة فيه بعض المظاهر السلبية في المجتمع ، مجسدة في فقدان بعض الفئات للقيم الأخلاقية ، وسعيها الدائم إلى تحقيق مصالحها الشخصية.

(1) مخلوف بوكروح : المسرح والجمهور دراسة في سوسيولوجية المسرح الجزائري ومصادره. ص17

(2) صالح لمباركية : المسرح في الجزائر (01) النشأة والرواد ص106

وقد تم تغيير أسماء الشخصيات الأجنبية واستبدالها بأسماء شخصيات جزائرية ، حتى تسقط الغرابة التي تحملها تلك الشخصيات التي لا تتناسب مع الواقع الجزائري « فالمقتبس يعطي لنفسه حرية كاملة في التصرف في النص الأصلي كيفما يشاء ، ودون قاعدة محددة ، فيدخل عليه التعديلات المختلفة في الزمان والمكان ، ويحذف من المشاهد ومن الشخصيات ومن الحوار ما يشاء ، ويضيف إليه ما يشاء ، بحجة أن يصبح النص ملائماً للبيئة الاجتماعية والثقافية الجديدة المنقول إليها» (1).

ومما يلاحظ أن إنتاج المسرح الجزائري خلال فترة الاستقلال تميز بخصيتين أساسيتين : الأولى تتمثل في الطابع الكوميدي ، والثانية في اللغة الدارجة ، وقد يكون هذا راجع إلى العلاقة بين الكوميديا والواقعية ، لأن الكوميديا تدور في مجال اجتماعي واقعي ، فهي تعالج قضايا الأشخاص وعاداتهم التي تتفق مع تقاليد المجتمع وتتعارض معها ، بحيث كان المسرح جزءاً من فاعلية اجتماعية سياسية ، أراد الفنانون المسرحيون من خلالها أن يجعلوا المشاهد يتعرف على أي فنان التزم بقضايا شعبه.

وقد سجلت في هذه المرحلة من مسار المسرح الوطني الجزائري ، أسماء العديد من رجاله « كمحي الدين باش طارزي» * « ومصطفى كاتب» ** ، و« ولد عبد الرحمان كاكي» *** « ورويشد» وغيرهم كثير ، من الذين يعود إليهم الفضل في إثراء الساحة المسرحية بأعمالهم وأدوارهم ومسرحياتهم ، التي كانت تحمل الكثير من الرسائل والقيم والمبادئ لغرسها في ذهنية المجتمع الجزائري.

كما برز مجموعة من المخرجين المسرحيين الذين اهتموا بإخراج المسرحيات التي تتماشى مع الواقع الاجتماعي لتلك الفترة ، ومن أشهر المخرجين الذين عرفتهم الساحة المسرحية الجزائرية في تلك الفترة ، نذكر : « مصطفى كاتب» ، « ولد عبد الرحمان كاكي» ، « وعبد القادر علولة» **** . وكانت مهمة الإخراج يقوم

(1) أحمد منور : الاقتباس وطرقه في تجربة أحمد رضا حوحو، محاضرة بمناسبة المسرح المحترف في الجزائر 2006

* باش طارزي مسرحي جزائري ولد بالجزائر العاصمة 1897 وتوفي 1986، ينظر صالح لمباركية المسرح في الجزائر (1) ص 65.

** مصطفى كاتب مسرحي جزائري ولد بسوق هراس سنة 1921 وتوفي 1989، ينظر أحمد بيوض المسرح الجزائري (1989/1926) /ص 178 .

*** ولد عبد الرحمان كاكي مسرحي جزائري ولد سنة 1932 بالغرب الجزائري توفي سنة 1995، ينظر أحمد بيوض المسرح الجزائري ص 185.

**** عبد القادر علولة مسرحي جزائري ولد سنة 1939 اغتيل سنة 1994 ، أحمد بيوض المسرح الجزائري 185.

بها منظم العملية المسرحية ، فهو الذي يؤمن القاعدة المادية للفرقة ، ويقوم بدور المؤلف ، بل والممثل أحياناً أخرى ، وإذا كان هدف الإخراج أن يكشف النص في تمام فضائله ويؤمن الإتقان الفني للمشهد ، « فإن المخرج الموهوب سيحاول أيضاً - وليس هذا أقل شواغله - إعطاء الممثل كل ما هو قادر عليه ، وأحياناً يكشفه لنفسه ، ويجب أن يشعر ، بواسطة نوع من الفطنة ، بوسائل مزاج خاص غير مستعملة ، أو مستعملة بشكل سيء» (1).

فقد حاول بعض المخرجين الجزائريين أن يجعلوا من الممثلين يندمجون مع الصالة عن طريق المخاطبة المباشرة ، بحيث شرعوا في تأسيس للجمهور رؤية (vision) أكثر اقتراباً من الذي يقدم ، ولاسيما أن العرض الذي يعتمد على بنية (Structure) اللوحات المتداخلة يعطينا تصوراً أكثر اقتراباً من حاجات الجمهور.

فالممثل « رويشد » - مثلاً - كان يقوم بأدواره الفنية أثناء التمثيل حيث كان يجري حواراً مع الجمهور ، كما فعل في عرض البخيل ، « فقد حاز على نجاح كبير في هذه المسرحية التي أعدها المسرح الجزائري ، ولعب فيها دور سي قدور (غاريباغون) ، وقد أثرت الصورة البسيكولوجية الدقيقة لهذه الشخصية ، التقزز والعطف عند الجمهور ، كما أن الانتقال الطبيعي من التساط الذي يصل لحد الفرويتسك إلى الهدوء والسكينة ، في مشهد الصندوق والتقنية التمثالية الرائعة ، كل هذا خلق شخصية حقيقية صادقة ، وإحساساً بالعمق اللامتناهي لشخصية موليير النموذجية» (2).

فقد غير (رويشد) صيغة الحوار القديمة القائمة على سؤال وجواب بين شخصين ، يقفان على خشبة المسرح ، وتحول الحوار بين ممثلين وجمهور عبر تبني الممثل لشريحة اجتماعية ، بوصفه شخصية نموذجية ، تتقدم بأطروحتها أمام الجمهور ، وبذلك صبغ العرض بصبغة فنية جديدة. وفي هذا الشأن يقول رويشد : « لقد تأثر الجمهور للمنظر وحزن في إحدى المدن لمشهد تعذيبي في المسرحية... ونفس الحدث التعذيبي في سكيكدة أضحك الجمهور ... فتبين لي أن أطور علاقتي بالجمهور أثناء العرض ، وهو الشيء الذي لم أفكر فيه مطلقاً من قبل» (3).

والمحصلة الكبيرة لمفهوم العرض المسرحي في الجزائر بعد الاستقلال ، تجسدت في الإخراج حيث أصبح المخرج قادراً على صياغة رؤية شعبية للنص اللغوي ، خاصة عندما يتحول النص إلى حركة ، ولقد كان للمخرج يد طويلة في

(1) فليب ، فان تبيغيم : تقنية المسرح ترجمة بهيج شعبان بيروت ط3/1985. ص49.

(2) تمار الكساندرفونا : ترجمة توفيق المؤذن ألف عام وعام على المسرح العربي ، بيروت. 1990 ص255

(3) المرجع نفسه ص 259.

جميع العمليات ، التي تؤدي إلى التمثيل أمام الجمهور ، فهو المسؤول عن المشهد من جميع الوجوه ، وعن الزخرفة بالمعنى الأوسع ، تمثل الممثلين ، والإنارة ، والإيقاع ، وانسجام المجموع ، والتوجيه العام للمسرحية.

فقد كان «ولد عبد الرحمان كاكي» - مثلاً - ، يصمم ديكور المسرحية ، ويميل إلى تجسيد أحداث المسرحية واقعياً ، فيرسم ديكوراً ، كما لو كان واقعياً مثلما فعل في مسرحية ، «القراب والصالحين» ، حيث صمم ديكوراً خاصاً (أزقة ، طرق ، فاعلية اجتماعية تراها في داخل هذا التكوين المسرحي) ، كما تعد تصميماته للمسرحيات التي قام بإخراجها (الشيوخ ، غرفتان ومطبخ ، ديوان القراقوز* ذات أطر تجديدية ، وفي الوقت نفسه ذات منحى واقعي ، « ففي مسرحية الشيوخ قام (ولد عبد الرحمان كاكي) بعرض عدة لوحات فنية ، ومشاهد لواقع معين عاشته الجزائر ما قبل الاستقلال ، واستمر الكثير من المواطنين بعد الاستقلال بممارسته ، وقد ربط المخرج كل المشاهد حول موضوع الشعوذة ، لتأكيد وتثبيت فكرته بمحاربة الأفكار البلهوانية الخرافية»(1).

«فكاكي» الفنان كما يرى في ديكور المسرحية الواقعية بنية فنية لا تنقل الواقع ، وإنما تجسده بواسطة أشكال ، وهذه النقلة الفنية تعد جزءاً من فعل المسرح ، حتى ولو كانت نصوصه تجريبية. وقد كتب عنه أحد النقاد الفرنسيين يقول: «إن كاكي أقرب إلى بريخت والحكواتية العرب منه إلى فيرمان جيمييه صاحب نظرية المسرح الشعبي. إن كل أعمال كاكي تعتمد على تحرك ناعم ولطيف للتمثيل...ضحك - قراقوز - مسرح إيمائي النقد - المزاح ، وحتى العنصر التراجيدي والعنصر المرعب ، هاهو فن حر وصحيح»(2).

وهكذا تمكن العمل الفني من أن يستوعب أطروحات المخرج الجديدة ، وفي الوقت نفسه أفكار ، وقدرات الجمهور الشعبي. وكان المخرجون المسرحيون يتبعون طريقة خاصة للاتصال بالمتفرجين ، «وذلك عن طريق البرنامج الذي يوزع عليهم قبل كل عرض ، وهو يحتوي على استمارات مسهبة تضم الأسئلة التالية : هل أعجبك العرض أم لا ؟ لماذا ؟ ما هو المشهد الذي أثار فيك أكثر من غيره ؟ لماذا؟ ماذا بإمكانك أن تقول عن الديكور؟ كيف سمعت بهذا العرض ؟

* القراقوز شخصية تاريخية عثمانية ، أحد وزراء مراد الثاني ، صالح لمباركية المسرح في الجزائر ص75.
(1) عمرون ، نور الدين : المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000 باتنة الجزائر 2006 ص151.
(2) بوكروح ، مخلوف : ملامح عن المسرح الجزائري العدد 05 الجزائر 1982. ص43.

...هل تفضل الذهاب إلى السينما أم إلى المسرح؟ لماذا؟» (1).

فالمسرح الوطني الجزائري قد أوجد بعد الاستقلال علاقة تفاعلية بين الفنان المسرحي والجمهور الجزائري، «وأصبحت المسرحية عملية نقل دم ناجحة بين الممثلين وبين المتفرجين، إذ لا يمكن أن تتاح الفرصة لنجاح المسرحية، ما لم يقيم هذا الاتحاد بين الجانبين، وكلما كان الكاتب ماهراً في فنه كان من السهل على الجمهور، أن يشرب هذا الدم الجديد، فيجري في عروقه هيناً ليناً» (2).

فقد أصبح الجمهور المسرحي في الجزائر يقبل على مسرحيات ذات طابع كوميدي مثل مسرحيات: (غرفتان ومطبخ، الغولة، القراب والصالحين)، في حين لم تحظ المسرحيات المأخوذة من المسرح العالمي بإقبال جماهيري، ويفهم من هذا أن تردد الجمهور على المسرحيات الجزائرية، يعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة هذه المسرحيات، التي تطرح بصورة مباشرة انشغالات المواطن الجزائري، كالبطالة ومشكلة النزوح الريفي وغيرها، وذلك عن طريق شخصيات جزائرية نابعة من صميم الواقع الاجتماعي، غير أن عدم الإقبال على عروض المسرحيات الأجنبية، لا يفسر بأن هذه المسرحيات، لا تجيب مباشرة عن اهتمامات المتفرج الجزائري، بل تعود في غالب الأحيان إلى ثقافة الجمهور المسرحي المحددة، التي لها علاقة بأسباب حضارية، منها خلو الفن المسرحي في الثقافة العربية.

فقد كان الجمهور يتأثر ويستجيب للأحداث، خاصة إذا كان العرض يعبر عن اهتمامه وأذواقه. «فالجمهور يعبر عن موقفه بالتصنيفات الحارة، خاصة عندما يكون الموقف معبراً عن قضايا اجتماعية لها علاقة بحياته، ينفعل ويستجيب بصورة تلقائية لهذا الموقف» (3).

ويبقى العامل الحاسم لنجاح أية مسرحية، والإقبال المتكرر للجمهور، هو موضوع المسرحية الذي يعبر عن طريقة الجمهور، والطريقة الفنية التي قدمت بها. «غير أن المؤسسة المسرحية الجزائرية، لم تتمكن من إقامة حوار مع الجمهور، ولم تجعل من العرض المسرحي حدثاً تلقائياً، يسهم في إرساء عادة المشاهد وتكريس تقاليد الذهاب إلى المسرح، ولم تؤسس فضاءات مسرحية

(1) تمارألكسندرقونا : ترجمة توفيق المؤذن ألف عام وعام على المسرح العربي . لبنان ط2/1990.

(2) بوكروخ مخلوف: المسرح والجمهور دراسة في سوسيولوجيا المسرح الجزائري ومصادره الجزائر 2002 ص 92.

* فقد استقطبت مسرحية غرفتين ومطبخ 9398 متفرجاً، بينما مسرحية الحياة حلم 576 متفرجاً انظر مخلوف بوكروخ المرجع السابق ص 81.

(3) بوكروخ، مخلوف: المسرح والجمهور ص 97.

تناسب والبيئة الثقافية الجزائرية»(1).

هذا فضلا عن ضعف التكوين المسرحي لدى المسرحيين الجزائريين لتلك المرحلة «فقد ظهرت معايير سلبية في التأليف المسرحي والاقْتباس والإخراج الجماعي ، من أفراد لا يملكون المؤهلات العلمية المسرحية والتطبيقية ، مستغلين سوء معرفة الجمهور لتقنيات المسرح»(2).

مشاكل المسرح الجزائري :

لقد عرف المسرح الجزائري كغيره من المسارح العديد من المشاكل ، التي تعوق تطوره وازدهاره من بينها : النص - اللغة - الجمهور - النقد .

أ. النص :

مهما كان دور المخرج والممثل في التمثيل المسرحي فإن النص يبقى المادة الأولى التي بدونها لا يمكن وجود هذا النوع من المشاهد ، والنص المسرحي الجزائري لم يكن تأليفا بالمعنى الصحيح ، يكتب من طرف كتاب محترفين ، «وإنما كان يضطلع بهذه المهمة في غالب الأحيان أعضاء الفرقة من الممثلين أي أن النص المسرحي في الجزائر ، كان وظيفيا وليس أدبيا ... إذ يعد النص من أجل الحاجة ليقدم على الخشبة في أسرع وقت ممكن»(3) .

ومما زاد في حدة مشكلة النص هي الهوية الفاصلة بين المشرق والمغرب التي منعت الاستفادة من تجربة التأليف المسرحي . «إن أزمة النص المسرحي تطرح نفسها بحدة وربما تأتي في مقدمة المصاعب التي يعاني منها المسرح ، ويتحمل الكتاب والأدباء أكبر المسؤولية في هذه الأزمة»(4).

لكن غياب النص المسرحي المحلي لم يوقف مسيرة المسرح الجزائري ، فقد تم اللجوء إلى الترجمة والاقْتباس أو الإعداد المسرحي ، لتجاوز أزمة النص.

ب. اللغة :

تعد طبيعة اللغة التي يجب استعمالها في المسرح من أهم القضايا التي

(1) بوكروخ ، مخلوف : المسرح - الجمهور - التلقي - محاضرة أقيمت من طرف الدكتور مخلوف بوكروخ يوم الأحد 28 ماي 2006 بفندق الرياض بالجزائر العاصمة ، بمناسبة احتضان الجزائر فعاليات

المهرجان المسرحي المصنف ما بين 25 ماي إلى 02 جوان 2006.

(2) عمرون ، نورالدين: المسار المسرحي في الجزائر إلى سنة 2000 الطبعة الأولى 2006 ص 255

(3) مخلوف بوكروخ ملامح عن : المسرح الجزائري - مجلة أدبية ثقافية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الرغاية : 1982 ص 55 .

(4) بوعلام رمضان المسرح الجزائري بين الماضي والحاضر - المؤسسة الوطنية للكتاب ص 38 .

أثارت نقاشا واسعا وحادا خلال فترة ما بعد زوال الاستعمار ، بين من رأى أن استعمال الفصحى هو الطريق الوحيد للتخاطب في ميدان المسرح ، وبين الرأي الذي يرى أن استعمال اللغة الفصحى لا يمكن لاسيما في هذه الظروف التاريخية ، في حين حاول فريق آخر حل هذا المشكل والتوفيق بين الرأيين فلجأ إلى ما يمكن أن يسمى اللغة الثالثة ، « غير أن المشكلة الحقيقية في المسرح ليست بين استعمال الفصحى أو العامية ، بل أن القضية المطروحة هي بين اللغة الأدبية وبين اللغة المسرحية ، والتي يجب البحث فيها والعمل على تحقيقها ، البحث عن لغة مسرحية درامية ، لغة معبرة عن الحدث المسرحي » (1) ، ومهما يكن فإن موضوع المسرحية هو الذي يحدد لغتها.

ج - الجمهور :

تتميز المسرحية عن سائر الفنون بأنها صورة من صور الفن تعرض ممثلة أمام الجمهور يحتشد لمشاهدتها في مكان واحد ، بينما تختلف مستويات ثقافتهم واتجاهاتهم الفكرية.

« إن الجمهور الذي كان يتتبع العروض باهتمام ، يتكون بشكل خاص من عامة الشعب ، كالأجراء والعمال ، ومن البورجوازية ، كالمثقفين المتتورين ، من طلبة المدارس العصرية » (2).

« ومهما تعاضمت خبرة المشاهد ومهما كانت أطر الإخراج المستخدم من قبل المؤلف والمخرج قريبة منا ، فليس هنالك من توافق كامل بين كودات المنتجين وكودات المشاهدين ، ولاسيما عندما يكون النص مجددا إلى حد ما » (3).

إن أي تفسير للنص يقوم به المشاهد يكون في الواقع تركيبا جديدا له وفقا لميل الفاعل الثقافي والإيديولوجي ، « والمسرح الجزائري ليس له جمهور عريض يحتشد لرؤيته ويتابع إنتاجه ، فلا يزال يعتمد على فئة قليلة من قراء الصحف اليومية القادرين على استكمال ملاحظاتهم ، فئة قادرة على استكمال ثقافتها بمعرفة مفاتيح التذوق المسرحي الصرف والاستمتاع بالمسرح » (4)

ولاشك انعدام إقبال الجمهور على المسرح يعود بالأساس إلى أن المسرح

(1) مخلوف بوكروح : ملامح عن المسرح الجزائري ص 55.

(2) علالو شروق المسرح الجزائري مذكرات عن فترة نشاطه المسرحي ترا أحمد منور منشورات التبئين الجاحظية الجزائر 2000 ص 72.

(3) كير إيلا السيمياء المسرح والدراما ، ترجمة رثيف كرم ، المركز الثقافي العربي ط 1 \ 1992 ص 148.

(4) مخلوف بوكروح ملامح عن المسرح الجزائري ص 61.

لا زال لم يدخل بعد ضمن العادات الثقافية للناس كما الحال في الغناء والسينما .

د - النقد :

إن المسرح لا يمكن أن ينعزل عن النقد إلا إذ كان ما يقدمه لا يثير حاسة النقد فكلما قامت معركة النقد ، كلما كان ذلك دليلا على حيوية الحركة المسرحية ، وللقدر الفني دور كبير في توجيه النهضة المسرحية ، ولا يقل عن الدور الذي يقوم به أصحاب الفرق وأعضاءها « ولعل ضعف النقد المسرحي في الجزائر يرجع إلى عدم وجود نقاد مختصين في مجال الفن المسرحي ، وحتى العناصر القليلة والعاملة في هذا المجال تأخذ عملية النقد المسرحي من الجانب الخارجي وبرؤية أحادية ومحدودة ، أي أنها تتناول العمل المسرحي الواحد بمفرده ، ولا زالت لم تدرسه لكونه عملا فنيا ثقافيا»(1).

خاتمة :

لعل أن أهم جوانب النقص التي لم يتجاوزها المسرح الجزائري بعد ، هو حركة التأليف التي عرفت تطورا في مجال القصة والشعر ولم تعرفه في مجال التأليف المسرحي ، وإيجاد النص الجيد ذلك أن مسارحنا لا زالت لحد الآن تعتمد على النصوص المقتبسة والمترجمة من النصوص العالمية .

ولعل من أهم ما أنجزه المسرح الجزائري في هذه الحقبة التاريخية هو إنشاء مدرسة برج الكيفان للفنون الدرامية والتي أخذت على عاتقها مهمة تكوين إطارات في مجال الفن المسرحي . ولكن السؤال الذي يبقى يطاردنا هو : كيف نؤسس حركة مسرحية جزائرية تضاهي أو تفوق الحركة المسرحية في المشرق العربي ؟ هل بتجاوز مشاكل المسرح السابقة الذكر تتحقق نهضة مسرحية في الجزائر ؟ أم أن هناك مساعي أخرى ؟؟ .

قائمة المصادر والمراجع :

. قائمة المصادر :

- 1- عياد ، أحمد(رويشد) : الغولة ، مراجعة وتقديم لمباركية صالح ، منشورات المعهد الوطني للفنون المسرحية برج الكيفان العدد 03 /نوفمبر 2001.
- 2- رايس ، عبد الحلیم : أبناء القصبة ، مراجعة وتقديم لمباركية صالح ، منشورات المعهد الوطني للفنون المسرحية برج الكيفان العدد 02 /، نوفمبر 2000.

. قائمة المراجع باللغة العربية :

- 3 - أحمد ، صقر : توظيف التراث الشعبي في المسرح العربي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، 1998.

(1) المرجع نفسه ص 63 .

- 4- أكرم ، اليوسف : الفضاء المسرحي ، دراسة سيميائية ، دار مشرق مغرب ، دمشق ، ط 1994/01
- 5- بوكروخ ، مخلوف : المسرح الجزائري 30 سنة مهام وأعباء منشورات التبين الجزائر ، 1995.
- 6- بوكروخ ، مخلوف : المسرح والجمهور ، دراسة في سوسيولوجية المسرح الجزائري ومصادره الجزائر ، 2002.
- 7- بيوض ، أحمد : المسرح الجزائري (1926 - 1989) منشورات التبين الجاحظية ، الجزائر ، 1998.
- 8- جغلول ، عبد القادر : المرأة الجزائرية ، الطبعة الأولى ، دار الحلاثة ، الجزائر ، 1983.
- 9- رمضان ، بوعلام : المسرح الجزائري بين الماضي والحاضر ، المكتبة الشعبية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984.
- 10- شكري ، عبد الوهاب : النص المسرحي ، الإسكندرية ط 02/ ، 2001 .
- 11- عبد القادر ، القط : من فنون الأدب - المسرحية - ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1978.
- 12- عمرون ، نورالدين : المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000 ، الأولى شركة باتيت طريق بسكرة - باتنة الجزائر ط 01/ ، 2006.
- 13- السويدي ، محمد : مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري ، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في الجزائر - ديوان المطبوعات الجزائرية - بن عكنون الجزائر ، 1990.
- 14- السويدي ، محمد : التفسير الذاتي في التجربة الجزائرية وفي التجارب العالمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1986.
- 15- لمباركية ، صالح : دراسات في المسرح (01) المسرح في الجزائر ، النشأة والرواد والنصوص حتى 1972 ، دار الهدي عين مليلة ، الجزائر 2005.
- 16- لمباركية ، صالح : دراسات في المسرح (02) المسرح في الجزائر دراسة موضوعاتية ، دار الهدي ، عين مليلة ، الجزائر 2005.
- 17- محمد ، أحمد يومي : علم الاجتماع وقضايا السياسية الاجتماعية والمغربية الجامعية الاسكندرية ، 1998.
- 18- مرتاض ، عبد المالك : العامية الجزائرية وصلاتها بالفصحى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981.

المحاضرات :

- 25- مخلوف بوكروخ - المسرح والجمهور والتلقي - محاضرة ألقاها في فندق الرياض بالجزائر العاصمة بمناسبة احتضان الجزائر المهرجان المسرحي المحترف ، فيما بين 25 ماي إلى غاية 02 جوان 2006.
- 26- أحمد منور الأقباس وطرفة في تجربة أحمد رضا حوحو المسرحية - محاضرة في فلق الرياض في إطار احتضان الجزائر لفعاليات المسرح لمحترف ماي/ جوان 2006.

بنية الزمن في الرواية العربية المعاصرة (ثلاثية البحر لحنا مينه نموذجاً) شمس الدين شرفي*

الملخص:

إن دراسة ثلاثية البحر تنهض أساساً على فحص الإستراتيجيات التي اعتمدها المؤلف لتسريد التاريخ ، وتأسيسه كظاهرة فنية متجاوزا الطابع التسجيلي للوقائع، التي تؤسس التاريخ كمعطى تحصيلي مائل في صورة تراكمات ينجزها الحضور الإنساني على مسرح الزمن.

ثم إن الكتابة السردية تنبني في العموم على تبئير موقف الفرد من الوجود؛ فبناء الكون السردية ، يقوم أساساً على وجود ذات ناظرة ، ومفكرة ، تتفاعل مع حركة الحياة ، وتسهم في صنع الحدث ، بما يعني أنها غير منعزلة بالمرّة عن حوادث التاريخ وملابساته.

ووفقاً لهذا التصور فقد انفتحت الدراسة على بحث الممكنات السردية المعتمدة من قبل المؤلف في تصوير أحداث الرواية، مع فحص حدود توافق المتن الحكائي مع المبنى الحكائي في الثلاثية، سعياً إلى فهم الطريقة التي انتظمت بواسطتها بنية السرد الروائي.

الكلمات المفتاحية :

حركة الزمن ، وتيرة السرد ، المفارقات الزمنية ، الوظائف السردية ، تبطئة السرد ، تسريع السرد ، المتن الحكائي المبنى الحكائي .

Abstract:

This study tries to reveal the mask about the trilogy of the sea written by the Syrian narrator Hanna mina. And hope to achieve this main purpose by analyzing the narrative structure of the roman through the concepts that Gerard Genette used them in his famous analytic book about the laws of narration.

We have as problematic the question of what about using history as

* كلية الأدب واللغات ، جامعة عباس لغرور خنشلة

matter of narration? how could the author join his imagination to history to create a novel or a roman ? What about partitioning time, and what aims or functions can be revealed from this partitioning of time in the roman?

key words:Posterior narrative , prior narrating , prolepsis,reach , recall **Some**

تمهيد

يستغرق الزمن حياتنا ، وينسحب على عمرنا كله. بل إن تاريخ البشرية كله قائم على الامتداد المستمر للفواصل الزمنية. والزمن باعتبار التواتر غير المحدود للأحداث ، والتوالد غير المتناهي للكائنات ينبني على التعاقب المتجدد من جيل لآخر ، ومن ماضٍ لحاضر.

وما فتئ الزمن ينتصب هاجسا فكريا يزعج الأولين ويؤرق الآخرين. فقد غدا الوعي به ملازما للكائن البشري ، لأنه الدليل الأقوى على حضوره في مسرح الكينونة ، والشاهد الأول على وجوده وجودا مفارقا للعدم .

لكن تمثيله والاحتفال به ضمن صيغ فكرية ، أو أطر نظرية يبقى أمرا بالغ التعقيد ، شديد الإرباك ، فإدراك الزمن لا يتجرد أبدا من الملابس والظروف المحيطة بالكائن البشري .

I . مفهوم الزمن :

قد بلغت صعوبة التحديد والمفهمة ، هذه حدا جعل «باسكال» يذهب إلى الجزم باستحالة تعريف الزمن ، وعدم جدوى البحث في ماهيته ، وعيا منه بإشكاليته (1) ، ورغم كل الإغراب والالتباس الذين يحولان دون حل مسألة الزمن إلا أننا سنسعى إلى مقارنة الأصول اللغوية للكلمة في سياقها العربي ، مع الإشارة إلى مدلولاتها الفلسفية ، ومجالات توظيفها الاصطلاحي في البحث المعاصر.

أ . الزمن في المصادر العربية :

لم يرد في القرآن الكريم ما يدل على توظيف الجذر : (ز ، م ، ن) ، إلا أننا نلاحظ توزيعا متفاوتا النسبة لأسماء الزمان ، عبر القرآن في كامل أجزائه. ويمكننا بسط هذا التوزيع كما يأتي :

اسم الزمان	نسبة التواتر	اسم الزمان	نسبة التواتر	اسم الزمان	نسبة التواتر
الدهر	2	السنة	11	الشهر	10
الصيف	1	الشتاء	1	اليوم	231

(1) voir : temps, Encyclopædia Universalis, 10ème ed, 2004, dvd rom·

3	الآن	19	النهار	51	الليل
29	الحين	2	الإيكار	8	العشي
4	الفجر	4	الصبح	3	العام
1	الغسق	1	العصر	1	الظهر
1	الضحى	2	السحر	1	الفلق

إن القراءة الأولية للجدول تقدم فكرة جلية عن مدى حضور الزمن في الوعي العربي القديم؛ فتقسيم أوقات الليل والنهار على فواصل زمنية، ثم إطلاق تسميات مختلفة، كالغسق والسحر والفلق والفجر والصبح والضحى، ما هو إلا دليل على اشتغال العرب بوضع وحدات قياس تيسر لهم ضبط شؤون حياتهم، وأنماط عيشهم وفق ميزان حسابي يتناسب مع طبيعة البيئة التي يتوزعون فيها.*

وأما عند المعجميين القدامى من العرب، فإن لفظ الزمن لا يعدو أن يكون جزءاً من التعبير اليومي، في حدود ما يتداوله عامة الناس؛ ففي القاموس المحيط: «الزمن، محرّكة وكسحاب: العصر، اسمان لقليل من الوقت وكثيرة، ج أزمان وأزمنة وأزمن، ولقيته ذات الزمين، كزبير: تريد بذلك تراخي الوقت... وأزمن أتى عليه الزمان»⁽¹⁾.

وأضاف صاحب اللسان فقال: «وزمن زامن: شديد... و أ زمن بالمكان أقام به زمنا. وقال شمر الدهر والزمان واحد. قال أبو الهيثم أخطأ شمر، الزمان: زمان الرطب والفاكهة (يعني الموسم) وزمان الحر والبرد (يعني الفصل). قال ويكون الزمان من شهرين إلى ستة أشهر، قال والدهر لا ينقطع... والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل... وما لقيته منذ زمنا أي منذ زمان»⁽²⁾.

أما النحاة العرب فقد انصرفوا إلى جهة السياق والتراكيب التي يعبر بها عن الحدث، فتغير بنية الفعل زيادة ونقصا، يستلزم تغييرا في الدلالة على الزمن، كما يراعى هنا قصد المتكلم وإرادته. والزمن عندهم إما ماض وإما حال أو استقبال⁽³⁾ ولعل المتكلمين أول من اجتهد، من العرب، في ضبط مفهوم الزمن ضمن

* من المعلوم أن في القرآن تمييزا بين عالم الشهادة باعتباره زمنا محدودا ينتهي بالموت بالنسبة للفرد أو بفناء العالم والكون، بالنسبة للبشرية جمعاء وبين عالم الغيب باعتباره زمنا لانهايا، تتحقق فيه مقولة الخلود، وتقطع فيه رحلة العذاب بالنسبة للمؤمنين، وتبدأ مرحلة عقاب الكافرين. وهذه مسألة عقائدية ليس هنا مجال البحث فيها.

(1) الفيروزبادي: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1996، ص 1553.

(2) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر و دار بيروت، 1968، مج 13، ص 199.

(3) عبد الله بوخلخال: التعبير الزمني عند النحاة العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987.

تصور معرفي ، يعضد توجههم العام إلى بناء منظومة فلسفية متسقة من حيث منهجها ومادتها ؛ فالجرجاني يعرفه بقوله : « هو مقدار حركة الفلك الأطلس عند الحكماء ، وعند المتكلمين عبارة عن متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم ، كما يقال آتيك عند طلوع الشمس ، فإن طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم ، فإن طلوع الشمس معلوم ومجيئه موهوم ، فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإبهام» (1).

ولعل الجرجاني أراد بهذا التعريف ربط الزمن بحركة النظام الشمسي وما يترتب عنها من دورة الفصول ، وتعاقب الليل النهار ، إذ هما مظهران يستدل بهما على حركة الأحياء والأشياء ، فالزمن بهذا التصور حيز يتحقق من خلاله حضور الكائنات حضوراً مفارقاً للعدم الذي هو غياب للحركة. أما نسبة الموهوم إلى المعلوم فهي نسبة الحركة - بما هي انتقال أو تغير يطرأ على وضعية الكائن - إلى فاصلة من الزمان بوصفها وحدة قياس ، تتحقق عبرها الحركة فتستحيل وجوداً ، أو تمتنع فيعدم وجودها*.

على أن البحث في ماهية الزمن عند المتكلمين العرب لم يفض إلى طائل ، ولم ينته إلى غاية ؛ حتى إن التهانوي* أورد في كشافه تصورات عدة للزمن ، إلا أنه أثر ألا يرجح أيها منها ؛ فمن المتكلمين من ينكره معتبراً إياه وهماً ، إذ لا وجود للماضي والمستقبل ، ووجود الحاضر يستلزم وجود الجزء. ومنهم من يعتقد أنه ماضٍ ومستقبل فحسب ، لأن الحاضر هو أن موهوم. ومنهم من يعرفه بأنه أمر متجدد يقدر به متجدد آخر (2).

وربما كانت صعوبة التحديد هذه ناشئة عن صفة غير المرئية ، أو غير الحسية ، فما نراه في الوجود من تغيرات ليس هو الزمن ، ولكنه أثر الزمن في الكائنات والأشياء. وانفلاته من دائرة المحسوسات يحول دون تمثيل حقيقته إلا في إطار نظري بالغ التجريد .

(1) انظر مادة : زمن في كتاب التعريفات ، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 2002 ، ص 97.

* لعل هذا المعنى هو ما أشار إليه القرآن ، في قوله تعالى ، في سورة الإسراء : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَمَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً (12) » .

* عالم هندي ، من أعلام القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، انظر سيرته في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم.

(2) انظر مادة : الزمان ، في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، لمحمد علي التهانوي ، تحقيق د. علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط 1 ، 1996 ، ج 1 ، من ص 909 إلى 912 .

وقد يكون هذا هو ما حمل عبد الملك مرتاض على اعتبار الزمن مظهرا وهميا ينسحب على الأحياء والأشياء فيؤثر فيها بصبغته غير المرئية ؛ لأنه كالأكسيجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا دون أن نبصره ، غير أننا نرى آثاره فيما لا يحصى من الأحوال والأطوار والهيئات ، إذ يعترىها التحول ويصيبها الزوال(1).

ب. الزمن في الفكر الغربي :

لعل التحول المستمر ، الذي يدركه الإنسان من خلال التغيير ، والتجدد ، والزوال ، بوصفها ظواهر تعترى الكائنات من حوله ، هو ما حمل القديس أوغسطين على الاعتقاد بأن الزمن يسري في الروح ؛ ذلك أن موضوع الانتظار يؤول إلى مادة للوعي والانتباه ، ثم يتحول إلى قطاع الذاكرة . أما أرسطو ، فيعرفه على أنه مجموع الحركات ، حسب (لما قبل) و(لما بعد)(2).

ومن الناحية العملية يربط كولن ويلسون بين الوعي بالزمن وبين حاستي الذاكرة والتوقع ، فالإنسان ينظم حياته داخل شبكة نسيجها الماضي والحاضر والمستقبل(3).

وصورة الزمن في المجتمعات القديمة مرتهلة بفكرة البقاء والخلود ، أي إنها مؤسسة على حركتي حضور البشر أو غيابهم على مسرح الوجود ، ويخلص ويلسون إلى أن الزمن عند الشعوب القديمة ، يتصف بخاصيتين :

أ - إنه كان قياسا للعمر ، ومدة البقاء ، وسائر أعمال الإنسان .

ب - إنه بوصفه تجربة يتميز بالتواتر والتكرار ، إذ فيه دورات متعاقبة للأحداث(4).

ومن المفكرين من ينحو نحو التبسيط ، ويجرد المسألة من بعدها الميتافيزيقي ، ويرى بأن الزمن قد يدل على التزامن ، كما في العبارة : (في الوقت نفسه) التي يعني حدوث عدة وقائع في لحظة زمنية واحدة. وقد يدل على التعاقب كما في عبارة : (الوقت يمر بسرعة). وقد يدل على المدة ، أي قدر الزمن الذي استغرقه حدث ما . والواقع أن الزمن يحتوي المفاهيم الثلاثة معا(5).

ومن منظور علم النفس ذهب يونغ « Jung » إلى اعتبار الزمن واقعة ذاتية

(1) عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ضمن سلسلة عالم المعرفة ، (240) ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، كانون الأول 1998 . ص 201.

(2) voir : temps, Encyclopædia Universalis, 10ème ed, 2004, dvd rom.

(3) كولن ولسون وآخرون : فكرة الزمان عبر التاريخ ، تر : فؤاد كامل ، عالم المعرفة (159) المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، آذار 1992 ، ص 5.

(4) المرجع السابق ، ص 12.

(5) voir : temps, Encyclopædia Universalis, 10ème ed , 2004, dvd rom.

تشأ من مجموع الحالات المضمرة والاستجابات الخفية للنفس البشرية :

«Nous sommes . dans ce que notre vie a de plus privé et de plus subjectif .non seulement les victimes .mais aussi Les artisans de notre temps. Notre temps c'est nous ! »(1).

وفي الفلسفة المادية ، الزمن والمكان شكلان رئيسيان لوجود المادة ، ولا انفصال لكل منهما عن الحركة ، فالزمان مظهر لتتابع وجود الظواهر ، إذ تحل الواحدة محل الأخرى. وهو من هذا المنطلق صورة لتطور العمليات المادية ، إذ تمضي في اتجاه واحد من الماضي نحو المستقبل ، بما يعني أن الحركة هي ماهية المكان والزمان. ومن هنا فإن كلا من الزمان والمكان واقعتان موضوعيتان مفارقتان للذات الإنسانية(2).

ومن منظور نظرية النسبية فإن مفهوم الزمن مرتبط بمفهوم الفضاء ، ولم يعد ممكنا تعريف الزمن بمعزل عن الفضاء. كما إن مقولة الزمن المطلق لم تعد مطروحة ، إذ اتجه البحث العلمي إلى ضبط مفهوم الزمن ، ففصل بين عدة مستويات له ، كالزمن الفيزيائي ، والزمن البيولوجي ، والزمن التاريخي ، . ولكل مستوى من هذه الأزمنة إيقاعه الخاص(3).

ومن وجهة نظر ظاهراتية يرى مارتي «Marty» أن الزمن يختلف عن المكان لأن كل الأشياء زمانية دون أن تكون مكانية بالضرورة ، وخاصة الزمن لا تنسحب على الموضوعات الفيزيائية والأحداث العقلية فحسب بل تمتد إلى الموجودات غير الواقعية ؛ فعبارة «الكرسي موجود» قضية غير موجودة في المكان ، على عكس الكرسي الذي لا يتحقق وجوده إلا في مكان ما(4).

II. الزمن في الرواية :

أ . الزمن الروائي في النقد الغربي :

اهتم النقاد والمنظرون بالزمن في الأدب عموما ، والرواية بصورة خاصة. ولعل أبرز من تعامل مع الزمن الروائي في القرن العشرين هم أعلام المدرسة الشكلانية. ففي مقال بعنوان : «نظرية الأغراض» ميز توما شيفسكي بين المتن

(1) C.G.Jung:l'homme à la découverte de son âme, petite bibliothèque payot,paris, 10éme ed,p 74.

(2) انظر: الزمان والمكان ، الموسوعة الفلسفية مشترك ، تر : سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 6 ، 1987 ، ص 235.

(3) voir : le temps, Encyclopédie Hachette 2005,cdrom.

(4) عز العرب لحكيم بناني : الظاهراتية وفلسفة اللغة ، أفريقيا الشرق ، بيروت ، ط 1 ، 2003 ، ص 217 .

الحكائي والمبنى الحكائي. فالمتن الحكائي هو مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها ، ويتم عرضها حسب النظام التسلسلي والسببي للأحداث. أما المبنى الحكائي فيتألف من الأحداث نفسها ، بيد أنه يراعي نظام ظهورها ، كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا (1).

وقد كان لهذا التقسيم أهمية نظرية ، وإجرائية ؛ إذ طور النقاد اللاحقون منهج دراسة الزمن في النصوص السردية. وميز « تودوروف (Todorov) » بين زمن القصة وزمن السرد ، فزمن القصة هو زمن الوقائع والأحداث ، وهو زمن محكوم بمنطق التتابع التاريخي ، إذ تتعاقب الأحداث عبر التسلسل الطبيعي للزمن. أما زمن السرد فهو زمن فني يتحكم فيه السارد بتقنيات مختلفة. فالبناء الفني له قوانين يفرد بها ، فرواية اللغز مثلا تبدأ بالنهاية ومنها تتراجع إلى البداية ، والرواية السوداء تبدأ بالتهديد وتقودنا ، رويدا رويدا ، إلى الجثث (2).

أما جيرار جينيت فتنهض مقولة الزمن عنده على ضرورة التفريق بين زمن القصة الذي هو زمن طبيعي ترتبط فيه الأحداث ارتباطا سببيا ، وتتعاقد خلاله الوقائع حسب خط السير التاريخي للزمن ، وبين زمن الحكاية بما هي نص له زمنه الخاص ؛ إذ هو زمن فني مفارق للزمن العادي ، ومغاير لخطيته ؛ فهو زمن تقني يتحكم فيه السارد لغايات جمالية. وهذا التغيير بين زمن الدال وزمن المدلول هو ما يدعوه جينيت المفارقات الزمنية (3).

وقد حدد الباحث ثلاثة مستويات وهي : الترتيب والمدة ، والتواتر.

1 - الترتيب : L'ordre temporel

يتناول مستوى الترتيب نظام تتابع الأحداث في القصة من حيث علاقته بنظام ظهورها في الحكاية ، وبما أن زمن الحكاية غير متوافق خطيا مع زمن القصة ، فإنه بالإمكان رصد أشكال مختلفة من التلاعب الفني بالزمن تتم على مستوى النص. ويمكن ضبط هذه المفارقات الزمنية بنوعين هما :

- (أ) - الاسترجاع analepse : وهو استعادة حدث أقدم من الحدث المحكي من خلال إيقاف السارد مسار تطور الأحداث ، ونكوصه على الماضي لاستذكار
- (ب) - الاستباق Prolepse : وهو استشراف لأحداث لم يحن زمن وقوعها ،

(1) انظر : نصوص الشكل لتبين الروس : إبراهيم خطيب ، الشركة المغربية للناسرين المتحدين ، ط1 ، 1982.

(2) محمد القاضي : تحليل النص السرد ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1997 ، ص 49 .

(3) نفسه ، ص 47 .

أي الإشارة إلى أحداث ستأتي في المستقبل ، أي سبق الأحداث anticipation (1). ولكل من الاسترجاع والاستباق وظائف يغدو السرد منقوصا دونها. ومن هذه الوظائف ملء الفجوات التي تحدث في الحكاية بسبب الحذف ellipse ، وإضافة معلومات عن ماضي عنصر ما في الحكاية (شخصية ، مكان ، حدث). وهاتان الوظيفتان تكميليتان completétives. وقد يعتمد السارد إلى تكرار حدث داخل المتن الحكائي ، وهنا تصيران تكراريتين repetitive (2).

2. المدة : Durée

يرتبط مفهوم المدة بالعلاقة بين طول نص الحكاية الذي يقاس بالأسطر والصفحات ، ومدة القصة التي تقاس بالدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات. والغاية من دراسة هذه العلاقة هي استقصاء سرعة السرد ، وما يطرأ عليها من تغيرات. ويميز جينيت أنواعا من المفارقات الزمنية هي الآتية :

أ - المجمعل (Sommaire) : هو سرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة شخصية - مع إغفال التفاصيل - في بضعة أسطر أو فقرات قليلة. وهذا ما يعرف بتسريع السرد ؛ فزمن الحكاية هنا أصغر من زمن القصة.

ب - الوقفة (Pause) : هي توقف حركة الزمن على مستوى القصة بسبب تخلل المقاطع الوصفية لحركة سير الأحداث ، مما يؤدي إلى تقطيع مجراها الزمني ؛ فالراوي عندما يشرع في الوصف يعلق بصفة مؤقتة تسلسل أحداث الحكاية ، أو يرى من المهم قبل الشروع في سرد ما يحصل للشخصيات توفير معلومات عن الإطار الذي ستدور فيه الأحداث.(3)

ج - الحذف (Ellipse) : هو إسقاط جزء من زمن القصة، وإغفال ما قد يقع فيه من أحداث. وقد يحدد السارد مدة الحيز الزمني المحذوف في عبارة من مثل : « بعد ذلك بسنتين » ؛ فيكون الحذف محدد ellipse déterminée. أو قد يهمل مدته كما في عبارة : « سنوات بعد ذلك ». وهذا حذف غير محدد ellipse indéterminée. وكل منهما ينتمي إلى ما يسمى الحذف الصريح Ellipse Explicite . أما الحذف الضمني ellipse Implicite فهو ما لا يستدل عليه بعبارة في النص ، فالسارد لا يشير إليه،

(1) سمير المرزوقي وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ص 80.

(2) خطاب الحكاية ص 62 ، 64.

(3) سمير المرزوقي وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ص 90

وإنما يدرك من خلال ثغرات في التسلسل الزمني أو انحلال للاستمرارية السردية (1).
 د - المشهد (Scène) : في المشهد يتطابق زمن الحكاية وزمن القصة. ويلاحظ جينيت أن التعارض في الحركة بين مشهد مفصل وحكاية مجملة يحيل في الغالب على تعارض بين الدرامي وغير الدرامي ، ويقول في هذا الشأن : « والذي لا يزال قابلا جدا للإدراك في رواية (مدم بوفاري) هو تناوب مجملات غير درامية ذات وظيفة هي الانتظار والوصل ، ومشاهد درامية دورها في العمل حاسم » (2).

3 . التواتر La fréquence

يقصد جينيت بالتواتر مجموع علاقات التكرار بين الحكاية والقصة ، وبلفظ آخر إنه نسبة تكرر الحدث وعلاقتها بنسبة إعادة سرده ؛ إذ يحدث أن يروى أكثر من مرة حدثٌ وقع مرة واحدة ، أو العكس. ومثال الأول قائم في عبارة (تشرق الشمس كل يوم) ، .. وأنواع التواتر التي يذكرها هي :

الإفرادي singulatif : وهو عرض رواية واحدة لما حدث مرة واحدة. ويحدث أن يروى أكثر من مرة ما حدث أكثر من مرة ، وهذا شكل آخر للتواتر الإفرادي ، فالإفراد يعرف بتطابق عدد الروايات مع عدد تجليات الحدث في النص.

التكراري Répétitif : وهو ذكر روايات عديدة عن حدث واحد ، وسواء فيه أكان الراوي واحدا أم متعددا.

- التكراري المتشابه Itératif : وبه يروى فيه مرة واحدة حدث متكرر ، وهذه الأنواع الثلاثة يمكن أن تتواجد معا في نص واحد ، مع اختلاف نسبة حضورها فيه (3). وتوظيف التواترات يحدث لغايات متعددة أبرزها تنويع مصادر الخبر السردية ، والإحاطة بمختلف تفاصيله.

ب . الزمن الروائي في النقد العربي :

رغم أن اجتهادات جينيت كان دور هام في ضبط كثير من القضايا التقنية التي تثيرها مسألة دراسة الزمن الروائي ، غير أن بعض النقاد العرب انتهج منحى آخر. وقد يكون من المفيد الإشارة إلى ما اقترحتة مها حسن القصراوي في كتابها «الزمن في الرواية العربية».

ارتأت الباحثة أن الزمن بصورة عامة ينقسم إلى نفسي وطبيعي. فأما الزمن

(1) خطاب الحكاية، ص 119.

(2) نفسه ، ص 120.

(3) المرجع السابق ، ص 130 و 131.

الطبيعي فهو الزمن الموضوعي الخاضع لمقاييس الحساب ، من حيث هو وقت يتشكل من ثوان ، ودقائق ، وساعات ، وأيام ، ونحوها. ويختلف عنه الزمن النفسي الذي هو زمن ذاتي ، يتشكل في وعي الإنسان ووجدانه. وهو زمن مفارق للزمن العادي ، بقدرة الإنسان على تجاوز اللحظة الحاضرة ؛ فالذاكرة تشارك في تشكيل وتأثير الحاضر والمستقبل وفق معطيات الماضي (1).

أما بالنسبة للزمن الروائي فإن الباحثة ترى أن الزمن في الرواية العربية ينقسم من حيث بناؤه إلى ثلاثة أشكال ، هي :

1 - البناء التتابعي : ترى الباحثة أن هذا النوع قد قرض سيطرته على الرواية العربية حتى أواخر الخمسينيات وهو زمن تقليدي تتوالى فيه الأحداث و تتعاقب دون انحرافات بارزة في سير الزمن ، وهذا الزمن هو أبسط أشكال النثر الحكائي (2).

2 - البناء الجدلي التداخلي : لم يعد الزمن في الرواية العربية قائما على التسلسل المنطقي والتعاقب ، فقد تداخلت أبعاده وتشابكت ، والرواية العربية الحديثة لم تعد تركز على تصوير الشخص و الأحداث والأمكنة بقدر إبراز المتغيرات النفسية التي تحدث داخل الإنسان (3).

3 - البناء المتشظي للزمن : تخضع أبعاد هذا الزمن للتشظي والتكسر فيفقد السرد كل إشارة زمنية يمكن أن تقود القارئ إلى التتابع ، فأبعاد الزمن المتشظي تتجاوز كل ما هو واقعي إلى حرية لانتهائية في التشكيل ، وتتحول الرواية إلى شيء أشبه بالحلم أو الكابوس (4).

وبعد هذا التقسيم تعرج الباحثة على زمن الشخصيات الروائية الذي تعده مستوى ثانيا ، باعتبار زمن السرد وعلاقته بزمن الحكاية مستوى أول. وزمن الشخصية هو زمن نفسي ذاتي يخضع لحركة اللاشعور ومعطيات الحالة النفسية. ويشكل ركيزة أساسية من ركائز الإبداع ، بما يتضمنه من دلالات إيحائية ، وإشارات جمالية ذات رؤيا وفكر ومشاعر (5).

(1) مها حسن القصاروي : الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2004 ، ص 24.

(2) نفسه ، ص 65.

(3) نفسه ، ص 71.

(4) نفسه ، ص 111.

(5) المرجع السابق ، ص 150.

- بنية الزمن في ثلاثية البحر :

أولا - مستوى الشكل :

تنهض بنية الزمن في الثلاثية كمنظومة سردية ، بها تتحقق اختيارات الكاتب الفنية ، وتتحدد من خلالها استراتيجياته التوزيعية للأحداث والوقائع. وما الحضور الكثيف للعناصر الزمنية في الرواية ، إلا استجابة لرغبة المؤلف في بناء نسق زمني يستحضر فيه كل الوحدات السردية اللازمة لتشفير الرسالة الإيديولوجية وفق نظام علامات ، يكون هو فحسب - أي المؤلف - منتجه والمتحكم فيه.

وبالرجوع إلى تاريخ إصدار الأجزاء الثلاثة للرواية ، يمكن القول إن نقطة ارتكاز السرد ، التي يمثلها حاضر بطل الرواية قد تكون نهاية السبعينيات من القرن الماضي أو بدايتها ، باعتبار أن آخر ما أشار إليه الكاتب كان أحداثا في الستينيات. وعلى هذا الأساس فإن أحداث الرواية تستغرق ما يناهز نصف القرن تقريبا.

كما تجدر الإشارة إلى أن حجم الرواية نفسه يضع القارئ - منذ البداية - أمام حيز زمني متسع نسبيا على مستوى القراءة* . أما على مستوى التلقي فإن الزمن سينفتح على استراتيجيات إنتاج المعنى ، والوسائط المدرجة ضمن الآليات المتحكممة في فهم الإشارات ، وفك الرموز ، وكسر نظم الإغلاق**.

أ - حركة الزمن وسرعة السرد :

إن العناصر الزمنية المشار إليها آنفا ، لا تحضر في الرواية على مستوى واحد ، بل إنها تتوزع على مستويين اثنين :

- الأول : مستوى الحركة الأفقية للزمن في علاقتها بصيرورة الأحداث ، ذلك أن السارد قد يقفز إلى الأمام فيتجاوز حدثا حاضرا ليشير إلى حدث مستقبلي ، أو قد يتراجع إلى الخلف ليستعيد أحداثا سابقة للحدث الآتي الذي هو بصدده عرضه.

- والآخر : مستوى السرعة ، إذ إن الأحداث لا تعرض كلها بوتيرة واحدة ، فقد

* استندت هنا إلى تقدير شخصي؛ فإذا كان متوسط قراءة ساعة واحدة هو ما بين أربعين إلى خمسين صفحة ، فإن زمن قراءة الثلاثية قد يزيد عن عشرين ساعة إذا علمنا أن مجمل صفحات الرواية هو ألف وأربع وسبعون (1074) وزعها المؤلف كما يلي : حكاية بحار (351) ، النقل (320) المرفأ البعيد (403).

** التمييز بين القراءة والتلقي يقوم هنا على تصور القراءة فعل استقبال للنص في حدود الاستجابة الآلية الناشئة عن الفضول ، وحب التطلع إلى المجهول ، فلا يعدو القارئ أن يكون مستهلكا للمعنى لا أكثر. أما التلقي فهو جهد معرفي يتأسس منذ البداية على السعي نحو إعادة إنتاج المعنى ، إما بالتأويل أو الشرح أو التعليق أو النقد. فالتلقي وفق هذا التصور فعل مشاركة ، وتواصل مبرمج مع النص.

يقف السارد عند حدث قصير نسبيا ثم يحتال في تمديده باستعمال تقنيات متعددة. كما يجمل أحيانا حدثا في غاية الامتداد ، فلا يستغرق إلا نصف صفحة أو جملة.

وقد بني المتن الحكائي للرواية على ثنائية زمنية ، تتجسد منذ البداية معلما بارزا ، يقوم على التقابل الضدي بين الماضي والحاضر. أما الماضي فإنه يندمج في صلب بنية السرد لكونه عنصرا بنائيا شديدا الأهمية ؛ فمن جهة الكم نجده يستغرق غالب فصول الرواية ، ومن جهة الوظيفة نجده يتضمن مجمل الوحدات السردية المؤسسة لمضامين الرواية.

أما الحاضر فيتوزع في الرواية على عدد من الفصول قليل ، ويمكن الإشارة إليه كما يلي :

. حكاية بحار :

الفصل الأول : (من ص 7 إلى ص 35).

الفصل الثاني : (من ص 37 إلى ص 72).

الفصل الثالث : (من ص 73 إلى ص 105).

الفصل السادس : (ص 220 ، ص 221 ، ص 358).

. الدقل :

الفصل الخامس : (ص 175 ، ص 176).

. المرفأ البعيد :

الفصل السابع : (من ص 401 إلى ص 408).

وهذا الحاضر الذي يركز عليه السارد لم يستغرق سوى نهار وليلة على الشاطئ ، قضاها سعيده مع المصطافين يستعرض مهاراته في الغوص ، ويروي شيئا من مغامراته البحرية القديمة.

إن إشكالية السرد في الثلاثية تنهض على تأسيس حاضر سعيد حزوم كجدارية غير مكتملة الملامح ، وغير واضحة المعالم ، مما يستوجب إغناءها وإعادة شحنها بالمضامين والصور التي لا يكشفها الحاضر ، ولكنها تستدرك من خلال تحسس الأطوار الماضية من حياته.

واستدعاء حدث ما من الماضي ، واستحضار تفاصيله في ظل وقائع حاضرة ، لا يتم إلا كنوع من التبرير الفني لعملية السرد ذاتها ؛ لأن صلة الحاضر بالماضي لا بد أن تبنى على مسوغات قوية ، تشفع للسارد في مواصلة لعبة السرد ، وتضمن للنص السردي تماسك بنائه المنطقي والفني ، وفق منظور إبداعي

مانفك يمزج بين الرؤية التاريخية والعرض السيري.

هو إذاً زمن مرجعي ، منه مبتدأ الحكاية ، وإليه منتهاها ، وكل الأحداث التي تتخلله ، إنما تستقي مسوغات حضورها من وجوده كإطار للمبنى الحكائي. ولعل هذه المرجعية هي ما عناها جينيت عندما ذهب إلى أن كشف المفارقات الزمنية وقياسها يسلمان ضمناً بوجود نوع من الدرجة الصفر ، يتوافق عندها زمن الحكاية وزمن الخطاب (1).

ب - المفارقات الزمنية ووظائفها السردية :

من خلال التمهيد السابق يصير من الضروري الالتفات إلى دور المفارقات الزمنية ، وأهميتها في المبنى الحكائي. ويضبط السارد منذ البداية توقيت السرد على زمن ما قبل نهاية الأحداث في متن القصة. وهكذا يجعل من شيخوخة سعيد حزوم نقطة ارتكاز سردي ، يرتد منها إلى الماضي ، ثم يؤوب إلى الحاضر وفق ما تقتضيه الغايات الفنية ، والمقاصد الإيديولوجية التي يتعقبها. وقد صار هذا الارتكاز على نهاية الأحداث شائعاً في الرواية العربية ، وربما استعارته لغة السينما فيما اشتهر بمصطلح «الFLASH باك».

ينفتح السرد على زمن يفقد فيه البطل كل مبررات التآلف مع الحاضر ، فهو زمن الشيخوخة ، كما إنه زمن التسليم والإذعان ، زمن انتهاء المكابرة والعناد. وبما إنه كذلك فليستلهم منه السارد اللحظات الأولى في مبنى الرواية. آن لسعيد حزوم أن يحتفظ بالقطرة الأخيرة من ماء الوجه ، فلا يهرقها هدراً. إنه زمن الاستقالة من خدمة البحر :

« هنا لا توجد مراكب ، إنها خيام ، مراكب راسية على الرمل ، تطوى وتتش كالقلوع ، غير أنها لا تنزل الماء ولا تبجر في الأبعاد. وهو لم يعد بحاراً ، مضى زمن البحر ترك المهنة ومعها مسرات قلبه ، ويخيل إليه أحياناً أنه نسيها ، أو أنه أصبح قادراً على نسيانها...» (2). لم يبق لسعيد إذاً غير مهارة واحدة ، يستأنس بها في ظل عزلته المؤلمة ، إنها مهارة التذكر. هو على الشاطئ بين المصطافين نكرة غريب ، وهذا الحاضر مرحلة نقاهة لا أكثر. لا وجود لسعيد في الحاضر. إنه يستعيد ألق الحياة القديم ، ويستمرئ نكهة الأحداث الماضية في شكل سرد استرجاعي وظيفته الفنية هي التمهيد للحكاية الأساسية التي يتموضع من خلالها البطل الرئيسي في بؤرة السرد ، فلا بأس إذاً أن يستجمع بين الحين والحين ما تناثر في خلده من ذكريات :

(1) خطاب الحكاية ، ص : 47.

(2) حكاية بحار ، ص : 18.

« تذكر أنه كان مرة في أحد مطاعم دمشق ، كان ذلك في نهاية الخمسينيات ، وكانت فيروز « زوروني كل سنة مرة » جديدة. لم تكن أشرطة الكاسيت قد عرفت بعد ، وكانت آلة الأسطوانات تعمل أوتوماتيكيا ، لمجرد أن تضع فيها قطعة نقد من فئة الـ 25 قرشا ، وتضغط على رقم الأسطوانة... » (1).

ولا ريب أن هذا النوع من الاسترجاع لا يكون شديد الفعالية في البناء السردى إلا إذا اتسق ضمن مجموعة استرجاعات قصيرة أخرى ، من شأنها أن تثير حساسية المتلقي ، وتصدّد تطلعه إلى كشف تفاصيل الحكاية الأم. ومن هذا القبيل الاسترجاع الوارد في بداية الفصل الثاني من حكاية بحار ، حين يغفو سعيد ويرى طيف أمه ثم تراوده بعض تفاصيل زفافه (2).

كما إن هذه الاسترجاعات تهدف من جانب آخر إلى التقليل من أهمية الحاضر الذي يعيشه سعيد حزوم ؛ لهذا فإن عملية السرد كلها تنحرف نحو الماضي بشكل تدريجي ، إذ تقوم الاسترجاعات القصيرة بتهيئة المتلقي وإعداده لتقبل الثقل السردى ، الذي ستتوء به سيرة سعيد حزوم بكامل شحنتها الإيديولوجية ، فضلا عن خلفياتها التاريخية ، وأبعادها الاجتماعية ؛ ذلك أن السارد في عرضه لحياة سعيد حزوم إنما يسلط الضوء على محنة الاستعمار الفرنسي التي طالت الشعب السوري ، وما انجر عنها من مأساة تمثلت في اغتصاب لواء الإسكندرونة العربي ، وحذفه من خارطة الوطن الأم سورية ، وضمه إلى الأتراك الأجانب فيما يشبه إستمارا آخر للواء مازال قائما إلى اليوم.

ولكن السارد لا يقف عند هذه الأحداث ، بل سيستعيد كل ما حدث من تحولات سياسية عرفتها سورية بعد الاستقلال ، وسينظر بعيني سعيد حزوم إلى مجموع المفارقات الاجتماعية التي شهدتها المنطقة في الخمسينيات والستينيات ، وهذا ما سيلزمه باستدعاء حشد كبير من الوقائع والتفاصيل ، يتكئ في بعضها على المادة التاريخية ، ويعتمد في بعضها الآخر أسلوب السيرة الذاتية.

ولكن زمن الشيخوخة ليس زمن بدء فحسب ، إنه أيضا زمن الختام ، وعلى مسرحه تنكشف لحظات النهاية ، إنه زمن اليأس ، زمن اكتمال الغياب ، غياب صالح حزوم وكاترين الحلوة الذين ينتهي بغياهما زمن المتن الحكائي :

« .. ولما أيقنت أنه عرفها ، ندت عنها عبارة واحدة :

(1) حكاية بحار ، ص : 92.

(2) نفسه ، ص : 36.

وداعا ، وإلى الأبد....

ثم انزلت في الماء. غابت في البحر ، وراح هو يصرخ وراءها :
كاترين ! يا كاترين ! يا عزيزتي .. يا حبيبتي.. كاترين لم تلتفت. لم تجب.
لم تظهر على سطح الماء. ظل هو واقفا ، ثم ألقى بنفسه وراءها... وأشرفت
الشمس ، وهو يسبح ، لكن كاترين الحلوة اختفت ابتلعها البحر» (1).

وبالرغم من أن حدث اختفاء كاترين إلى الأبد قد تم في الحاضر ، بعد مغادرة
سعيد للشاطئ وذهابه إلى قصر السيدة ، إلا أن الفارق النصي ما بين تواجد سعيد على
الشاطئ ، وما بين غياب كاترين النهائي هو سبعة عشر فصلا ، يستغرق الجزء الثاني
ثمانية منها دون أية إشارة إلى الحاضر خلا الصفحتين المذكورتين آنفا.

وحضر الحاضر بهذا الشكل في بداية السرد ونهايته فحسب ، يعني تحويل
مجمل الأحداث إلى استرجاعات تطول أو تقصر حسب الوظيفة المنوطة بها. لكن
هذه الاسترجاعات لا ترد بريئة أبدا. و قصدية المؤلف في توظيفها إيديولوجيا
واضحة في أغلب فصول الرواية. ومن أمثلة هذا التوظيف الفصل الرابع من حكاية
بحار ، إذ يمعن السارد - سعيد حزم هنا - في تفصيل إحدى مغامراته البحرية ، التي
لم تدم سوى يوم واحد في بلد آسيوي ذي قوانين صارمة ، فيذكر هوسه بجمع التحف
، واهتمامه إلى دكان فيه قبو سري لبيع التحف ، احتال صاحبه في إخفاء مقتنياته
النفيسة فيه قبل أن تصل إليها يد الحكومة ، ثم يعلق السارد على الأمر قائلا :

«وجدت الفكرة معقولة ، كان يملك هذا المخزن للأنتيكات قبل التأميم ،
وقد استطاع قبل الوصول إليه ، أن يقيم غرفة سرية وراء الجدار ، ويخفي فيها
كنوزه ، على أمل أن يأتي بوم ويسقط النظام القائم ، وتعود الملكية الشخصية ،
وعندئذ يعود صاحبا للمخزن ويخرج كنوزه من مخابئها... لا بد أن يكون هناك
ملاكون كثيرون غيروا جلودهم ولم يغيروا قلوبهم. إنني أكتشف سرا خطيرا إذا» (2).

يستغل المؤلف إذاً هذا الحدث السردى ليجعل منه حاملا لرؤيا ذات نسق
إيديولوجي معين ، وتصير هذه الرؤيا رسالة يمررها من خلال عرضه لهذا
الحدث الصغير نسبيا.

ج - سرعة السرد ووظائفها الفنية :

ينصرف هذا المبحث إلى رصد الأشكال الأساسية لحركة السرد في الرواية

(1) المرفأ البعيد ، ص : 406 و 407 .

(2) حكاية بحار ، ص : 134.

، فكل عملية سرد هي عملية انتقائية بالأساس ، فالسرد لا ينطلق بعفوية ليعرض كل الأحداث والتفاصيل تماما كما جرت ، فاختيارات السارد ، وقناعاته ، ورقابته الذاتية ، هي من يتدخل في الغالب حذفاً ، وزيادتها ، وتشويهاً ، أو تعديلاً لمجرى الحدث الأصلي.

ومنذ البداية نسلم أنه لا حرية للمتن الروائي ثلاثية حنا مينه ، فالساردون الثلاثة كلهم يتدخلون* ، يهشمون المتن ثم يعيدون صياغته في شكل جديد. ويمكن تبين دور السارد في تغيير وتيرة الحدث تسريعاً أو إبطاءً من خلال النماذج الآتية :

أ. النموذج الأول : تبطئة السرد

يعرض سعيد حزوم تجربته في دكان التحف الآسيوي بإسهاب شديد ، ويستغرق فصلاً كاملاً من حكاية بحار رغم كونها لم تستغرق سوى ساعة أو بضع ساعات من نهار ، ولكنة يمدد السرد ، ويقطع الحدث من حين لآخر إما بالإشارة إلى نظام البلد وقوانينه الصارمة تجاه الخمر والمخدرات :

« كان ذلك في أقصى الشرق ، وفي بلد آسيوي نال استقلاله وغير نظامه منذ عشرين عاماً أو أقل ، وتبعاً لذلك تغيرت صورته ، فلا مخدرات ولا قوادون ولا مهربات ولا قمار.

قوانين اشتراكية صارمة كان يكرها قبطاننا ، وكنا نضيق بها نحن ، ونتمنى أن نغادر المرفأً بأسرع ما يمكن بسببها»(1).

أو بالتعرض لحذر القبطان والبحارة عند نزولهم في مرفأً هذا البلد :

« من أجل ذلك كان البحارة الأجانب يخافون النزول إلى المرفأً ، فإذا نزلوا لم يتعدوا «نادي البحارة» ومن تجراً منهم خرج قليلاً إلى الأسواق المجاورة فطاف بها . ويتواصى البحارة بعدم السكر ، فإذا أكثر أحدهم من الخمره نصحوه بالعودة إلى الباخرة ، وقد يرغمونه بالقوة ، ويبلغون القبطان فلا يسمح له بالنزول مرة أخرى إلى هذا المرفأً»(2) ، أو بوصف وضعه النفسي داخل الدكان الذي تسلسل إليه خلصة في إحدى أيام العطل : « يقولون إن دماغ الإنسان يعمل بأقصى سرعته وقت الخطر. إنني أصدق هذا الكلام تماماً ، فقد عشتة بنفسه. دماغه ، بعد حالة الشلل التي اعترته من الخوف ، نشط فجأة. راح يستجيب لرغبتني في التفكير عسى أن

* الساردون الثلاثة هم : 1 - المؤلف أو ما يقابله ضمناً ، 2 - صالح حزوم ، 3 - سعيد حزوم .

(1) حكاية بحار ، ص : 110.

(2) نفسه ، ص 114.

أهتدي إلى مخرج» (1).

وتهدف تبطئة السرد هذه إلى إغناء الحدث بمضامين متنوعة تندمج في صميم رؤية السارد، وسعيد حزوم من حيث هو راو يمتلك سلطة على سامعيه، يشعر أن ليس من مصلحته أن يقدم الحدث عاريا من أي تعليق، خاصة وأنه يعرضه من موقع المباهاة والفخر برصيده المهني كبشار ذي خبرة في الطواف بموانئ العالم.

ب. النموذج الثاني: تسريع السرد

يستعجل السارد المؤلف إنهاء الرواية، فيعمد إلى اختزال خمس عشرة سنة من عمر سعيد، ومن تجربته المهنية في عالم البحار والمحيطات، ويعرضها في مجمل سردي شديد السرعة عندما يقدمها بالشكل الآتي: «... في السنوات الأولى كانت الرسائل بينه وبين أهله لا تنقطع، ومنها، ومن زيارته إلى اللاذقية، كان يعرف ويشهد زواج هذه الأخت، استقلال ذلك الأخ، ويرى إلى العائلة تصغر، حتى لم يبق منها سوى الأم، وهذه في سنوات الإبحار الأخيرة ماتت، وزواجه كان عقيما، فلم ينجب، بسبب ما أصابه من أمراض جنسية خلال تجواله الطويل، وانتهى به الأمر إلى الطلاق.. هكذا فرغ بيت الأسرة... أخيرا ترك البحر... بعد خمسة عشر عاما» (2).

لكن هذا الاختزال يتجاوز رغبة المؤلف في إنهاء الرواية* إلى غاية فنية شديدة الأهمية؛ فإدراج هذا العمر الزاهب هدرًا من حياة سعيد حزوم في دائرة المسكوت عنه، يؤسس لوظائف سردية جديدة، تنهض بعينها الأحداث اللاحقة. وما جنون سعيد حزوم في الأخير إلا نتيجة للفشل الذريع الذي مني به، مضافا إليه حجم الخسائر المعنوية المتراكمة التي حاقت به من كل جانب، فهناك خسارة العمر، وخسارة الأم، وخسارة الزواج، وخسارة المجتمع، والناس الذين كانوا يعرفونه، وفوق كل هذا خسارة مرجع قيمه الأول صالح حزوم، وعلة حركته الكبرى كاترين، الذين يفقد بغيابهما مبررات تقديره لذاته، ثم في الأخير خسارته لنفسه.

ومن أجل تتبع أثر كل من المفارقات الزمنية والتلاعب بوتيرة السرد في مبني الرواية، فإنه سيكون من الضروري تقسيم زمن المتن الحكائي تقسيما

(1) نفسه، ص: 152.

(2) المرفأ البعيد، ص: 343 و344.

* الرواية ناهزت حتى الآن تسعمائة صفحة، والإطالة في تفصيل خمس عشرة سنة، قضاها سعيد حزوم في عرض البحار، قد تضع المؤلف أمام حرج بالغ تقنيا و فينا، وقد يتحول السرد إلى ما يشبه أدب الرحلة، وهنا تنحل عقدة الرواية وتفقد تماسكها الفني.

موضوعاتها ، حتى يتسنى إدراك الأبعاد الفنية لهذه الحيل التقنية ، التي استخدمها المؤلف. ومن القراءة الأولى يتضح أنه بالإمكان تقسيم زمن المتن الحكائي إلى زمنين أساسيين ، هما :

- زمن صالح حزوم : (زمن الأب - المثال) .

- زمن سعيد حزوم : (زمن الابن - الواقع) .

يتقابل هذان الزمان كضدين من حيث دلالاتهما ، ولكنهما يلتقيان على مستوى المفارقات التي أدرجت في بنية السرد ويمكن التحقق بدراسة المستوى الثاني للزمن.

ثالثا . التوزيع الزمني للوظائف السردية في الرواية :

قامت بنية الزمن في ثلاثية البحر على حيل تقنية متعددة اقتضتها الضرورات الفنية لاستبدال الساردين ، كتوظيف المفارقات الزمنية ، والتصرف بزمن الأحداث المحكية تسريعا وإبطاء ، وخلط الترتيب الكرونولوجي للفصول. وقد يكون مفيدا توضيح الفوراق بين زمن القصة (زمن الوقائع) وزمن الحكاية (زمن السرد) من خلال التوزيع الآتي :

الأحداث حسب زمن السرد	الأحداث حسب زمن القصة
سعيد في رحلة اصطيفاف.	سيرة صالح حزوم
سباق الغوص مع الفتى.	عمل سعيد في الميناء
دكان التحف الآسيوي	مقاومة صالح للاحتلال
قصة صالح حزوم	اختفاء الأب والسفينة الغارقة
عمل سعيد في الميناء	البحث عن الجثة
مقاومة صالح للاحتلال	سجن سعيد حزوم
اختفاء الأب والسفينة الغارقة	ضياح لواء الإسكندرونة
البحث عن الجثة	هجرة العائلة إلى سوريا
سجن سعيد حزوم	اللقاء مع عزيزة
هجرة العائلة إلى سوريا	ظهور قاسم العبد
اللقاء مع عزيزة	علاقته بكاترين
مغادرة المصطافين	العمل مع الرئيس عبدوش

<p>ظهور قاسم العبد علاقته بكاترين العمل مع الرئيس عبدوش موت الرئيس عبدوش التعرف على الرئيس زيدان موت زيدان هجرة كاترين العمل في المنارة اغتيال قاسم العبد العمل في المحيطات العودة إلى الوطن الزواج موت الأم الجنون مع المصطافين قصر السيدة العودة إلى البحث عن الأب</p>	<p>موت الرئيس عبدوش التعرف على الرئيس زيدان موت زيدان هجرة كاترين العمل في المنارة اغتيال قاسم العبد العمل في المحيطات دكان التحف الآسيوي العودة إلى الوطن الزواج موت الأم الجنون رحلة الإصطيفاف السباق مع الفتى مغادرة المصطافين إلى قصر السيدة العودة إلى البحث عن الأب</p>
--	---

ويتهيء البحث في منظومة الزمن المميزة لثلاثية البحر ، إلى نتائج هامة ،
نبيها كما يأتي :

- 1 - إن زمن الرواية زمن إشكالي يتداخل فيه التاريخي والواقعي ، بالتخييلي والفني ، ويلتقي فيه الذاتي بالموضوعي.
- 2 - اعتمد السارد على المراوحة بين حاضر بعض الشخصيات وماضيها ، كما يظهر في سيرة بطل الرواية ، مع إحالة الزمن الذاتي على الزمن الجماعي ، والعكس.
- 3 - الزمن الغالب على الرواية هو زمن الشخصيات النفسي ، إذ أنه يتضخم

ويطغى على زمن الأحداث ، مما يجعل منه زمنا جدليا تداخليا.
4- ميز الرواية تكسير فني للزمن الطبيعي للأحداث ، مع غلبة المفارقات الزمنية على مجمل السرد.

ملحق

(ملخص الرواية) :

قامت هذه الدراسة على اختيار ثلاثية البحر التي ألفها الروائي السوري حنا مينه كمدونة ، وقد صدرت جميعها عن دار الآداب البيروتية في طبعات متعددة ، وهي على التوالي :

- 1 - حكاية بحار ، الطبعة الأولى 1981. (ستة فصول).
- 2 - الدقل (الكتاب الثاني من حكاية بحار) الطبعة الأولى 1982. (ثمانية فصول).
- 3 - المرفأ البعيد ، (الكتاب الثالث من حكاية بحار) الطبعة الأولى 1983. (سبعة فصول).

وقد قام المتن الحكائي لهذه الثلاثية على تقص شبه سيرري لأطوار حياة البطل سعيد حزوم. وهو بحار قارب الشيخوخة ، فعزم على أن يودع البحر حين شعر أن قوته توشك أن تخذله فيفتضح ضعفه للعامة. وما سباق الغوص الذي دار بينه وبين الشاب المتحدي إلا مؤشر يجلو هذه الحقيقة.

وقد كان هذا السباق الذي انتصر فيه بشق نفس بمثابة حدث عكر عليه صفوه ، فارتد إلى ماضيه ينهل من معين الذكريات ، ويستعيد ألق الفتوة القديم ، مستعرضا جانبا من وقائع حياته ، تتخلله صور شتى للتحويلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها سورية في فترة ما بين الحربين وما بعدها.

ويطغى حضور والد سعيد (صالح حزوم) على جزء كبير من الكتاب الأول في الثلاثية ؛ فهو بحار له ملامحه البطولية التي أضفت عليه طابعا أسطوريا. ورغم أنه كان فقيرا ولا يملك مركبا يسمو به إلى رتبة ريس أو قبطان ، إلا أنه استطاع أن يحتل لنفسه مكانة مهيبه في قلوب البحارة بفضل شجاعته في إنقاذ المراكب النهرية في إحدى رحلات العمل بعد عاصفة هوجاء. كما إن دفاعه المستميت عن حي البحارة العرب ضد هجمات الأتراك القادمين من الأحياء الأخرى ، وتمسكه بقوميته العربية كانا سببا في سجنه ، وبعد خروجه من السجن ازدادت شعبيته ، بعد إصراره على قيادة التمرد الشعبي ضد الإستعمار الفرنسي.

ولكنه يختفي دون مقدمات ولا أثر ، في آخر مغامراته البحرية ، إثر

غوصه إلى إحدى السفن الفرنسية الغارقة قرب الشاطئ ، لاستخراج صفائح الكاز والبنزين ، وتوزيعها على سكان الحي ليقتاتوا بأثمانها ، بعد أن أهلكتهم الفقر وأمضهم الجوع.

ويستلم سعيد حزوم دفعة الأحداث بعد اختفاء أبيه مباشرة ، فيتحول - وهو ابن سبع عشرة سنة - إلى قائد فرقة بحث بحرية ، وينتهي الجزء الأول من الثلاثية حين تتبدد كل الجهود ، في محاولة العثور على جثة صالح حزوم وسط حطام السفينة الغارقة ، والعثور على جثة بحار فرنسي مكانها.

ومع فشل سعيد حزوم في العثور على أبيه تفتح أولى صفحات الكتاب الثاني ، إذ ينعكس هذا الفشل إلى تجربة شديدة الوقع على شخصيته ، فسرعان ما تنكشف له هوامش جديدة من ذاته ، فشجاعته وصلابة عوده في مغامرة البحث عن أبيه رفعتة إلى مكانة موازية لتلك التي كان يحظى بها الأب بين البحارة وسكان الحي.

إلا أن اختفاء أبيه يفتح عليه جبهة من الشرور والتحديات ، التي كشفت له هشاشة تجربته وقلة رصيدها أمام رهانات إثبات الذات. وقد بدأت بالزج به في السجن لأن إغراق جثة بحار فرنسي ، وعدم إعلام السلطات بها يعد جريمة في حق البشرية. وفي السجن تتجلى له صور للحياة شديدة التنوع ، بارزة القبح ، يعرضها السارد من خلال نماذج بالغة الانحراف والسفالة. لكن صدمة البطل الكبرى كانت إثر المؤامرة الاستدمارية التي فضل بها لواء الإسكندرونة عن سوريا الوطن الأم ، وبعد خروجه من السجن تبرز معاناته من خلال معاناة عائلته التي ذقت مرارة الغربة والتشرد والفاقة ، بعد هجرتها من لواء الإسكندرونة السليب إلى اللاذقية ، إذ يضطر للعمل في الميناء ، وفي أجواء من الفساد السائد يتعرف على قاسم العبد الذي يحتضن أفكارا عن التغيير الاجتماعي ، والتنظيم النقابي ، وحقوق العمال.

لكن حدثا جديدا ما يفتأ حتى يعكر عليه صفو حياته ، إذ تظهر كاترين الحلوة عشيقة صالح حزوم ، وتقتنصه بسهولة ، فيصير بهذه العلاقة في خط المواجهة مع ذكرى أبيه من ناحية ، ومع الرئيس عبدوش زوج كاترين من ناحية أخرى. ورغم أن عبدوش عرض على سعيد العمل عنده في المركب ، إلا أن كاترين تتوسط لدى زوجها لإبقاء سعيد في البر ، رحمة بأمه. ولكنه يشك في الأمر ، ويتحين الفرصة المناسبة لإهلاك خصمه ، وما يلبث حتى تهب عاصفة هوجاء ويغادر جميع الركاب إلا عبدوش وسعيد ، الذي تأخر لإصلاح عطب في المركب ، وفي لحظة تعلق سعيد بالحبل الذي يصل المركب بالقارب يقطع

عبدوش الحبل من على ظهر المركب ، وفي ظنه أن خصمه سيهلك هو الآخر فلا تكون كاترين لأي منهما. وبهذا الحدث ينتهي الجزء الثاني من حكاية بحار.

يبدأ الجزء الثالث من الرواية بمشقة إقناع سعيد كاترين الحلوة وأبناء الحي والبحارة بحقيقة غرق الرئيس عبدوش وركاب المركب ، فكونه الناجي الوحيد أثار الريبة في النفوس مما سد في وجهه أبواب الاستقرار النفسي ، وقد ضاعفت عوامل البطالة والفقر وعمل أمه أجيرة في الريجي من شعوره بالاغتراب. كما إن هاجس البحث عن أبيه ، وفشله في إثبات ذاته ، وإذلال كاترين له ، كانت كلها عوامل تزيد في تغذية إحساسه بالعزلة والعجز الشخصي والقهر الاجتماعي. وهكذا وجد سعيد نفسه مكرها على اختيار السفر فرارا من واقع محبط ، واستئنافا لرحلة البحث عن الأب المتخفي. وتقف كاترين الحلوة إلى جنبه مرة أخرى وتطلب من زوجها الجديد الرئيس زيدان تشغيله في مركبه ، حرصا منها على إبقاء علاقتها به لوقت الحاجة.

ويتأزم إحساس البطل بالتناقضات الصارخة التي تدور حوله وتتلاعب بمصيره ، فتزيد من حدة تمزقه الداخلي بانكشاف عدم قدرته على التماهي بصورة أبيه كبطل قومي وبحار يبسط هيئته على الجميع ، بمن فيهم كاترين الحلوة ، التي فشل سعيد في الظفر بها خالصة له ، خاصة بعد موت زيدان الذي فجر الإنجليز مركبه لتعاونه مع الألمان. ومع إمعان كاترين الحلوة في إذلاله وإهانتها برفضها الزواج منه ، وسفرها مع زوجها البحار اليوناني بحثا عن عشيقها الأول صالح حزوم ، ينكفي سعيد حزوم على شعوره بالهزيمة أمام أبيه ، وأمام نفسه ، وأمام كاترين الحلوة ، ويقبع عاملا بالمنارة بعد مساعدة الرئيس عبد الحميد أحد وجهاء الكتلة الوطنية له.

وفي المنارة تتجدد صلة سعيد بقاسم العبد ذي الأفكار الاشتراكية ، عندما يلجأ إليه ، متخفيا في منارته لعدة ليال ، لكن اغتياله المفاجئ يخرب استقراره الاجتماعي والنفسي ، فيسافر إلى اليونان ويعمل أجيرا في باخرة أجنبية من عابرات القارات ، ويتجدد أمله في العثور على أبيه وعشيقته معا.

وتمضي السنون لأكثر من عقد ونصفه ، ليعود سعيد في غضون الستينيات إلى اللاذقية بعد تجارب مضمينة في موانئ العالم القصية ، ومرافقه البعيدة. وتتجهم في وجهه الحياة ، فخبرته البحرية عديمة الجدوى ، وأرباب العمل في الموانئ لا يكثر ثون به ، وقد صار نكرة مجهولا يكاد لا يعرفه أحد. وتزداد حالته سوءا بموت أمه أثناء غيابها ، وتصعد شمل الأسرة بتفريق إخوته. ويلفي نفسه وحيدا في بيت أسرته المتهدم ، ليسقط في مفازة الجنون. وفي المستشفى ينصح الأطباء

بالانتقال إلى دمشق ، فيصغي مليياً. وهناك يتعرف إلى ركب من المصطافين ، ويصير دليلهم ومرشدهم ، كما يعلم بعضهم السباحة ، ويشرف على تنظيم المخيم على الشاطئ.. لكن شبح كاترين الحلوة يظهر له فجأة ، ثم يغيب في البحر عند الشاطئ ، في إحدى ليالي الصيف. ويسدل ستار الرواية بعد أن يقرر سعيد حزم استئناف رحلة البحث عن أبيه.

قائمة المصادر والمراجع :

1. قائمة المصادر :

* - القرآن الكريم ، رواية ورش.

حنا منبه :

- 1 - حكاية بحار ، دار الآداب ، بيروت ، ط 6 ، 1999.
- 2 - الدقل ، دار الآداب ، بيروت ، ط 4 ، 1997.
- 3 - المرفأ البعيد ، دار الآداب ، بيروت ، ط 4 ، 1997.

2. قائمة المراجع :

أ. العربية :

- 1 - بوخلخال ، عبد الله : التعبير الزمني عند النجاة العرب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1 ، 1987.
- 2 - لتهانوي ، محمد علي الفاروقي : كشف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تحقيق د. علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط 1 ، 1996.
- 3 - الجرجاني ، علي بن محمد بن علي : كتاب التعريفات ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 2002 .
- 4 - القاضي ، محمد : تحليل النص السردي ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، 1997.
- 5 - القصرأوي ، مها حسن : الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 2004.
- 6 - المرزوقي ، سمير وجميل شاكر : مدخل إلى نظرية القصة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر والندار التونسية للنشر ، ط 1 ، د ت.
- 7 - عز العرب لحكيم بناني : الظاهرية وفلسفة اللغة ، أفريقيا الشرق ، بيروت ، ط 1 ، 2003 .
- 8 - عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، ضمن سلسلة عالم المعرفة ، (240) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، كانون الأول 1998 .

ب. المعربة :

- 1 - جينيت ، جيرار : خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتصم ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2004.
- 2 - نصوص الشكلايين الروس ، ترجمة إبراهيم الخطيب ، الشركة المغربية للناسرين المتحددين ، ط 1 ، 1982.
- 3 - ولسون ، كولن وآخرون : فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة فؤاد كامل ، عالم المعرفة (159) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، آذار ، 1992.

3. قائمة المراجع الأجنبية :

_ Jung C. G : l'homme à la découverte de sonâme petite bibliothèque payot
paris 10ème ed 1973

4. معاجم وموسوعات :

أ. العربية والمعربة :

- 1 - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم 711 هـ) : لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، 1968.
- 2 - الفيروزبادي (أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي 729 هـ - 817 هـ) : القاموس المحيط ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط5 ، 1996
- 3 - رزونثال ، م ويودين ، ب : الموسوعة الفلسفية (مشارك) ، ترجمة : سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، ط6 ، 1987.

ب. الأجنبية :

- EncyclopædiaUniversalis _ version10 ، 2004 ، dvdrom.

السبر والتقسيم عند النحويين

عبد الله علي جوان*

الملخص :

تطرق هذا البحث لموضوع أصولي تم توظيفه من قبل النحاة في استدلالهم على القواعد وهو موضوع السبر والتقسيم ، وهذا يؤكد العلاقة بين علمي أصول الفقه وأصول النحو ، وكيف أثر علم أصول الفقه في الأصول النحوية فقد ترك المنهج الأصولي أثره الكبير في منهج البحث النحوي وخاصة من ناحيتي تشخيص الأدلة وأوجه دلالتها ، فوجد في تشخيص النحاة لأدلتهم ما وجد عند الأصوليين من السماع والقياس والإجماع والاستصحاب والاستحسان .

ومن هنا أكد البحث على أخذ النحاة بالسبر والتقسيم وفي الوقت نفسه كشف لنا عما تركه علم أصول الفقه في علم أصول النحو من تأثيرات وأنه من الأدلة العظيمة التي يمكن استخدامها في الرد على آراء الخصم وأن مفهوم السبر والتقسيم عند الأصوليين هو عينه عند النحاة .

وبالتالي سلط هذا البحث على دليل السبر والتقسيم الذي عد من أهم طرق الاستدلال التي تثبت بها القواعد وكيف استعان به النحاة في الاستدلال في كثير من المسائل النحوية والصرفية وترجيح الأوجه الأعرابية هو أن يجمع أهل العربية على أن علة هذا الحكم كذا .

الكلمات المفتاحية :

- الإجماع** : الاستحسان : العدول عن القياس إلى قياس أقوى منه .
- الاستصحاب** : إبقاء حال اللفظ على ما يستحقه عند عدم دليل النقل عن الأصل .
- الانقطاع في المناظرة** : العجز عن بلوغ الغرض المطلوب بها .
- القياس** : حمل فرع على أصل بعلّة وإجراء حكم الأصل على الفرع .
- السبر** : اختبار الوصف في صلاحيته وعدمه للتعليل به .
- التقسيم** : حصر الأوصاف المحتملة للتعليل بأن يقال : العلة إما كذا ، وإما كذا .

* الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية زليتن - ليبيا .

النتظير: هو الشبيه بما له مثل معناه وإن كان من غير جنسه .

Abstract:

This research dealt with a principles of religion topic that has been utilized by the philologists in their setting of the Arabic grammar rules, that is the topic of exploration and classification. This confirms the relationship between the sciences of philology and theology, and how theology affected grammar. The research methodology in theology affected the philology research methods, particularly regarding verification of data/evidence and its implications. Therefore, it was found that philologist used the same methods that the theologians used such methods as analogy, consensus, preference..Hence, the research came to the conclusion that philologists used exploration and classification, and it showed the influence of theology on philology, and that the exploration and classification is the same in both philology and theology. This research focused on exploration and classification which is one of the most important methods of verification used by philologist to set rules and how this method was used by them to prove certain grammar and morphology issues and adopting certain parsing rules.

Terminology used: Ijmaa , Istihsaan ,Inqitaa fi almunaadhara Qiyaas Sabre Taqseem (Nadheer

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...
أما بعد ...

فإن الأصوليين قد سبقوا النحاة في التدوين لأصول صنعتهم ، فوضعوا أصول الفقه ؛ ودونوه مع أواخر القرن الثاني الهجري ، في الوقت الذي كانت فيه أولى محاولات جمع الأصول النحوية في القرن الرابع الهجري .
وبعرضنا لموقف القدماء من العلاقة بين علمي أصول الفقه وأصول النحو ، وتأثير علم أصول الفقه في الأصول النحوية ، فإننا نجد أن أقدم إشارة إلى هذه الصلة القوية بينهما ما صرح به ابن جنبي في كتابه «الخصائص»؛ حيث صرح بالصلة القوية بين أصول الفقه وأصول الكلام وأصول النحو ، حيث قال - وهو يبين سبب تأليفه لكتابه «الخصائص» «وذلك أننا لم نرَ أحداً من علماء البلدين (1)

(1) يقصد بالبلدين : البصرة والكوفة.

تعرض بعمل على مذهب أصول الكلام والفقهاء» (1).

ثم يأتي السيوطي بعد ذلك فيحذو حذوه في حمل أصول النحو على أصول الفقه ، فقال في مقدمة كتابه « الاقتراح » (2) : « هذا كتاب غريب الوضع... في علم لم أسبق إلى ترتيبه ، ولم أتقدم إلى تهذيبه ، وهو أصول النحو ، الذي هو بالنسبة إلى النحاة كأصول الفقه بالنسبة إلى الفقهاء » (3) ... ويقول عن ترتيبه : « ورتبته على نحو ترتيب أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم » (4).

وهكذا كان لمنهج البحث الأصولي أثره الكبير في منهج البحث النحوي وخاصة من ناحيتي : تشخيص الأدلة ، وأوجه دلالتها . وربما علل بعض النحاة ذلك بأن النحو معقول عن منقول ، كما أن الفقه معقول عن منقول .

ولذلك نجد في تشخيصهم لأدلته مما وجد عند الأصوليين من النص (السماع) والقياس ، والإجماع ، والاستصحاب ، والاستحسان. ومن أوجه دلالتها نراهم يبحثون كما يبحث الأصوليون من طرق : حمل النص وثقة النقلة والرواية والتواتر والآحاد والمرسل والمجهول ، كما لم ينس النحاة أن يختموا أصولهم بما تختم به أصول الفقه عادة من (باب التعارض والترجيح) وقد ذكروا في هذا الباب تعارض النصوص وتعارض الأقيسة وتعارض النصوص.

ومن هنا يمكن القول : بأنه ما من علم من العلوم الإسلامية ترك الأثر في التراث النحوي ما تركه هذا العلم ، وهو أثر ، أو هي - في حقيقتها - مجموعة من الآثار تتضافر على أن تجعل من علم أصول الفقه المورد الذي استقى منه النحويون أصولهم الكلية طيلة قرون ثلاثة.

وسأحاول في هذا البحث تسليط الضوء على دليل السبر والتقسيم ، الذي يعد من أهم طرق الاستدلال التي تثبت بها القواعد إذ عدده كثير من العلماء من موازين العلوم النظرية وهو أكثر أدلة البطلان و أحسنها ، وكيف استعان النحاة به في الاستدلال في كثير من المسائل النحوية والصرفية ، وترجيح الأوجه الإعرابية ، حتى يتجلى لنا أن هذا يعد مظهراً من مظاهر تأثير علم أصول الفقه في التفكير النحوي وأصوله عند النحاة .

(1) انظر الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط4 ، 1999م ، 2/1 .
(2) هو كتاب الاقتراح في علم أصول النحو للإمام السيوطي ، قدم له وضبطه وصححه ، د. أحمد سليم الحمصي ، د. محمد أحمد قاسم ، جروس برس ، ط1 ، 1988م .
(3) صحيفة رقم 21 .
(4) صحيفة رقم 22 .

تعريفه :

. التعريف اللغوي :

السبر لغةً : الأصل واللون والهيئة والمنظر ، يقال : إنه لحسن السبر إذا كان حسن الهيئة واللون ، وينطق بكسر السين وفتحها ، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى : حسن الوجه ، ويقال سبرت الجرح أسبره : إذا نظرت ما غوره (1).
التقسيم لغة : قسم الشيء جزأه ، وفرقه (2).

. التعريف الاصطلاحي :

. عند الأصوليين :

يراد بالسبر عند الأصوليين: اختبار الوصف في صلاحيته وعدمها للتعليل به . ويراد بالتقسيم عندهم : حصر الأوصاف المحتملة للتعليل؛ بأن يقال: العلة إما كذا وإما كذا (3) ، ويمكن تعريفه - كمسلك - بالآتي : « حصر الأوصاف الموجودة في الأصل الصالحة للعلية في عدد ثم إبطال بعضها » (4) ، وهو سوى الذي يدعى أنه العلة واحداً كان أو أكثر، وتجدر الإشارة إلى أن السبر والتقسيم - كمسلك - يستخدم إما في النفي والإثبات وإما في الإثبات والتصحيح يقول الرازي: « التقسيم إما أن يكون منحصراً بحد النفي والإثبات أو لا يكون ، فالأول هو أن يقال: الحكم إما أن يكون معللاً أو لا يكون معللاً ، فإن كان معللاً فإما أن يكون معللاً بالوصف الفلاني أو بغيره ، وبطل ألا يكون معللاً بغير ذلك الوصف فتعين أن يكون معللاً بذلك الوصف ، وهذا الطريق عليه التعويل في معرفة العلة العقلية » (5).

وهو عندهم - أي عند الأصوليين - قطعي لإفادة العلية ، ويجوز التمسك به في القطعيات والظنيات. فالأول كقولنا: العالم إما أن يكون قديماً أو حادثاً بطل أن يكون قديماً فثبت أنه حادث. والثاني كقولنا: ولاية الإجماع إما ألا تعلل أو تعلل بالبركة أو

- (1) انظر لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، مادة (سبر) ، مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، دار الحديث ، القاهرة ، مادة (سبر).
- (2) انظر لسان العرب ومختار الصحاح مادة (قسم).
- (3) انظر مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ، د. عبد الحكيم أسعد السعدي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط3 ، 2000 م ، 444.
- (4) انظر حاشية التفتازاني على العضد ، سعد الدين التفتازاني مع العضد ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، 1983 م ، 236/2 ، نهاية السؤل شرح منهاج الوصول في علم الأصول للأسنوي ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر ، 71/3 ، نفائس الأصول في شرح المحصول 3524/8.
- (5) انظر نفائس الأصول في شرح المحصول للإمام القرافي ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط3 ، 1999 م ، 3519/8 .

الصغير أو الأبوة أو غيرها والكل باطل سوى الثاني فالأول بالإجماع والثالث والرابع لقوله عليه السلام: «الثيب أحق بنفسها من وليها» (1) فتعين الثاني (2).

عند النحاة:

لم يكن المعنى الذي ذهب إليه النحاة بعيداً عما قرره الأصوليون ، فقد قال السيوطي: «هو أن يذكر الوجوه المحتملة ثم يسبرها - أي يختبرها - فيبقى ما يصلح ، وينفي ما عداه بطريقه (3) (4).

وعرفه الشاوي (5) ، أيضاً في «مختصره» الذي ألفه في أصول النحو بتعريف بتعريف لا يختلف عما قرره السيوطي حيث قال: «هو أن يذكر جميع الوجوه المحتملة ، لا غير المحتملة ، ثم يسبرها أي : يختبرها فيبقى ما يصلح للتعليل» (6).

أما ابن جني (7) ، الذي يعدّ أول من استخدم هذا المصطلح في كتابه «الخصائص» فلم يذكر لنا تعريفاً محدداً له ، وإنما اكتفى بذكر المصطلح فقط دون تعريف أو تحديد ، فقد بوّب في «خصائصه»: «باب في الاقتصار في التقسيم على ما يقرب ويحسن لا على ما يبعد ويقبح» (8).

- (1) أخرجه الإمام مسلم: بن الحجاج أبو الحسين القشيري النسابةوري في صحيحه في كتاب النكاح: باب (9) باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ، برقم (67) (1421) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، دار إحياء التراث العربي - بيروت / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
- (2) البحر المحيط في أصول الفقه لبلد الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ) تحقيق: د. محمد تامر. دار الكتب العلمية ، لبنان/ بيروت . الطبعة غير موجودة 2000 م . 200/4.
- (3) أي بطريق النفي عند ابن علان ، وبطريقة الاختبار والنظر عند ابن الطيب الفاسي ، على اختلاف في تقدير ما يعود عليه الضمير في (بطريقة) ، انظر: داعي الفلاح لمخبات الاقتراح لابن علان الصديقي المكي ، دراسة وتحقيق عز الدين أحمد عبد العالي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، جامعة 7 أكتوبر ، سنة 2005 م ، 184 ، فيض نشر الاشراف من روض طي الاقتراح لابن الطيب الفاسي ، تحقيق وشرح د. محمود يوسف فجال ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، ط 1 ، 2000 م ، 964/2 .
- (4) الاقتراح في علم أصول النحو 97.
- (5) الشيخ يحيى المغربي بن محمد بن محمد النابلي الشاوي الجزائري المالكي. له مؤلفات كثيرة منها: حاشية على شرح السنوسية. وحاشية على شرح الألفية للمرادي. توفي سنة 1096هـ . انظر ترجمته في سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي 565/4 دار الكتب العلمية - بيروت تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض ط 1 ، 1998 م ، الإعلام للزركلي ، دار العلم ، بيروت ، ط 7 ، 1986 م ، 169/8 .
- (6) المختصر في أصول النحو ليحيى بن محمد الشاوي ، دراسة وتحقيق أحمد طه حسنين سلطان ، دار البشرى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط 1 ، 2005 م ، 91 .
- (7) هو: عثمان بن جني ، أبو الفتح الموصلي النحوي اللغوي (ت 392هـ) ، صاحب التصانيف . انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. لشمس الدين الذهبي / المكتبة التوفيقية. الأعلام للزركلي 202/4.
- (8) الخصائص لابن جني ، 69/3.

وتبعه كذلك الأنباري⁽¹⁾ في «لمع الأدلة» إذ اكتفى بذكر أقسام التقسيم دون أن يعرف المصطلح أو يحدده؛ فقال: «فأما الاستدلال بالتقسيم فيكون على ضربين»⁽²⁾.

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن السيوطي يُعدّ النحوي الأول الذي وضع حداً أو تعريفاً لهذا المصطلح، وهذا أمر لا غرابة فيه؛ فالسيوطي هو من اكتمل على يديه علم أصول النحو إذ استطاع في كتابه «الاقتراح» أن يجمع بين ما قاله ابن جني في «خصائصه» وبين ما قاله الأنباري في رسالته «لمع الأدلة» فهو بذلك: «استطاع أن يجمع شتات الأبحاث السابق عليه، وأن يؤلف بينها وينسقها ويجعل منها علماً محدد المعالم والمبادئ واضح القسّمات والأصول، ومن ثم كان محور عدد من الشروح والتعليقات»⁽³⁾.

وفي هذا المقام لا بد من الإشارة هنا إلى ملحوظتين:

- الأولى: جرت عادة الأصوليين والنحاة - ممن جمعوا بين هذين اللفظين في الذكر- أن يقدموا السبر على التقسيم. ومن خلال ما عرفنا من معنى لكل من هذين اللفظين يكون مقتضى العبارة: التقسيم والسبر، أي: بتقديم التقسيم على السبر؛ لأنه مقدم عليه في الواقع ونفس الأمر، فبعد أن يتم حصر الأوصاف وتقسيمها يتم بعد ذلك اختبارها وسبرها لإسقاط غير المناسب منها وإبقاء المناسب.

ويعلّل القرافي لذلك بقوله: «... قدموا السبر في العبارة لأنه أهم، وهو عادة العرب، تقدم الأهم في التعبير على غيره، والتقسيم إنما هو وسيلة للاختبار فأخر لذلك في عباراتهم»⁽⁴⁾.

ومنهم من يرى أنه لا مبرر لهذا التعليل فالسبر والتقسيم مصطلح أطلقه العلماء هكنا فيؤخذ كما ورد⁽⁵⁾.

- الثانية: إن معظم الأصوليين والنحاة الذين تعرضوا لتعريف السبر

- (1) هو: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله، أبو البركات النحوي كمال الدين ابن الأنباري (ت557هـ). انظر ترجمته في فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي 293/2، دار صادر - بيروت/ تحقيق: إحسان عباس ط1
- (2) في كتاب «لمع الأدلة في أصول النحو» ص: 127، طبع هو وكتاب الإغراب في جدل الإعراب، رسالتان للمؤلف لأبي البركات الأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1957م.
- (3) أصول التفكير النحوي، د. علي أبو المكارم، منشورات الجامعة اللبنانية، 1973م، 21.
- (4) نفاثس الأصول في شرح المحصول 3524/8، انظر أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط2، 2001م، 673/1.
- (5) اعتراض النحويين للدليل العقلي، د. محمد السبيهي، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 2005، 79.

والتقسيم لم يعرفوه مجزاً بل عرفوه مجتمع اللفظين ، في الوقت الذي اختلفوا فيه في تسميته؛ فبعضهم يسميه السبر وحده ، وبعضهم يسميه التقسيم وحده ، وقد سمي بهما معاً وهو الأكثر (1).

فالعكبري (2) ، وابن فلاح (3) ، والسيوطي والشاوي مثلاً من النحاة قد أطلقوا عليه اسم السبر والتقسيم (4) في حين أن الأنباري وابن جني وعلم اللورقي الأندلسي (5) اكتفوا بالتقسيم وحده دون السبر ، يقول علم الدين اللورقي: « ومن الطرق التي يعرف بها كون الكلمة اسماً: التقسيم » (6).

هل يُعدّ السبر والتقسيم أصلاً مستقلاً ؟

السبر والتقسيم من الأدلة الاستنباطية التي يستعان بها على معرفة ما يتعلق به الحكم (7) ، وذلك باستخراجه من مجموعة أشياء يجوز أن يتعلق بكل واحد

- (1) انظر مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ، د. عبد الحكيم أسعد السعدي ، 444.
 - (2) هو: عبد الله بن الحسين بن عبد الله أبو البقاء العكبري البغدادي الأزجي الحنبلي النحوي اللغوي الفرضي ، انظر ترجمته في معجم الأدباء 1515/4 لياقوت الحموي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، تحقيق: إحسان عباس / ط 1 1993 م.
 - (3) هو: ابن فلاح: منصور بن فلاح بن محمد ، الإمام العلامة النحوي ، صاحب المغني في النحو والكافي. (ت سنة 680). انظر ترجمته: في بغية الوعاة للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 302/2.
 - (4) انظر التبيين عن مذاهب النحويين للعكبري ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1986 م ، 275 ، وفيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح 977/2 ، والمختصر في أصول النحو للشاوي 91 . والمغني في النحو لابن فلاح (ت 680هـ) رسالة دكتوراة مقدمة من عبد الرزاق السعدي جامعة أم القرى 1984 م 84/1.
 - (5) هو: الإمام العلامة المقرئ ، النحوي ذو الفنون ، علم الدين أبو القاسم بن أحمد بن الموفق اللورقي. انظر ترجمته في إنباء الرواة للقفطي ، تحقيق محمد إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط 1 ، 1986 م ، 161/4.
 - (6) انظر المحصل في شرح المفصل لعلم الدين اللورقي ، تحقيق ودراسة مصباح عبد السلام رمضان ، رسالة ماجستير ، جامعة المرقب ، كلية الآداب والعلوم ، الخمس ، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، 2006 ، 2007 م ، 248 - 249.
 - (7) على خلاف عند الأصوليين في ذلك؛ فقد استدلل به جمهور العلماء انظر: البحر المحيط للزركشي 202/4 و الأشباه والنظائر للسبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي. دار الكتب العلمية ، لبنان - بيروت ، ط 1 1991 م ، 369/2 ، والتحبير شرح التحرير للمرداوي تحقيق د. عبد الرحمن الجبرين ، د. عوض القرني ، د. أحمد السراح ، مكتبة الرشد ، السعودية / الرياض الطبعة غير موجودة ، 2000 م ، 3356/7 وإرشاد الفحول للشوكاني محمد علي (ت 1255هـ) تحقيق محمد سعيد البلدي - دار الفكر - لبنان - بيروت 364/1.
- في الوقت الذي نفاه بعض العلماء انظر: كشف الأسرار عن أصول البزدوي عبد العزيز بن أحمد بن محمد ، علاء الدين البخاري (المتوفى : 730هـ) تحقيق: عبد الله محمود - دار الكتب العلمية ، لبنان - بيروت ط 1 1997 م ، 68/4 ، وقواطع الأدلة لأبي المظفر ، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي السمعاني (ت 489هـ) تحقيق: محمد حسن محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1999 م ، 230/2

منها الحكم ، ولا يتم ذلك إلا بالاستعانة بأدلة أخرى كالنظير⁽¹⁾والإجماع⁽²⁾ والقياس⁽³⁾مما يقتضيها سبر الوجوه المحتملة واختبارها ، وبهذا يكون السبر والتقسيم مفتقراً إلى هذه الأصول ، فالتقسيم كما عرفنا هو: استعراض الأقسام أو الأشياء التي يجوز أن يتعلق بها الحكم ، والسبر هو: اختيار هذه الأقسام وتنحيه ما لا يصلح منها استناداً إلى تلك الأصول ، ومن هنا يستمد السبر والتقسيم قيمته في الاستدلال ، إذ لا بد لكل معلول من علة ، فإذا بطلت العلة جميعها إلا واحدة وجب أن تكون الباقية صحيحة؛ إذ بطلان العلة جميعاً ممتنع⁽⁴⁾.

مكانته في الأصول النحوية :

ذهب السيوطي إلى جعل الاستدلال بالسبر والتقسيم مسلكاً من مسالك العلة⁽⁵⁾ ، ولم يذكره عند حديثه عن الأدلة الشتى الملحقة ، بالاستدلال النحوي ، وقد دأب النحاة والباحثون على إتباعه في ذلك كالشاوي في «مختصره»⁽⁶⁾ ، والدكتور علي محمد أبو المكارم في كتابه «أصول التفكير النحوي»⁽⁷⁾ والدكتور والدكتور محمود سليمان ياقوت في كتابه «أصول النحو العربي»⁽⁸⁾ ، فقد ذكروا الاستدلال بالسبر والتقسيم باعتباره مسلكاً من مسالك العلة.

في حين رأى الأنبا ري خلاف ذلك: إذ جعل الاستدلال بالسبر والتقسيم من جملة الاستدلالات الملحقة بالقياس⁽⁹⁾ ، ولم يشير إلى أنه مسلك من مسالك العلة العلة ، بل إنه لم يشير في رسالته «لمع الأدلة» إلى مسالك العلة ، واكتفى بالإشارة إلى قواعدها عند الحديث عن أوجه الاعتراض على القياس في رسالته الإغراب⁽¹⁰⁾.

وربما كان الأنباري في ذلك متأثراً ببعض الأصوليين ، إذ أنكر بعضهم أن

(1) النظير: هو الشبيه بما له مثل معناه وإن كان من غير جنسه كالفعل المتعدي نظير الفعل الذي لا يتعدى في لزوم الفاعل ، انظر: الحدود في النحو للرماني ضمن كتاب رسائل في النحو واللغة ، تحقيق مصطفى جواد ، 1989م ، 41.

(2) الإجماع عند النحاة هو أن يجمع أهل العربية على أن علة هذا الحكم كنا . انظر الاقتراح 95 .

(3) القياس: حمل فرع على أصل بعلة وإجراء حكم الأصل على الفرع ، انظر الإغراب 45 والاقتراح 203

(4) انظر اعتراض النحويين للدليل العقلي 81 .

(5) انظر فيض نشر الاشراف 951/2 وما بعدها .

(6) انظر المختصر في أصول النحو 91 .

(7) انظر أصول التفكير النحوي 199 .

(8) انظر أصول النحو العربي د. محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2000م ، 633.

(9) انظر لمع الأدلة 127 .

(10) انظر الإغراب في جدل الإغراب 54 - 62 .

يكون السبر والتقسيم مسلكاً من مسالك العلة⁽¹⁾ لأنهم يرون أن السبر يرجع إلى اختبار أوصاف المحل وضبطها ، والتقسيم يرجع إلى إبطال ما يظهر إبطاله منها ، فإذا لا يكون من الأدلة بحال ، وإنما تسامح الأصوليون بذلك⁽²⁾.

قواعد السبر والتقسيم :

للسبر والتقسيم قوانين جمعها بعض الباحثين من شتات أقوال الأصوليين والنحاة⁽³⁾ أظهرها :

1 - يقتصر في التقسيم على الاحتمالات القريبة دون البعيدة ، قاله ابن جنبي ومثل له بأمثلة منها: أن يقال في تمثيل (أيمن) لا يخلو أن يكون (أفعلاً) أو (فعلناً) أو (فيعلاً) فيجوز هذا كله ، لأن بعضه له نظير ، وبعضه قريب مما لا نظير له .. ولكن لا يجوز في قسمته أن تقول: لا يخلو (أيمن) أن يكون (أيفعاً) ولا (فعملاً) ، ولا (أيفما) ولا نحو ذلك؛ لأن هذه ونحوها أمثلة لا تقرب من أمثلتهم فيجتاز بها في جملة تقسيم المثل لها .. فإذا تناءت عن مثلهم إلى همنا لم تمرر بها في التقسيم ، لأن مثلها ليس مما يعرض الشك فيه ، ولا يسلم الفكر به ، ولا توهم الصنعة كون مثله⁽⁴⁾.

وكذلك نصّ الشاوي على هذا في «مختصره» عند حديثه عن (مروان) قال: «إما أن يكون (فعلان) أو (مفعلاً) أو (فعوياً) ... ولا يذكر في السبر (فعوان) ونحوه مما لا يقرب من الوجوه بخلاف مفعال مفتوح الميم ، فإنه قريب من مكسورها كمحراب»⁽⁵⁾.

2 - يكفي المقسم عند حصر العلل المحتملة أن يجتهد فيقول: بحثت فلم أجد ، فإن اعترض له معترض أجابه: «هذا منتهى قدرتي في السبر فإن شاركتني في الجهل بغيره لزمك ما لزمني وإن اطلعت على علة أخرى فيلزمك التنبه عليها حتى انظر في صحتها أو فسادها»⁽⁶⁾.

3 - إن ذكر المعترض علة أخرى لزم المستدل إبطالها ولا يعد منقطعاً⁽⁷⁾.

(1) انظر كشف الأسرار عن أصول البزدوي 84/4 ، وقواطع الأدلة 230/2.

(2) انظر إرشاد الفحول للشوكاني ، تحقيق أحمد عزو وعناية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1999م ، 126/2.

(3) انظر اعتراض النحويين على الدليل العقلي 85 .

(4) الخصائص 68/3 ، 70 ، وانظر الاقتراح 317 .

(5) المختصر في أصول النحو 91 .

(6) انظر المستصفي 77/2 .

(7) الانقطاع في المناظرة : العجز عن بلوغ الغرض المطلوب بها. انظر العدة في أصول الفقه القاضي أبو يعلى يعلى محمد بن الحسين بن محمد ابن الفراء (ت 458 هـ) تحقيق: د أحمد المباركي ، ط 2 - 1990 م ،

بمجرد ذكرها إلا إذا عجز عن إفسادها(1).

- شروط الاستدلال بالسبر والتقسيم(2):

اشترط بعض علماء أصول الفقه لصحة الاستدلال به شروط أهمها:

أن يكون الحكم في الأصل معللاً بوصف مناسب(3).

- أن يكون السبر حاصراً لجميع الأوصاف التي يمكن أن تكون علة.

- أن يحتمل الحكم أكثر من علة ليصح التقسيم ، فلو لم يحتمل إلا علة واحدة وجب حمله عليها(4).

أقسامه:

عرفنا مما سبق أن التقسيم هو ذكر الأشياء التي يجوز أن يتعلق الحكم بها؛ بحيث لا ندع شيئاً آخر مما يجوز أو يحتمل تعلق الحكم به ، ثم نختبر هذه الأقسام واحداً واحداً ، وهذا يعني أننا بغية سبر كل قسم يجب أن نبث في أدلة النحو ، فإذا وجدنا له مستنداً منها أقررناه وإلا فنيناه ، ومن هنا نخرج بثلاثة أقسام للسبر والتقسيم:

الأول: إما أن تبطل لذلك جميع الأقسام إلا قسماً واحداً يكون هو الذي يتعلق به الحكم.

الثاني: إما أن تبطل جميع الأقسام ، فيبطل القول الذي أخضع للسبر والتقسيم.

الثالث: إما أن تقرر جميع الأقسام لوجود النضير أو الدليل أو الإجماع.

وقد ذكر ابن جني جميع هذه الأقسام (5) ، أما الأنباري فقد ذكر قسمين فقط هما: الأول والثاني؛ حيث قال: «فأما الاستدلال بالتقسيم فيكون على ضربين أحدهما: أن يذكر الأقسام التي يجوز أن يتعلق الحكم بها فيبطلها جميعاً ، ويبطل بذلك قولهم ، والثاني: أن يذكر الأقسام التي يجوز أن يتعلق الحكم بها فيبطلها إلا الذي يتعلق به حكم من جهة فيصح قولهم» (6) ، وتبعه السيوطي في ذلك فنقلهما عنه (7) ، إلا أنه أشار إلى القسم الثالث حين ذكر تقسيم ابن جني لـ(أيمن) (1).

.1535/5

(1) انظر اعتراض النحويين على الدليل العقلي. 119

(2) انظر البحر المحيط 201/4 ، والتقريب والتجريب 195/3 ، وإرشاد الفحول 124/2.

(3) انظر شرح العضد لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب 236/2 ، 237 .

(4) انظر مباحث العلة في القياس عند الأصوليين 447 .

(5) انظر الخصائص 67/3 ، 68 .

(6) انظر لمع الأدلة 127 ، 131 .

(7) انظر الاقتراح 141 ، 142 .

. الاستدلال به :

لقد استعان النحاة بالسبر والتقسيم وخاصة القسم الأول منه ، أما القسم الثاني والثالث فجاءت الاستعانة بهما قليلة جداً.

- القسم الأول: إبطال جميع الأقسام إلا قسماً واحداً يكون هو الذي يتعلق به الحكم ومن ذلك:

العامل في المستثنى⁽²⁾: اختلف النحاة في عامل النصب في المستثنى ، فقال البصريون: العامل فيه الفعل المتقدم أو معنى الفعل بتوسط «إلا»؛ لأنه شيء يتعلق بالفعل معنى ، وقال المبرد⁽³⁾ منهم والزجاج⁽⁴⁾: العامل فيه إلا لقيام معنى الاستثناء بها ، ولكونها نائبة عن أستثنى ، كما أن حرف النداء نائب عن أنادي ، وقال الكسائي⁽⁵⁾: هو منصوب بأن مقدرة بعد إلا محذوفة الخبر ، فتقدير قام القوم إلا زيداً: قام القوم إلا أن زيداً لم يقم ، وقال الفراء⁽⁶⁾: «إلا» مركبة من «إن» و«لا» العاطفة ، فإذا انتصب الاسم بعدها فبـ «إن» ، وإذا تبع ما قبلها في الإعراب فبـ «لا» العاطفة. فكان أصل قام القوم إلا زيداً: قام القوم إن زيداً لا قام ، أي: لم يقم ، وقال بعضهم: هو منصوب بـ «أستثنى» ، كما أن المنادى منصوب بـ «أنادي» ، و«إلا» وحرف النداء دليلان على الفعلين المقدرين⁽⁷⁾.

استدل أبو البركات الأنباري⁽⁸⁾ من النحاة على أن العامل في المستثنى

(1) انظر الاقتراح 97 .

(2) انظر تفصيل المسألة: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري ، أبو البركات ، كمال الدين الأنباري (ت 577هـ) 212/1 ، المكتبة العصرية ، ط 1 2003 م .

(3) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، أبو العباس ، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه: الكامل. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (144/7).

(4) هو: إبراهيم بن السري بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (40/1).

(5) هو: علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء ، الكوفي ، أبو الحسن الكسائي: إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (283/4).

(6) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي ، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكريا ، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (1458/).

(7) انظر هذه الأقوال في الكتاب لسبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجليل ، بيروت ، ط 10 ، دت 310/2 ، شرح المفصل لابن يعيش ، عالم الكتب بيروت ، 76/2 ، التذييل والتكميل لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د. حسن هندلوي ، دار القلم ، دمشق ، ط 1 ، 2000م ، 182/8 . وفيض نشر الأشراف من روض طبي الاقتراح 972 وما بعدها.

(8) في كتابه لمع الأدلة صحيفة 128 وما بعدها .

النصب هو: الفعل المتقدم؛ بتقوية «إلا» بالسبر والتقسيم؛ قال: «لا يخلو نصب المستثنى في الواجب، نحو: قام القوم إلا زيداً؛ إما أن يكون بالفعل المتقدم بتقوية «إلا»، وإما أن يكون بـ«إلا»؛ لأنه بمعنى: «أستثني»، وإما أن يكون لأنها مركبة من «إن» المخففة، و«لا»، وإما أن يكون التقدير فيه: إلا أن زيداً لم يقم، بطل أن يكون العامل هو «إلا» بمعنى «أستثني»، وذلك من أربعة أوجه:

- الوجه الأول: أن هذا يبطل بقولهم: قام القوم غير زيد، فإن نصب غير لا يخلو: إما أن يكون بنفسه، أو بتقدير «إلا» أو بالفعل المتقدم؛ بطل أن يكون منصوباً بنفسه؛ لأن الشيء لا يعمل في نفسه، وبطل أن يكون منصوباً بتقدير «إلا»؛ لأنك لو قدرت «إلا» لصار التقدير: إلا غير زيد، وهذا التقدير يفسد المعنى، وإذا كان يفسد المعنى وجب أن يكون باطلاً، وإذا بطل أن يكون منصوباً بنفسه، وبطل أن يكون منصوباً بتقدير «إلا» وجب أن يكون منصوباً بالفعل المتقدم.

- الوجه الثاني: أنه لو كان «إلا» هو العامل، بمعنى: أستثني؛ لوجب النصب في النفي كما يجب في الإيجاب؛ لأنه في النفي بمعنى أستثني كما هو في الإيجاب.

- الوجه الثالث: أن هذا يؤدي إلى أعمال معاني الحروف، وإعمال معاني الحروف لا يجوز، ألا ترى أنه لا يجوز أن نقول: ما زيداً قائماً؛ على معنى: نفيت زيداً قائماً على أعمال معنى الحرف، فكذلك ها هنا.

- الوجه الرابع: أنه لو جاز النصب بتقدير «أستثني» لجاز الرفع بتقدير «امتنع» لاستوائها في حسن التقدير، وهذا القول حكى عن عضد الدولة (1) وقد سأل أبا علي الفارسي (2) وهما في الميدان - عن نصب المستثنى في الواجب؟ فقال: فقال: انتصب لأن التقدير فيه: أستثني زيداً، فقال له عضد الدولة: وهلا قدرت امتنع زيد فرفعت. فقال له أبو علي: هذا الذي ذكرته لك جواب ميداني، وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح، وبطل أيضاً أن يكون العامل فيه إلا لأنها مركبة من إن، ولا فخفت إن وركبت مع لا وذلك من وجهين.

أحدهما: أن «إن» إذا خففت لا تعمل على مذهب من ذهب إلى هذا القول.

(1) هو: عضد الدولة البويهبي فناخسرو، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي، أبو شجاع... قال الزمخشري (في ربيع الأبرار) «وصف رجل عضد الدولة فقال: وجهه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب! كان شديد الهيئة، جباراً عسوفاً، أديباً، عالماً بالعربية، ينظم الشعر، نعتة الذهبي بالحنوي، وصنف له أبو علي الفارسي «الإيضاح» و«التكملة». انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (5/156).

(2) هو: أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي: أحد الأئمة في علم العربية. (ت377هـ) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (2/179).

الثاني: أن الحرف إذا ركب مع حرف غيره خرج كل واحد منهما عن حكمه وثبت له بالتركيب حكم لم يكن له في حالة الأفراد، وهو لا يقول في إلا كذلك بل يزعم أن كل واحد من الحرفين باق على أصله وعمله بعد التركيب كما كان قبل التركيب، فينصب باعتبار «إن» ويرفع باعتبار «لا» ويعمل عملين كـ «حتى»، فإنها تعطف تارة وتجرّ أخرى، وحتى يخرج على ما ذكرنا فإنه ليس بمركب، وإنما هو حرف واحد يعمل بتأويل حرفين مختلفين، فإن ذهب به مذهب العطف لم يتوهم غيره، وإن ذهب به مذهب حرف الجر لم يتوهم غيره، بخلاف «إلا» فإنها مركبة عنده من «إن» و«لا» وهما منطوق بهما فإذا اعتمد على أحدهما بطل عمل الآخر وهو منطوق به فبان الفرق بينهما.

وبطل أيضاً أن يكون نصب المستثنى لأن تأويله: إلا أن زيدا لم يقيم؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون الموجب للنصب هو أنه لم يفعل، أو «أن» فإن أراد أن الموجب للنصب أنه لم يفعل فيبطل بقولهم: قام زيد لا عمرو، وإن أراد أن «إن» هي الموجبة للنصب، كان اسمها وخبرها في تقدير اسم فلا بد أن يقدر له عامل يعمل فيه وفيه وقع الخلاف⁽¹⁾.

وهكذا وبعد أن قسم الأنباري هذه الأقوال وسبرها واختبرها خلص إلى نتيجة نهائية حيث قال: وإذا بطل أن يكون العامل للنصب «إلا» لأنها بمعنى «أستثني» أو أنها مركبة من «إن» و«لا»، أو لأنّ التقدير إلا أن زيدا لم يقيم، وجب أن يكون العامل للنصب الفعل المتقدم بتقوية «إلا»⁽²⁾.

ولمعترض أن يعترض فيقول: إن هذا التقسيم غير حاصر؛ لأنه من الممكن أن يكون ثمة استثناء ليس فيه فعل ولا ما يشبه الفعل نحو: دنائرك ذهب إلا الدينار، فيبطل هذا الاستدلال؛ لأن التقسيم ينبغي أن يكون حاصراً، وهذا تقسيم غير حاصر، فلا يصح الاستدلال⁽³⁾.

. اسمية كيف:

ذهب الأخفش⁽⁴⁾ وتبعه ابن الحاجب⁽⁵⁾ إلى أن كيف ظرف (1)، وعند

(1) انظر لمع الأدلة 128، 131. والتبيين عن مذاهب النحويين 343.

(2) السابق نفسه 131.

(3) انظر أبو البركات الأنباري ودراساته النحوية، د. فاضل السامرائي، مطبعة اليرموك، دار الرسالة للطباعة بغداد، ط 1، 1975م، 183.

(4) هو: الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ: سعيد بن مسعدة أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط نحوي، عالم باللغة والأدب، وأخذ العربية عن سيبويه (ت 215 هـ) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (3/ 101).

(5) هو: عثمان بن عمر ابن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية. (ت 646 هـ)، انظر ترجمته في

سيبويه وغيره من النحاة اسم⁽²⁾، بدليل إبدال الاسم منه نحو: كيف أنت أصحح أم سقيم؟، ولو كان ظرفاً لأبدل منه الظرف نحو: متى جئت أيوم الجمعة أم يوم السبت؟⁽³⁾.

وذهب هشام الضرير النحوي الكوفي⁽⁴⁾، إلى أنها حرف نسق، وزعم أنه لا ينسق بها إلا بعد نفي⁽⁵⁾، استدلل ابن يعيش⁽⁶⁾ على اسميها بالسبر والتقسيم؛ حيث قال: والصحيح أنها اسم صريح غير ظرف... فإن قيل: ومن أين زعمتم أن «كيف» اسم؟ وهلا قلت أنها حرف لامتناع خواص الأسماء والأفعال منها؟ قيل: إنما قلنا ذلك؛ لأنها لا تخلو إما أن تكون اسماً أو فعلاً، أو حرفاً. فلا تكون حرفاً؛ لأنها تفيد مع الاسم الواحد ويكون كلاماً نحو كيف أنت؟ والحرف لا يفيد مع الاسم إلا في باب النداء، وليس هذا بنداء، ولا تكون فعلاً؛ لأنها تفيد مع الفعل، نحو كيف أصبحت؟ والفعل لا يفيد مع الفعل، ولا يكون منهما كلام، وأيضاً فإنه على زنة «فعل» بسكون العين وليس في الأفعال ما هو على هذه الزنة⁽⁷⁾، وإذا بطل أن يكون حرفاً أو فعلاً تعين أن يكون اسماً.

. علة بناء المنادى المفرد على الضم:

استدل القاسم الخوارزمي⁽⁸⁾، على علة بناء المنادى المفرد على الضم بالسبر والتقسيم قال: «لأنه لا يمكن بناؤه على الفتح، ولا على الكسر، فتعين الضم، أما امتناع الفتح فلأن المنادى قد كان له هذه الحركة من قبل الإعراب، فلو بنيت على الفتح لأوهم الحركة الإعرابية، وحينئذٍ يختل الغرض المطلوب بالبناء،

الأعلام للزركلي (4/ 211)

- (1) انظر شرح الرضى على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي، 3/ 205.
- (2) انظر الكتاب 4/ 233، وشرح المفصل لابن يعيش 4/ 109.
- (3) انظر التبيين عن مذاهب النحويين 24، و فيض نشر الأشرار من روض طي الاقتراح 980.
- (4) هشام بن معاوية أبو عبد الله الضرير النحوي الكوفي. (ت 209هـ). انظر ترجمته في نكت الهميان في نكت العميان للصفدي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1 2007م
- (5) انظر ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق وتعليق د. مصطفى أحمد النحاس، 1984م، 632/2.
- (6) هو: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا، موفق الدين الأسدي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت 643هـ): من كبار العلماء بالعربية. من كتبه «شرح المفصل» و«شرح التصريف الملوكي» لابن جني. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (8/ 206).
- (7) انظر شرح المفصل لابن يعيش 4/ 109 وما بعدها.
- (8) هو: القاسم بن الحسين بن أحمد الخوارزمي، مجدد الدين، الملقب بصدر الأفاضل (ت 617هـ): عالم بالعربية، له كتب، منها «شرح المفصل للزمخشري» في نحو ثلاث مجلدات، و«ضرام السقط» في شرح سقط الزند للمعري، و«التوضيح» في شرح المقامات. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (5/ 175).

وأما على الكسرة فلأنه لو بني عليه لأوهم ذلك بأن الاسم مضاف إلى ياء المتكلم ، وأنه قد اجتزئ عن الياء بالكسرة ، وإذا انتفى الفتح والكسر تعين الضم»(1).

ـ ما بين الظرفية والحرفية:

لما التعليقية(2) ، حرف عند سيبويه(3) ، تدل على ربط جملة بأخرى ربط السببية ، وهي حرف وجوب لوجوب ، وذهب ابن السراج(4) ، وأبو علي الفارسي ، وابن جنبي إلى أنها ظرف زمان بمعنى حين(5).

ورجح رأى سيبويه لأوجه منها: أنها ليس فيها شيء من علامات الأسماء ، وأنها تقابل «لو» . وأنها لو كانت ظرفاً لكان جوابها عاملاً فيها(6).

وذهب ابن هشام إلى أنها حرف ، واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم حيث قال : «قال سيبويه: إنها حرف وجود لوجود ، وقال الفارسي وجماعة : إنها ظرف بمعنى حين ، ورد بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14] ، وذلك أنها لو كانت ظرفاً لاحتاجت إلى عامل يعمل في محلها النصب ، وذلك العامل إما ﴿قَضَيْنَا﴾

أو ﴿دَلَّهِمْ﴾ (7) ، إذ ليس معنا سواهما ، وكون العامل ﴿قَضَيْنَا﴾ مردود بأن القائلين بأنها اسم يزعمون أنها مضافة إلى ما يليها ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ، وكون العامل ﴿دَلَّهِمْ﴾ مردود بأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وإذا بطل أن يكون لها عامل تعين ألا موضع لها من الإعراب ، وذلك يقتضي الحرفية»(8).

- موضع الضمائر في لولاي ولولاك:

ذهب الكوفيون إلى أن: الياء والكاف في «لولاي» و«لولاك» في موضع رفع وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش من البصريين ، وذهب البصريون إلى أن الياء والكاف في موضع جر بـ «لولا» . وذهب أبو العباس المبرد إلى أنه: لا يجوز أن

(1) انظر التخمير للخوارزمي ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1990م ، 334/1.

(2) انظر الخبر الداني في حروف المعاني للمراي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، محمد فاضل ، دار الآفاق ، بيروت ، ط2 ، 1983م ، 594 ، انظر ارتشاف الضرب 570/2.

(3) انظر الكتاب 234/4 ، 235 .

(4) هو محمد بن السري بن سهل ، أبو بكر ابن السراج(ت316هـ): أحد أئمة الأدب والعربية. من كتبه (الأصول) في النحو ، و (شرح كتاب سيبويه). انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (6/ 136).

(5) انظر المقتصد في شرح الإيضاح 1092/2 .

(6) انظر الخبر الداني 570.

(7) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ [سبأ: 14]

(8) انظر شرح قطر الندى لابن هشام تحقيق محمد محيي الدين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، 1994م ، 84-85.

يقال: «لولا» و«لولاك» ، ويجب أن يقال: «لولا أنا» و«لولا أنت» فيؤتى بالضمير المنفصل ؛ كما جاء به التنزيل في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31] (1).

اختار الرازي في «شرح للمفصل» رأى البصريين واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم قال: «هما في محل جر وعامل الجر فيهما «لولا» ؛ لأنه لا يخلو من أحد أمور ثلاثة ، وقد تعذر أن يكون رفعاً أو نصباً فيعني أن يكون محله جراً ، أما تعذر الرفع فلأن الياء والكاف ليستا علامة مرفوع فالمصير إليه إلى ما لا نظير له في كلامهم محال ، وأما امتناع النصب فلأن «لولا» حرف وليس بفعل له فاعل مرفوع حتى يكون الضمير في محل نصب (2).

. لِمَ كَانَ الْإِعْرَابُ فِي آخِرِ الْكَلِمَةِ ؟ :

استدل ابن يعيش على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: «إنه لم احتج إلى الإعراب ، لم يخل من أن يكون أولاً أو وسطاً ، أو آخراً. فلم يجز أن يكون أولاً؛ لأن الحرف الأول لا يكون إلا متحركاً ، فلو جعل الإعراب أولاً لم يعلم إعراب هو أن بناء ، ومع ذلك فإن من جملة الإعراب الجزم الذي هو سكون في آخر الأفعال ، فلو كان الإعراب أولاً لأمتنع منها الجزم؛ إذ الأول لا يمكن أن يكون ساكناً ، ولم يجعل وسطاً لأن بوسط الكلمة يعرف وزنها: هل هي على «فَعَلَ» كَ غَرَسَ أو «فَعِلَ» كَ كَتَفَ أو على «فَعِلَ» كَ عَضَدَ ، مع أن من الأسماء ما هو رباعي لا وسط له ، فلما امتنع الأول والوسط بما ذكرناه لم يبق إلا جعل الإعراب آخراً فاعرفه» (3).

. علة بناء الفعل الماضي على الفتح:

أجاب أبو البركات الأنباري عن هذه العلة مستدلاً بالسبر والتقسيم قال: «إنه لا يخلو إما أن يبنى على الكسر أو على الضم أو على الفتح ، بطل أن يبنى على الكسر لأن الكسر ثقيل ، والفعل ثقيل ، والثقل لا ينبغي أن يبنى على ثقيل ، وإذا كان الجر لا يدخله ، وهو غير لازم لثقله ، فألا يدخله الكسر الذي هو لازم كان ذلك من طريق الأولى ، وإذا بطل أن يبنى على الكسر ، بطل أن يبنى على الضم أيضاً لثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الضم أثقل ، وإذا بطل أن يبنى على الثقيل فلأن لا يبنى على الأثقل أولى.

(1) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 687/2 .

(2) عرائس المحصل مج 2/143 .

(3) انظر شرح المفصل لابن يعيش 152/1 .

الوجه الثاني: أن الضم أخو الكسر ، لأن الواو أخت الياء ألا ترى أنهما يجتمعان في الرفع نحو قوله:

- ولا تكثر على ذي الضغن عتياً ولا ذكر التجرم للذنوب

- ولا تسأله عما سوف يبلي ولا عن عيبه لك بالمغيد

- الوجه الثالث : إنما لم يبين على الضم لأن من العرب من يجتزئ بالضممة عن الواو فيقول في قاموا قام وفي كانوا كان قال الشاعر:

فلو أن الأطباء كان حوليو كان مع الأطباء الشفاء

وإذا بطل أن يبنى على الكسر والضم وجب أن يبنى على الفتح⁽¹⁾.

كما استدلل النحاة بهذا النوع في المسائل الصرفية ومن ذلك :

- وزن كلمة يَهَيِّرُ (2):

ذهب ابن جني إلى أن: وزنه يَفْعَلُ ، واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: «وليس يخلو من أن يكون يفعلاً ، أو فعياً أو فعلاً ، فلا يجوز أن يكون «فعياً» ؛ لأنه ليس في الكلام «فعيل» إنما هو مكسور الفاء نحو «حذيم» و«عثير» ، ولا يجوز أيضاً أن يكون «فعلاً» ؛ لأن الياء لا تكون أصلاً في ذوات الأربعة على هذه الصفة .. فإذا لم يجز أن يكون «يَهَيِّرُ» «فعلاً» ولا «فعياً» بقي أن يكون «يفعلاً» بمنزلة «يرمَعُ» و«يَعْمَلُ»⁽³⁾.

ولمعترض أن يعترض ويقول: يمكن جعل «يَهَيِّرُ» مكرراً من باب «يهياه»⁽⁴⁾ ، وقد أجاب ابن جني عن هذا بقوله: «محال لأن اللامين في «يهياه» بلفظ الفاء والعين بمنزلة «صلصل» و«قلقل» وكذلك «الوحوحة» و«الوزوزة» الحرفان الأولان بلفظ الآخرين وليس كذلك «يَهَيِّرُ» لاختلاف الراء والهاء ولو كان «يَهَيِّه» لكان ذلك كذلك لعمري ! فأما على هذا اللفظ فلا»⁽⁵⁾.

- الهمزة في زكرياء للتأنيث :

(1) انظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، مطبعة الترقى ، دمشق ، د.ط ، 1957م ، 306.

(2) اليهير الحجر الصلب الأحمر «لسان العرب» 269/5 وهي درجة من درجات حجم الحجر حين يكون ملء الكف .

(3) انظر المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى ، عبد الله أمين ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة ، ط1 ، 1953م ، 140/1 - 141 بتصرف .

(4) مصدر يهيه إذا دعا الإبل بقوله : ياه ياه انظر «لسان العرب» 564/13.

(5) انظر المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني 140 .

« زكرياء » اسم أعجمي ، فكان من حقه أن يقولوا فيه: منع من الصرف العلمية والعجمة كظائره ، وإنما قالوا: منع من الصرف لوجود همزة التأنيث فيه... وكان الذي اضطربهم إلى ذلك أنهم رأوه ممنوعاً معرفةً ونكرةً ، قالوا: فلو كان منعه للعلمية والعجمة لانصرف نكرة لزوال أحد سببي المنع ، لكن العرب منعت نكرة ، فعلمنا أن المانع غير ذلك ، وليس معنا هنا ما يصلح مانعاً من صرفه إلا ألف التأنيث... وإلا فهذا اسم أعجمي لا يعرف له اشتقاق حتى يدعى فيه أن الألف فيه للتأنيث ، على أن أبا حاتم⁽¹⁾ قد ذهب إلى صرفه نكرة ، وكأنه لحظ فيه العجمة والعلمية.

فاستدل الأتباري على أن الهمزة فيه للتأنيث بالسبر والتقسيم فقال: « والهمزة في « زكرياء » للتأنيث ؛ لأنها لا تخلو إما أن تكون أصلية أو منقلبة عن حرف أصلي أو للإلحاق أو للتأنيث. وبطل أن تكون أصلية ليس في أبنتهم ما هو على هذا البناء ، وبطل أن تكون منقلبة عن حرف أصلي ، لأن الواو والياء لا يكونان أصلاً فيما كان على أربعة أحرف ، وبطل أن تكون للإلحاق ، لأنه ليس في أصول أبنتهم ما هو على هذا البناء فيكون هذا ملحقاً به »⁽²⁾.

وختم بعد هذا السبر والتقسيم للأقوال إلى أنه: « إذا بطلت هذه الأقسام ، تعين أن تكون الهمزة فيه للتأنيث ، ولهذا لم ينصرف »⁽³⁾.

الهاء في هناه بدل عن أصل وليست أصلاً :

لقد استدل على هذا ابن الحاجب في « شرحه للإيضاح » فقال: « وإذا لم تكن هاء السكت فلا يخلو إما أن تكون أصلية أو زائدة ، ولا تكون زائدة ، لأن الهاء لا تزداد آخرًا ، فثبت أنها أصلية ، وإذا كانت أصلية فإما أن تكون هاء في الوصل أو بدلاً ، وليست هاء في الوصل بدليل قولهم: « هنوات ». فثبت أنها بدل عن أصل ، وإذا ثبت أنها بدل عن أصل لم يخل إما أن تكون عن ألف أو لا ، وقد ثبت أن أصلها واو وأنها في محل تنقلب فيه الواو ألفاً فثبت أنها مبدلة عن الألف »⁽⁴⁾.

(1) هو سهل بن محمد أبو حاتم السجستاني الجشمي النحوي اللغوي المقرئ (ت 255 هـ) ، عالما باللغة والشعر ، حسن العلم بالعروض. انظر ترجمته في إنباه الرواة للقفطي ، 58/2 .

(2) انظر البيان في غريب إعراب القرآن للأتباري ، تحقيق جودة مبروك ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 1 ، 2007 م .

(3) السابق نفسه.

(4) انظر الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب ، تحقيق وتقديم: موسى بناي العليلي ، وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، العراق ، ط 1 1983 م ، 410/2 .

. وزن كلمة ضهياء (1):

استدل القاسم الخوارزمي على أن وزنها فعلاء بالسبر والتقسيم قال: «لأنها لا تخلو من أن تكون «فعالاً» لا أو «فعيلاً» أو «فعلاء» ، وليست «فعالاً» ولا «فعيلاً»؛ لأنها لا تنصرف؛ فثبت أنها «فعلاء» (2).

. التاء والياء من عزويت (3) زائدتان:

ذهب ابن يعيش إلى أن الواو من «عزويت» أصلية ، والتاء والياء مزيدتين ، واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: «ووزنه» «فعليت» كـ «عفريت»؛ لأنه من «العفر» ، وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يجوز أن تكون الواو أصلاً على أن تكون الياء من الأصل أيضاً؛ لأنه يلزم منه أن تكون الواو أصلاً مع ذوات الأربعة ، وهو غير جائز ، ولا يجوز أن تكون الواو أصلاً والياء زائدة والتاء أصلاً ويكون وزنه «فعلياً»؛ لأنه يلزم منه أن تكون الواو أصلاً مع ذوات الثلاثة ، وذلك غير جائز أيضاً ، ولا تكون الواو والياء زائدتين معاً والتاء أصل؛ لأنه يصير وزنه «فعويلاً» ، وذلك بناء غير معروف فلا يحمل عليه (4).

وبعد هذا يخرج بالنتيجة الحاصلة في سبر الأقوال إلى أنه: «إذا لم يجز أن يكون «فعالاً» ولا «فعلياً» ولا «فعويلاً» حمل على «فعليت» كـ «عفريت» وتكون الواو من الأصل» (5).

. قلب الألف واواً في النسبة إلى الأسماء المنقوصة:

وذلك مثل «عمي» و«شجي» فقد استدل فخر الدين الرازي على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: «فلم يكن بدّ من أحد الأمور الثلاثة: إما حذف الألف وكسر الحرف الذي قبلها ، وإما قلب الألف إلى الياء ، وإما قلبها إلى الواو ، ولا سبيل إلى الحذف؛ لأن الإحجاف بما قلت حروفه ممتنع عندهم ، ولا إلى قلب الألف إلى الياء؛ حذاراً من اجتماع كسرة وثلاث ياءات ، فتعين المصير إلى قلبها واواً إذا نسبت عموي وشجوي» (6).

كما تم الاستدلال به في ترجيح بعض الوجوه الإعرابية ومن ذلك :

- (1) وهي المرأة تضاهاى الرجال في أنها لا تحيض. انظر « لسان العرب » 487/14 .
- (2) انظر التخميم 178/3 .
- (3) اسم بلد . بوزن عفريت: اسم بلد ، وقيل: اسم الداهية ، وقيل: هو القصير . انظر معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ) - دار صادر ، بيروت - ط 2 ، 1995م ، 4 / 119 .
- (4) انظر شرح المفصل 150/9 .
- (5) السابق نفسه 151/9 .
- (6) انظر عرائس المحصل من نفائس المفصل للرازي ، تحقيق ودراسة محمد سعيد زريقات ، المجلد الثاني ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر سنة 1989م ، 928 .

إثبات أن (كان) بمعنى (صار) في قول الشاعر:

بتبهاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كان فراخا بيوضها(1)

استدل ابن الحاجب على ذلك بالسبر والتقسيم وذلك أن «كان» لا تخلو من أن تكون: إما تامة أو زائدة أو ناقصة؛ فأما [امتناعها تامة] فلا أنه يجب أن يكون فراخاً حالاً، فيلزم أن يكون البيض في حال كونه فراخاً، وهو فاسد، وأما «الزائدة» فتفسد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى؛ أما اللفظ فلنصب فراخاً، وأما المعنى فللاخبار عن البيض بأنه فراخ، وأما التي فيها ضمير الشأن فللأميرين بعينهما، والناقصة إنما لم تستقم؛ لأنه يؤدي إلى عكس المعنى، لأنها تشعر ههنا بأن الفراخ سابقة على البيض؛ لأن المعنى يصير: كان البيض فراخاً وهو عكسه؛ لأن المعنى كان الفراخ بيضاً، فلما كان مؤدياً إلى عكس المعنى تعذر حمله على ذلك فحمل على «صار» والمعنى عليه(2).

معنى أغفلنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمْنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ (3)؛

اختلف العلماء في معنى «أغفلنا» في هذه الآية على قولين:

الأول: «أغفلنا» بمعنى: وجدنا قلبه غافلاً عن الذكر.

الثاني: «أغفلنا» بمعنى: جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر(4).

ذهب ابن جني إلى أن «أغفلنا» في الآية من باب «أفعلت الشيء» أي: صار وقته. وهذا على مذهبه لأنه يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة في قلبه؛ لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة. وأهل السنة على خلاف ذلك؛ إذ يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقاً له، وإلى العبد من حيث كونه مقروناً بقدرته واختياره(5).

استدل ابن جني على ذلك بالسبر والتقسيم قال: «ولن يخلو» «أغفلنا» هنا من أن يكون من باب «أفعلت الشيء» أي: صادفته ووافقتة كذلك... حكى الكسائي: دخلت بلدة فأعمرتها، أي: وجدتها عامرة... أو يكون ما قاله الخصم: أن معنى

(1) البيت لابن أحمر: عمرو بن أحمر الباهلي، انظر شعرة: جمع وتحقيق د. حسين عطوان، مطبوعات

مجمع اللغة العربية، دمشق، الطبعة وسنة الطبع غير موجودتين، ص 199.

(2) الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب 80/2.

(3) سورة الكهف، الآية 28.

(4) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، 1983م، 119/6، والكشاف للزمخشري،

دار الكتاب العربي، بيروت، 718/2.

(5) انظر ذيل «الكشاف للزمخشري» وهو حاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري

(ت 683)، 718/2 هامش 7.

«أغفلنا قلبه»: منعنا وصددنا ، نعوذ بالله من ذلك» (1).

ثم يُبطلُ بعد ذلك القول الثاني بقوله: «فلو كان الأمر على ما ذهبوا إليه منه ، لوجب أن يكون العطف عليه بالفاء دون الواو ، وأن يقال: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه» ، وذلك أنه كان يكون على هذا الأول علة للثاني ، والثاني مسبباً عن الأول ومطواعاً له ؛ كقولك: أعطيته فأخذ ، وسألته فبدل ، لما كان الأخذ مسبباً عن العطية والبدل مسبباً عن السؤال ، وهذا من مواضع الفاء لا الواو... فمجيء قوله تعالى: «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» بِ «الواو» دليلٌ على أن الثاني ليس مسبباً عن الأول؛ على ما يعتقد المخالف» (2).

وبعد هذا السبر والتقسيم يَخُصُّ ابن جني إلى النتيجة النهائية فيقول: «وإذا لم يكن عليه أي: لم يكن على معنى جعلنا قلبه غافلاً - كان معني «أغفلنا قلبه عن ذكرنا» أي: صادفناه غافلاً على ما مضى ، وإذا صودف غافلاً ، فقد غفل لا محالة» (3).

تعليق الجار والمجرور (لِلنَّاسِ) بـ (كَانَ) لِيُونُسَ: 2 في قوله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا لِيُونُسَ: 2﴾ (4)

اختلف المعربون في متعلق (لِلنَّاسِ) فذهب بعضهم إلى أنه: متعلق بمحذوف على أنه حال من (عَجَبًا) لأنه في الأصل صفة ، أو متعلق بـ (عَجَبًا) ولا يضر كونه مصدرًا ، وقيل: لأنَّ (عَجَبًا) مصدر واقع موقع اسم الفاعل ، أو اسم المفعول ، ومتى كان كذلك جاز تقديم معموله ، وقيل: هو متعلق بكان الناقصة ، وهذا مرتب على الخلاف في دلالة كان الناقصة على الحدث؛ فإن قلنا: إنها تدل على ذلك فيجوز وإلا فلا ، وقيل: هو متعلق بمحذوف على التبيين ، والتقدير في الآية: أكان إيحائنا إلى رجل منهم عجباً لهم (5).

ذهب ابن يعيش إلى أن (لِلنَّاسِ) متعلق بكان ، واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: (لِلنَّاسِ) متعلق بـ (كَانَ) وذلك لأنه لا يخلو إما أن يكون متعلقاً بـ (عَجَبًا) أو بـ (أَوْحَيْنَا) أو بـ (كَانَ) فلا يجوز أن يتعلق بـ (عَجَبًا) نفسها؛ لأنه مصدر ومعموله من صلته فلا يتقدم عليه. ولا يكون صفة لـ (عَجَبًا) على أنه

(1) انظر الخصائص 253/3 ، 254 .

(2) انظر الخصائص 254/3 .

(3) السابق نفسه 254/3 .

(4) سورة يونس الآية 2 .

(5) انظر الدر المصون للسمين الجلبى تحقيق: الشيخ علي محمد معوض وآخرين ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1994 م ، 3/4 ، وانظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 122/5

يتعلق بمحذوف؛ لتقدمه عليه ، والصفة لا تتقدم على الموصوف. ولا يجوز أن يتعلق بـ «أَوْحِينَا» لأنه في صلته ولا يجوز تقديمه عليه(1).

بـ «كَانَ» نفسها تعلق الظرف بالفعل(2).

وقد اعترض الأنباري على تعلق «لِلنَّاسِ» بـ «كَانَ» قال: «ولا يجوز أن تتعلق اللام بـ «كَانَ» لأنها لمجرد الزمان ولا تدل على الحدث الذي هو المصدر ، فضعفت فلم يتعلق بها حرف الجر»(3).

- العامل في (إذ) ظرف زمان في قوله تعالى: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ الْكَبِيرِينَ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِيذِئْتُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: 10] (4).

ذهب الأنباري إلى أن العامل في (إذ) فعل مقدر ، واستدل على ذلك بالسبب والتقسيم فقال: (إذ) ظرف زمان ، والعامل فيه لا يخلو إما أن يكون: (لَمَقَّتِ اللَّهُ) ، أو (مَقَّتِكُمْ) ، أو (تَدْعُونَ) ، أو فعل مقدر. بطل أن يقال: يعمل فيه (لَمَقَّتِ اللَّهُ)؛ لأن خبر المبتدأ قد تقدم على (إذ) وليس بداخل في صلته ، فلو أعملته في (إذ) لفصلت بين الصلة والموصول بخبر المبتدأ ، وهو أجنبي ، والفصل بين الصلة والموصول بأجنبي لا يجوز ، ولأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه ، وما يتعلق به يؤذن بنقصانه.

وبطل أن يعمل فيه (مَقَّتِكُمْ)؛ لأنهم مقتوا أنفسهم في النار ، وقد دعوا إلى الإيمان في الدنيا ، وبطل أن يعمل فيه (تَدْعُونَ)؛ لأن (إذ) قد أضيفت إليه ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف(5).

وبعد إبطاله لهذه الأقسام ؛ يقرر الأنباري أنه: «إذا بطلت هذه الأقسام يتعين أن يعمل فيه فعل مقدر ، وتقديره: مقتكم إذ تدعون ، أي: حين دعيتم إلى الإيمان فكفرتم ، وقيل تقديره: اذكروا إذ تدعون»(6).

- (سواء) هي الخبر في قولهم: (سواء على القيام والقعود):

استدل عبد القاهر الجرجاني على ذلك بالسبب والتقسيم فقال: «فإن قولنا: «سواء على القيام والقعود» لا يخلو من أمرين :

(1) شرح المفصل لابن يعيش 104/6 .

(2) السابق نفسه 104/6 .

(3) البيان في غريب إعراب القرآن دراسة وتحقيق: د. جودة مبروك محمد ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 1 ، 2007 م ، 369 .

(4) سورة غافر الآية 10 .

(5) البيان في غريب إعراب القرآن 644 .

(6) السابق نفسه 644 .

أحدهما: أن يكون سواء مبتدأ ، والقيام والقعود خبراً.

الثاني: أن يكون القيام والقعود مبتدأين وسواء خبراً.

فلا يجوز الأول؛ لأن سواء نكرة والقيام والقعود فيهما الألف واللام. ألا ترى أنك إذا قلت: زيد منطلق والرجل ذاهب ، لم يكن الخبر إلا ذاهب ومنطلق ، لأن زيد والرجل معرفتان ، وإذا كان كذلك علمت أن سواء خبر متقدم(1).

. القسم الثاني:

إطال جميع الأقسام ، فيبطل القول الذي أُخضع للسبر والتقسيم. وهذا القسم كانت الاستعانة به قليلة جداً عند النحاة ومن ذلك:

. الكاف في إياك وأخواتها :

ذهب الكوفيون إلى أن الكاف والهاء والياء من إياك وإياه وإيائي هي الضمائر المنصوبة ، وأن «إيّا» عماد ، وبه قال ابن كيسان(2) ، وذهب بعض النحاة إلى أن إياك بكماله هو الضمير وذهب البصريون إلى أن «إيّا» هي الضمير والكاف والهاء والياء حروف لا موضع لها من الإعراب(3) ، وذهب الخليل بن أحمد(4) إلى أن «إيّا» اسم مبهم أضيف إلى الكاف والهاء والياء(5).

اختار ابن يعيش رأي البصريين ، واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم فقال: «لأنه لو كان اسماً لكان له موضع من الإعراب ، ولو كان له موضع من الإعراب لكان إما رفعاً ، وإما نصباً وإما جراً.

فلا يجوز أن يكون مرفوعاً؛ لأن الكاف ليست من ضمائر الرفع. ولا يجوز أن يكون منصوباً ؛ لأنه لا ناصب له ، ألا ترى أنك إذا قلت: إياك أخاطب. كانت «إيّا» هي الاسم بما ذكرناه من الدليل ، وإذا كانت الاسم كانت مفعولة لهذا الفعل ، وإذا كان كذلك فبقي الكاف بلا ناصب ، إذ هذا الفعل لا يتعدى إلى أكثر من مفعول.

(1) كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ، تقيق: كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، دار الرشيد ، الطبعة غير موجودة ، 1982م ، 1 / 294.

(2) هو: محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أبو الحسن ، المعروف بابن كيسان (ت299 هـ): عالم بالعربية ، نحواً ولغة... من كتبه «تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها» و«المهذب» في النحو و«غلط أدب الكاتب» و«غريب الحديث» و«معاني القرآن» و«المختار في علل النحو» . انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (5/ 308).

(3) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 695/2 .

(4) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليماني ، أبو عبد الرحمن (ت170 هـ): من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، أخذ من الموسيقى وكان عارفاً بها. وهو أستاذ سيبويه النحوي. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (2/ 314).

(5) انظر الكتاب 279/1 .

ولا يجوز أيضاً أن يكون مجروراً؛ لأن الجرّ في كلامهم إنّما هو من وجهين : إما بحرف جر ، وإما بإضافة اسم. ولا حرف جرّ هاهنا يكون مجروراً به ، ولا يجوز أن يكون منخفضاً بإضافة «إيا» إليه؛ لأنه قد قامت الدلالة على أنه اسم مضمّر ، والمضمّر لا يضاف» (1).

وبعد إبطاله جميع الأقسام يقرر ابن يعيش بأنه: «إذا ثبت أنه ليس باسم كان حرفاً؛ بمعنى الخطاب مجرداً من مذهب الاسمية» (2).

. حرف الإعراب في التثنية والجمع:

ذهب سيبويه إلى أن الألف والواو والياء هي حروف الإعراب (3) ، وذهب أبو الحسن الأخفش وأبو العباس المبرد وأبو عثمان المازني (4) إلى أنها: دلائل على الإعراب وليست بإعراب ولا حروف إعراب (5).

ردّ الأنباري قول الأخفش والمبرد والمازني معتمداً في ذلك على السبر والتقسيم فقال: «وأما من ذهب إلى أنها تدل على الإعراب وليست بحروف إعراب ففاسد ، لأنه لا يخلو إما أن تدلّ على الإعراب في الكلمة أو في غيرها ، فإن كانت تدل على الإعراب في الكلمة ، فلا بد من تقديره فيها ، فيرجع هذا القول إلى القول الأول ، وهو مذهب سيبويه ، وإن كانت تدل على إعراب في غير الكلمة فليس بصحيح ، لأنه يؤدي إلى أن يكون التثنية والجمع مبنيين ، وليس بمذهب لقائل هذا القول وإلى أن يكون إعراب الكلمة ترك إعرابها» (6).

. نداء الاسم المحلى بال :

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز نداء ما فيه الألف واللام ، نحو: يا الرجل ويا الغلام وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز (7).

استدل صدر الأفاضل القاسم الخوارزمي على إبطال رأي الكوفيين بالسبر والتقسيم فقال: «لأنه لو نودي لا يخلو من : أن ينادى نداء تنكير.

(1) شرح المفصل لابن يعيش 98/3 ، 99 .

(2) السابق نفسه 98/3 ، 99 .

(3) انظر الكتاب 18/1 ، 19 .

(4) بكر بن محمد بن حبيب بن بقية ، (249هـ): أحد الأئمة في النحو. له تصانيف. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي 69/2 .

(5) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 33/1 ، أسرار العربية 51 ، 52 .

(6) أسرار العربية 52 .

(7) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 335/1 ، 336 .

أو نداء تعريف.

وكلا القسمين ممتنع ، أما أنه لا ينادى نداء تنكير؛ فلأن المعرف باللام لا يقبل التنكير؛ إذ لو قبله لتعطلت الكلمة من المعنى رأساً ، وذلك لا يجوز.

أما أنه لا ينادى نداء تعريف؛ فلأن المعرف باللام لا يقبل التنكير؛ لأن نداء التعريف إنما يكن حيث يكون الاسم قبل النداء منكرًا فيستفيد بالنداء مع الضم التعريف ، والمعرف باللام على ما ذكرنا لا يقبل التنكير»(1).

- دخول اللام في خبر «لكن»:

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز دخول اللام في خبر «لكن» كما يجوز في خبر «إن» ، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز دخول اللام في خبر «لكن» (2) اعتمد السيوطي على السبر والتقسيم في إبطال رأي الكوفيين ، فقال: «لو جاز دخول اللام في خبر «لكن» لم يخل إما أن يكون لام التأكيد أو لام القسم ، بطل أن يكون لام التوكيد؛ لأنها إنما حسنت مع «إن» لاتفاقهما في المعنى وهو التأكيد ، و«لكن» ليست كذلك.

وبطل أن تكون لام القسم؛ لأنها إنما حسنت مع «إن»؛ لأن «إن» تقع في جواب القسم كاللام ، و«لكن» ليست كذلك»(3).

ثم يخلص السيوطي إلى أنه: «إذا بطل أن تكون لام التوكيد ولام القسم بطل أن يجوز دخول اللام في خبرها»(4).

. (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) الذاريات: 17(5).

ذهب الأنباري إلى أن (مَا) في الآية مزيدة؛ لأنه لا يجوز أن ينصب (قَلِيلًا) بـ (يَهْجَعُونَ) إلا و (مَا) زائدة ، ولا يجوز أن ينصب بـ (يَهْجَعُونَ) و (مَا) مصدرية؛ لأنه فيه تقديم الصلة على الموصول(6).

واستبعد أن تكون (مَا) في الآية نافية ، حيث قال معتمداً على السبر والتقسيم: «لأنه لا يخلو إما أن يكون (مِنَ اللَّيْلِ) صفة لـ (قَلِيلًا) ، أو متعلقاً به (يَهْجَعُونَ) بعد حرف النفي.

بطل أن يكون صفة لـ (قَلِيلًا)؛ لأنه يكون ظرف زمان ، وظروف الزمان لا

(1) التخميم 340/1 .

(2) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 208/1 ، 209 .

(3) الاقتراح 98 .

(4) السابق نفسه 98 .

(5) سورة الذاريات الآية 17 .

(6) انظر البيان 689 ، 690 ، الدر المصون 186/6 .

تكون أخباراً عن الجثث.
وإن جعلته متعلقاً بـ «يَهْجَعُونَ» بعد حرف النفي قدمت ما في حيز النفي عليه ، وذلك لا يجوز» (1).

. «هُدَى» في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَرَبِّ فِيهِ هُدًى﴾ البقرة: 2 (2)

أجاز أبو إسحاق الزجاج أن يكون موضع «هدى» رفعاً قال: «ويجوز أن يكون موضعه رفعاً من جهات: إحداها أن يكون خبراً بعد خبر كأنه قال: هذا ذلك الكتاب هدى ، أي: قد جمع أنه الكتاب الذي وعدوا به وأنه هدى ، كما تقول: هذا حلو حامض ، تريد أنه قد جميع الطعمين» (3).

لم يسلم أبو علي الفارسي للذي ذهب إليه أبو إسحاق الزجاج واستدل على ذلك بالسبر والتقسيم ، فقال: «فأما ما أجازته أحد شيوخنا في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَرَبِّ فِيهِ هُدًى﴾ من أنه بمنزلة حلو حامض ، أي: هو كتاب وهو هدى؛ فالقول في إجازة هذا على الوجه الذي ذكره مشكل؛ وذلك أن ارتفاعهما لا يخلو:

- من أن يكون بأنها خبر المبتدأ.

- أو يكون الثاني تابعاً للأول.

فإن قيل: يرتفع الاسمان بأنهما خبر المبتدأ ، قيل: لم نر شيئاً رافعاً يرفع اسمين على هذا الحد.

فإن قلت: إن الثاني تابع للأول ، فليس يجوز أن يكون الثاني بدلاً من الأول؛ لأن الأول مراد ، كما أن الثاني كذلك ، ومن ثم لم يجوز أن يكون الثاني صفة للأول ، والصفة أبعد أن تجوز؛ لأنك لا تصف الحلو بأنه حامض وإنما تخبر عن الأول أنه قد جمع الطعمين ، ولا مدخل ههنا لشيء من باقي التوابع ، فإذا بعد هذان ولم يخل منهما ثبت إشكال المسألة» (4).

القسم الثالث :

وهو أن تقرر جميع الأقسام لوجود ما يؤديها من الأدلة ومن أمثلة هذا النوع:

. بناء (كم) و(كنا) :

(1) البيان 689 .

(2) سورة البقرة الآية 2 .

(3) معاني القرآن وإعرابه للزجاج شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، ط1 ، 1988م ، 70/1 .

(4) الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، الطبعة غير مرقومة ، 1965م ، 147/1 .

استدل ابن الحاجب بهذا النوع من السبر والتقسيم على بناء «كم» و«كنا» ، فأما «كم» : «فيجوز أن يكون لشبهها بأختها لفظاً وأصل معنى وهو كتابة للعدد ، أو لوضعها على حرفين كوضع الحروف ، أو لأنها نقيضة «رب» أو لتضمنها معنى الإنشاء ، وهو في الغالب بحرف ، فكأنها تضمنت حرفاً مقدراً ، ولذلك استحقت صدر الكلام» (1).

وأما كنا : «فَعَلَّةٌ بناؤها إما أن نقول: لشبهها بـ«كم» في معناها فألحقت بها ، وإما لأنها كاف التشبيه دخلت على «ذا» واستعملت كناية ، فبقيت على أصلها في البناء» (2).

.بناء (من):

استدل الأنباري بهذا النوع أيضاً على بناء «من» قال: فأما «من» فإنها بنيت؛ لأنها لا تخلو: إما أن تكون استفهامية ، أو شرطية ، أو اسماً موصولاً ، أو نكرة موصوفة ، فإن كانت استفهامية فقد تضمنت معنى حرف الاستفهام ، وإن كانت شرطية فقد تضمنت معنى حرف الشرط ، وإن كانت اسماً موصولاً فقد تنزلت منزلة بعض الكلمة وبعض الكلمة مبني ، وإن كانت نكرة موصوفة فقد تنزلت منزلة الموصولة» (3).

.وزن أيمن :

قال السيوطي: لا يخلو إما أن يكون أفعلاً أو فعلناً أو أيفلاً أو فيعلاً؛ لأنّ الأول كثير كـ«أكلب» وفعلن له نظير في أمثلتهم نحو خلبن(4) وعلجن(5) ، وأيفل نظيره أيتنق ، وفيعل نظيره صيرف» (6).

.إوي في قول الشاعر:

كما تدانى الحدأ الإوي(7) ، قال ابن جنبي: «وتقول في تمثيل إوي إذا قسمته: قسمته: لا يخلو أن يكون فعولاً كثدي ، أو فعياً كشعير أو فعياً كمثي إذا نسبت إلى مائة ، ولم تردد لامها أو فعلاً كظمر» (8).

وهكذا أقر ابن الحاجب والأنباري والسيوطي وابن جنبي في هذا النوع من الاستدلال بالسبر والتقسيم بجميع الأقسام لأنها جميعاً تثبت الحكم وتصححه.

(1) الإيضاح في شرح المفصل 523/1 .

(2) السابق نفسه 524/1 .

(3) أسرار العربية 30 .

(4) الخلبن المهزولة انظر لسان العرب مادة خلبن .

(5) ناقة علجن صلبة وامرأة علجن ماجنة انظر لسان العرب مادة علجن .

(6) الاقتراح 97 ، 98 .

(7) الأوي جمع الأوية يقال: أوى الطائر إلى الطائر إذا انظم إليه .

(8) الخصائص 69/3 ، 70 .

تطور الاستدلال بالسبر والتقسيم :

من الملاحظ من خلال ما تم عرضه أن الاستدلال بالسبر والتقسيم كان بسيطاً ، ولكن في بعض الأحيان يستخدم مركباً ، حيث تتداخل في الاستدلال الواحد عمليتان أو أكثر من الاستدلال بالسبر والتقسيم ، وذلك على النحو التالي :

- تقسيم أحد الأقسام الخاضعة للسبر وسبرها ، وذلك بعد الفراغ من تصفية قسمائه ، وبذلك تتداخل عمليتان من السبر والتقسيم.

- تقسيم وسبر قسمين من الأقسام الخاضعة للسبر في العملية الأولى ، وهذا يعني تداخل ثلاث عمليات من الاستدلال بالسبر والتقسيم.

- تقسيم أحد الأقسام الخاضعة للسبر في العملية الأولى وهذا يعني اجتماع عمليتين ثم تقسيم وسبر أحد أقسام العملية الثانية ، وبهذا تجتمع ثلاث عمليات (1).

وهذا أمثلة على ذلك :

- استدلال بذلك الأنباري في رده على الكوفيين بأن الابتداء لا يوجب الرفع: أنا نجدهم يبتدئون بالمنصوبات والمسكنات والحروف ، ولو كان ذلك موجبا للرفع لوجب أن تكون مرفوعة (2).

قال: « وأما المسكنات إذا ابتدئ بها فلا يخلو:

- إما أن تقع مقدمة في اللفظ دون التقدير.

- أو تقع مقدمة في اللفظ والتقدير.

فإن وقعت مقدمة في اللفظ دون التقدير ، كان حكمها حكم المنصوبات؛ لأنها في تقدير التأخير.

وإن وقعت مقدمة في اللفظ والتقدير فلا تخلو: إما أن تستحق الإعراب في أول وضعها ، أو لا تستحق الإعراب في أول وضعها ، فإن كانت تستحق الإعراب في أول وضعها نحو: «من» و«كم» وما أشبه ذلك من الأسماء المبنية على السكون فإننا نحكم على موضعها بالرفع بالابتداء ، وإنما لم يظهر في اللفظ لعل عارضة من ظهوره ، وهي شبه الحرف أو تضمن معنى الحرف.

وإن كانت لا تستحق الإعراب في أول وضعها؛ نحو الأفعال والحروف المبنية على السكون ، فإننا لا نحكم على موضعها بالرفع بالابتداء؛ لأنها لا تستحق شيئاً من الإعراب في أول الوضع ، فلم يكن الابتداء موجبا لها الرفع؛ لأنه نوع منه ، وهذا هو

(1) انظر أصول النحو في الخصائص لابن جني 199 .

(2) انظر الإنصاف في مسائل الخلاف 46 .

الجواب عن قولهم...»⁽¹⁾ ، وهكذا قسم الأنباري أحد الأقسام الخاضعة للسبر وسبرها.

دخول نون التوكيد الخفيفة على فعل جماعة النسوة :

ذهب الكوفيون إلى جواز ذلك ، وإليه ذهب يونس بن حبيب البصري⁽²⁾ وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز إدخالها في هذا الموضع.

أبطل قول الكوفيين الأنباري مستدلاً بالسبر والتقسيم ؛ حيث قسم وسبر قسمين من الأقسام الخاضعة للسبر في العملية الأولى ، وهذا يعني تداخل ثلاث عمليات من السبر والتقسيم ، قال : « يبطل إدخالها في فعل جماعة النسوة ، وذلك لأنك إذا ألحقته إياها لم يخل :

- إما أن تبين النونين مظهرتين.

- أو تدغم إحداهما في الأخرى .

- أو تلحق الألف فتقول يفعلنان.

بطل أن تبين النونين مظهرتين؛ لأنه يؤدي إلى اجتماع المثليين ، وذلك لا يجوز. وبطل أن تدغم إحداهما في الأخرى؛ لأن لام الفعل ساكنة ، والمدغم كذلك؛ فيلتقي ساكنان ، وساكنان لا يجتمعان ؛ فيؤدي إلى تحريك اللام مع ضمير الفاعل من غير فائدة ، وذلك لا يجوز.

وكان أيضاً يؤدي إلى اللبس ، لأنه لا يخلو: إما أن تحرك اللام

- بالفتح

- أو الضم

- أو الكسر

فإن حركتها بالفتح التبس بفعل الواحد إذا لحقته النون الشديدة ، نحو: تضربن يا رجل ، وإن حركتها بالضم التبس بفعل الجمع ، نحو: تضربن يا رجال. وإن حركتها بالكسر التبس بفعل المرأة المخاطبة ، نحو: تضربن يا امرأة ، فبطل تحريك اللام. وبطل أن تلحق الألف ؛ لأنه لا يخلو:

- إما أن تكسر النون لالتقاء الساكنين. - أو ترك ساكنة مع الألف.

بطل أن تكسر النون لالتقاء الساكنين؛ لأنها تجري مجرى نون الإعراب ، وذلك

(1) السابق نفسه ، 50 ، 51 .

(2) هو يونس بن حبيب الضبي بالولاء ، أبو عبد الرحمن ، ويعرف بالنحوي (ت 182هـ): علامة بالأدب ، كان إمام نحاة البصرة في عصره. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (8/ 261).

لا يجوز. وبطل أن تترك ساكنة مع الألف؛ لأنه يجتمع ساكنان على غير حده؛ لأنه لم ينقل ذلك عن أحد من العرب، ولا نظير له في كلامهم، وذلك لا يجوز؛ فإذا ثبت هذا فلسنا بمضطرين إلى إدخالها على صورة لم تنقل عن أحد من العرب وتخرج بها عن منهاج كلامهم» (1).

- أما الثالث، وهو الذي تقسم فيه أحد الأقسام الخاضعة للسبر في العملية الأولى وبذلك تجتمع عمليتان، ثم تقسم وتسبر أحد أقسام العملية الثانية، فقد استدل به ابن يعيش في عدم زيادة الواو أولاً، فقال: «الواو لا تزداد أولاً، وذلك أنها لو زيدت أولاً لم تخل من أن تزداد».

- ساكنة . - أو متحركة .

ولا يجوز أن تزداد ساكنة؛ لأن الساكن لا يبتدا به، وإن زيدت متحركة فلا تخلو من أن تكون:

- مضمومة - أو مكسورة - أو مفتوحة
فلو زيدت مضمومة لا طردّ فيها الهمز على حد «وَقَّتْ» و «أَقَّتْ».

وكذلك لو كانت مكسورة على حد «وسادة» و «إسادة» و «وشاح» و «إشاح»... ولو زيدت مفتوحة لتطرق إليها الهمز؛ لأنها لا تخلو من أن تزداد:

- في أول اسم - أو فعل

فالاسم بعرضية التصغير والفعل بعرضية ألا يسمى فاعله، وكلاهما يضم أوله، وإذا ضم تطرق إليه الهمز حينئذ... فلما كان زيادتها أولاً تؤدي إلى قلبها همزة، وقلبها همزة ربما أوقع لبساً وأحدث شكاً في أن الهمزة أصل أو منقلبة... فإذا لم يسلم لفظه لم يحصل الغرض» (2).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى التطور الذي لحق الاستدلال بالسبر والتقسيم.

خاتمة:

- إن أخذ النحاة بالسبر والتقسيم إنما هو كشف لنا عما تركه علم أصول الفقه في علم أصول النحو من تأثيرات؛ وظهور هذا التأثير بشكل جلي في استخدامهم له واستدلالهم به.

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف 652/2، 653.

(2) شرح المفصل لابن يعيش 150/9.

- يُعد أبو علي الفارسي (377هـ) أقدم النحاة الذين استدلوا بالسبر والتقسيم؛ إذ لم أقف على مَنْ استدلَّ به من النحاة قبله.
- استعان النحاة بالقسم الأول من السبر والتقسيم كثيراً، في حين كانت استعانتهم بالقسم الثاني والثالث قليلة.
- استدل النحاة بالسبر والتقسيم في المسائل النحوية والصرفية، وفي ترجيح الأوجه الإعرابية بعضها على بعض.
- يعتبر السبر والتقسيم من الأدلة العظيمة التي يمكن استخدامها في الرد على آراء الخصم.
- إن مفهوم السبر والتقسيم عند الأصوليين هو عينه عند النحاة.

فهرس المراجع:

- 1 أبو البركات الأنباري ودراساته النحوية، د. فاضل السامرائي، دار الرسالة للطباعة بغداد، ط1، 1975م.
1. ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق وتعليق د. مصطفى أحمد النحاس، ط1، 1984م.
2. إرشاد الفحول للشوكاني محمد علي (ت 1255 هـ) تحقيق محمد سعيد البدري - 1992م لبنان بيروت.
3. إرشاد الفحول للشوكاني، تحقيق أحمد عزووعناية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1999م.
4. أسرار العربية لأبي البركات الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبعة الترتقي، دمشق، 1957م.
5. الأشباه والنظائر للسبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن علي. دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، ط1، 1991م.
6. أصول التفكير النحوي، د. علي أبوالمكارم، منشورات الجامعة اللبنانية، 1973م.
7. أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط2، 2001م.
8. أصول النحو العربي د. محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.
9. اعتراض النحويين للدليل العقلي، د. محمد السبيهي، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 2005م.
10. الإعلام للزركلي، دار العلم، بيروت، ط7، 1986م.
11. الاقتراح في علم أصول النحول للإمام السيوطي، قدم له وضبطه وصححه، د. أحمد سليم الحمصي، د. محمد أحمد قاسم، جروس برس، ط1، 1988م.
12. إنباه الرواة لللفظي، تحقيق محمد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1986م.
13. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف: ذيل =الكشاف للزمخشري = لابن المنير الإسكندري (ت 683).
14. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت 577هـ)، المكتبة العصرية، ط1، 2003م.
15. الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب، تحقيق وتقديم: موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، العراق، ط1، 1983م.
16. البحر المحيط في أصول الفقه لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (ت 794)، تحقيق: د. محمد تامر. دار الكتب العلمية، لبنان/ بيروت. الطبعة غير موجودة 2000م.
17. بغية الوعاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
18. البيان في غريب إعراب القرآن دراسة وتحقيق: د. جودة مبروك محمد، مكتبة الآداب، القاهرة 2007م.
19. البيان في غريب إعراب القرآن للأنباري، تحقيق جودة مبروك محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2007م.
20. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. لشمس الدين الذهبي / المكتبة التوفيقية.

21. التبيين عن مذاهب النحويين للعكبري ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1986م.
22. التحبير شرح التحرير للمرداوي تحقيق د. عبد الرحمن الجبرين ، د. عوض القرني ، د. أحمد السراح ، مكتبة الرشد ، السعودية / الرياض الطبعة غير موجودة ، 2000م.
23. التخهير للخوارزمي ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، 1990م.
24. التذليل والتكميل لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د. حسن هندلاوي ، دار القلم ، دمشق.
25. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، دار الفكر ، 1983م.
26. حاشية التفنازاني على العضد ، سعد الدين التفنازاني مع العضد ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، 1983م.
27. الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي تحقيق : علي النجدي ناصف وآخرين ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، الطبعة غير مرقومة ، 1965م.
28. الحدود في النحو للرماني ضمن كتاب رسائل في النحو واللغة ، تحقيق مصطفى جواد ، 1989م.
29. الخبر الداني في حروف المعاني للمراذي ، تحقيق فخر الدين قباوة ، محمد فاضل ، دار الآفاق ، بيروت ، ط 2 ، 1983م.
30. الخصائص لابن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 4 ، 1999م.
31. داعي الفلاح لمخبات الاقتراح لابن علان الصديقي المكي ، دراسة وتحقيق عز الدين أحمد عبد العالي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، جامعة 7 أكتوبر ، سنة 2005م.
32. الدر المصون للسمين الجلابي تحقيق : الشيخ علي محمد معوض وآخرين ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1994م
33. ديوان شعر عمرو بن أحمر الباهلي : جمع وتحقيق د. حسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة وسنة الطبع غير موجودتين.
34. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي دار الكتب العلمية - بيروت تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض ط 1 ، 1998م.
35. شرح الرضي على الكافية ، تحقيق يوسف حسن عمر ، منشورات جامعة بنغازي.
36. شرح العضد لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب.
37. شرح المفصل لابن يعيش ، تحقيق : د. أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 2002م.
38. شرح فطر الندى لابن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط 1 ، 1994م.
39. الصحاح للفارابي أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ) تحقيق : أحمد عبد الغفور - دار العلم للملايين - بيروت ط 4 ، 1987م.
40. صحيح الإمام مسلم : بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ط 1 ، 2000م.
41. العدة في أصول الفقه القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد ابن الفراء (ت 458هـ) تحقيق : د أحمد المباركي ، ط 2 - 1990م.
42. عرائس المحصل من نفائس المفصل للرازي ، تحقيق ودراسة محمد سعيد زريقات ، المجلد الثاني ، رسالة دكتوراه ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر سنة 1989م
43. فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي ، دار صادر- بيروت / تحقيق : إحسان عباس ط 1
44. فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح لابن الطيب الفاسي ، تحقيق وشرح د. محمود يوسف فجال ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، دبي ، ط 1 ، 2000م.
45. قواطع الأدلة لأبي المظفر ، منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي السمعاني (ت 489هـ) تحقيق : محمد حسن محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1999م.
46. كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ، تقيق : كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، دار الرشيد ، الطبعة غير موجودة ، 1982م.
47. الكتاب لسبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط 10 ، 310/2.

48. الكشاف للزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 718/2 .
49. كشف الأسرار عن أصول البزدوي : عبد العزيز بن أحمد بن محمد ، علاء الدين البخاري (المتوفى : 730هـ) تحقيق : عبد الله محمود - دار الكتب العلمية ، لبنان بيروت 1997م .
50. لأبي البركات الأنباري ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ، 1957م .
51. لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار المعارف ، القاهرة .
52. لمع الأدلة في أصول النحو 7 ، طبع هووكتاب الإعراب في جلد الإعراب ، رسالتان
53. مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ، د. عبد الحكيم أسعد السعدي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط3 .
54. المحصل في شرح المفصل لعلم الدين اللورقي ، تحقيق ودراسة مصباح عبد السلام رمضان ، رسالة ماجستير ، جامعة المرقب ، كلية الآداب والعلوم ، الخمس ، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، 2006 ، 2007م .
55. مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، دار الحديث ، القاهرة .
56. المختصر في أصول النحوليحيى بن محمد الشاوي ، دراسة وتحقيق أحمد طه حسنين سلطان ، دار البشرى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 2005م .
57. معاني القرآن وإعرابه للزجاج شرح وتحقيق : د. عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ، ط1 ، 1988م .
58. معجم الأدباء لياقوت الحموي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، تحقيق : إحسان عباس / ط1 1993 م .
59. معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ) - دار صادر ، بيروت ط2 ، 1995م .
60. المغني في النحو لابن فلاح (ت680هـ) رسالة دكتوراة مقدمة من عبد الرزاق السعدي جامعة أم القرى 1984م .
61. المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق كاظم مرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية ، دار الرشيد ، 1982م ،
62. المنصف شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى ، عبد الله أمين ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة ، ط1 ، 1953م .
63. نفائس الأصول في شرح المحصول للإمام القرافي ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط3 ، 1999م .
64. نكت الهميان في نكت العميان للصفدي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط1 2007م .
65. نهاية السؤل شرح منهاج الوصول في علم الأصول للأسنوي ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر .

موقف إقبال من التصوف*

ميلود خلف الله*

الملخص :

محمد إقبال : الأب الروحي لدولة باكستان الحديثة ، مفكر إسلامي ذاع صيته و فكره وتراثه في مشارق الأرض ومغاربها واهتم بشؤون الحضارة الإسلامية، نشأة وصعودا وأفولا، ودعا المسلمين إلى العودة إلى الفكر والتراث لصياغة عالم جديد ومدنية أكثر إنسانية ، توفي سنة 1938 في التاسع من شهر أبريل.

الكلمات المفتاحية: محمد إقبال . التصوف . الحضارة الإسلامية . الفكر الإسلامي . الهند . العجم . الفرس .

Abstract :

Muhammad IKBAL poet, thinker and philosopher, lived in the Indian subcontinent environment. This environment contains many cultures: Western, Indian and Islamic. Each one of them has a position of mysticism. IKBAL could master all the civilizations; he had a critical position of mysticism: he accepted the part that built civilization and man and rejected laziness, underdevelopment and return back.

Key words: Muhammad IKBAL, mysticism, Islamic, Indian ,civilization

تمهيد:

التصوف نزعة إنسانية عرفتها الأمم والحضارات والفلسفات والأديان فقد وجد التصوف و عرف المتصوفون منذ القديم عند اليونان والفرس والهند كما ظهر ذلك بين أهل الأديان السماوية: اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .
والتصوف في المفهوم العام يراد به تلك النزعة الإنسانية والروحية التي وجدت مع الإنسان من قديم والتي كان أساسها الزهد في الدنيا ، وغايتها الاتصال

* محمد إقبال : الأب الروحي لدولة باكستان الحديثة ، مفكر إسلامي ذاع صيته و فكره وتراثه في مشارق الأرض ومغاربها واهتم بشؤون الحضارة الإسلامية، نشأة وصعودا وأفولا، ودعا المسلمين إلى العودة إلى الفكر والتراث لصياغة عالم جديد ومدنية أكثر إنسانية، توفي سنة 1938 في التاسع من شهر أبريل.
* جامعة محمد خيضر، بسكرة .

بالماء الأعلى مصدر كل خير وفيض وإشراق (1).

أولاً: التصوف الإسلامي نشأته وتطوره

لقد نشأ التصوف الإسلامي حقائق إيمانية عميقة ، وسلوك إسلامي سام ، فهو سعي نحو جعل الإيمان النظري شعوراً نفسياً غامراً ، وتحويله من عقل يتصور إلى قلب يعي ويتحرك. وتهذيب للنفس بتنزيهها عن الرذائل ، وتحليلها بالفضائل والاتقاء لقبول الله ورضوانه كما أنه نظر إلى الوجود الصغير في هذه الحياة على أنه جزء من الوجود الأكبر الممتد بعد الموت (2).

وقد تجلت هذه الحقائق والصفات في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تطبيقاً لتعاليم القرآن و هداياته ، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ قد افلح من زكاهها وقد خاب من دساها ﴾ الشمس / 9 ، 10.

وقد كان الصحابة ، والمسلمون في العهود الأولى يعبدون الله ويذكرونه ، ويغمر حبه قلوبهم ، ويؤثرون الدار الآخرة على الدنيا الفانية ، وكانوا مع ذلك ينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله ويكدحون في طلب الرزق ، ويجاهدون في سبيل الله كل ذلك في توازن وتكامل يعكس عندهم الصورة الحقيقية للإسلام ، كما جاء به القرآن وتجسد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته وحث عليه في سنته ، دون فصل بين إيمان وإسلام وإحسان.

ولم يكن هؤلاء يسمون بالتصوف ، ولا كان هناك شيء بعد ذلك يسمى بالتصوف ، والطرق الصوفية (3) ، فكيف نشأ التصوف الإسلامي علماً مستقلاً إذن ؟

نبادر فنقول إن جمع حقائق ما ، أو جانب من جوانب الثقافة تحت اصطلاح علمي أمر معهود ومألوف في الحضارات الإنسانية ، وتاريخها العلمي والثقافي... وقد ظهرت في تاريخ الإسلام العلمي والثقافي ،

ونشأت مجموعة من العلوم الشرعية واللغوية حسب الحاجة ، وتكيفاً مع طبيعة التطورات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، وقد تكاملت هذه العلوم وتساندت على شرح رسالة الإسلام (إسلاماً وإيماناً وإحساناً).

ولم يكن التصوف بظهوره في الإسلام علماً مستقلاً له موضوعه ومنهجه والمختصون فيه بدعا من العلوم ، فكما أدت الحاجة إلى ظهور النحو والعروض مثلاً في العربية ، ونشأة علم الكلام والعقيدة الإسلامية للدفاع عن عقائد الإسلام ، وعلم الفقه وأصوله للاستجابة لنمو المجتمع في حياته العلمية وتعقده الحضاري ، فقد ظهر التصوف في حضارة المسلمين ، ونشأ فرداً من أفراد أسرة العلوم الإسلامية

ليسد الحاجة لرسم المنهج الإسلامي للحياة الروحية والتربية الأخلاقية والسلوك الصحيح إلى الحق تبارك وتعالى ، ووصف مراتب النفس ، ومراحل تركيبها وتشخيص أمراض القلب وعلاجها وتخليصه من الرذائل ، وإرشاده إلى الفضائل (4) .

فظهر التصوف علما مستقلا كان أمرا واقعيًا ، وتطورا طبيعيا فقد كان أصله كما يقول ابن خلدون: «أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية... فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة» (5) ، فهو إذا مواجهة لواقع ، زاد من حيويتها والحاجة إليها تأكيد الفقهاء من الناحية الظاهرية و المتكلمين عن الجاني العقلي ، فكان لا بد من نفي طائفة لحماية روح الإسلام والعناية بالأحكام الشرعية المتعلقة بالباطن وأحوال القلب ، فكما يقول «جاويد إقبال» فقد ظهر التصوف في صورة احتجاج أو ردة فعل ضد المذهب الشكلي والمذهب العقلي والنفاق ليعاد إضرام نار العشق في قلوب الرجال (6) .

ولظهر التصوف بالوصف المذكور أسباب سياسية واجتماعية أيضا برزت بعد انهيار الحكم الراشدي ، والدولة الإسلامية الأولى.

لكن الذي ينبغي التأكيد عليه أن التصوف في نشأته الأولى كان إسلاميا بحتا ، ولم يكن بشكل من الأشكال تأثرا برهبانية مسيحية أو فلسفات دخيلة ، فهو لم يكن أكثر من ثمرة طبيعية للمبادئ الأخلاقية والأهداف الروحية التي رسمها القرآن للحياة البشرية ، وجسدها واقعيًا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في حياتهم.

ولذلك فما يمكن أن يوجد من اشتراك وتشابه بين المعاني الروحية في الإسلام والنصرانية ، ليس دليلا كما يتوهم جولد زيهر أو نيكلسون أو غيرهم من المستشرقين وغيرهم من دارسي التراث الإسلامي وثقافته (7) ، على تأثير الرهبانية المسيحية في الزهد الإسلامي ، لأن في ذلك جهلا وتغافلا عن الأصول الإسلامية لتلك المعاني ، وعمما يميز هذه الأصول ، وعن الأطر التي ترد ضمنها تلك القضايا الجزئية من وسطية الإسلام واعتداله ، وإقامته للتوازن بين المادة والروح ، والواقع والمثال.

والسؤال الذي يكون جوابا لمثل هذه الإدعاءات هو هل من أهداف القرآن أو مقاصد الإسلام نقض ونسخ كل ما جاءت به المسيحية؟! وهل على الإسلام حتى يكون أصيلا فيما يحتويه من معاني روحية مثلا أن لا يشبه ما جاء له شيئا من ما هو في المسيحية أو غيرها من الأديان ، بل والفلسفات والأفكار ، مهما كان صائبا أو فطريا؟!!

لا شك أن الإسلام جاء معريا للكذب على الله وفاضحا للافتراء على رسله الكرام مما خطته أيدي الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، لكن من الطبيعي أن نجد فيه تصديقا لما بقي من الحق في الدين الذي أوحاه تعالى إلى عيسى عليه السلام ، فلا ريب إن الحقائق لا تتعارض ، كيف وهي تصدر جميعها من مشكاة النبوة ، وتنبع كلها من منبع الحق؟!

والواقع أن الفرق شاسع بين رهبانية تهرب من الدنيا وتسحب من حركة الحياة ، وتصوف إسلامي يرى خوض معركة الحياة عبادة ، وفرصة لفعل الخير والتزود للقاء الله (8) ، وكما تظهر أصالة هذا التصوف الإسلامي في سلوك العباد والزهاد في الإسلام ، وخوضهم لمعارك الإصلاح والتغيير والعمل والجهاد ، فإنها تظهر في آثارها وأقوالهم.

فهذا الإمام الجنيد سيد الطائفة يقول: «من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدي به في هذا العلم ، لأن علمنا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسنة» (9) ، ويعرف الإمام عبد القادر الكيلاني الصوفي بقوله: «الصوفي من صفى باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم» (10) ، ويقول أبو سليمان الداراني: «ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيما ، فلا أقبل شيء منها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة» (11).

ويقول دون التون المصري : ومن علامات المحب لله سبحانه وتعالى متابعة حبيب الله ، محمد صلى الله عليه وسلم في أفعاله ، وأخلاقه ، وأوامره وسنته» (12).

ولكن الواقع الذي ينبغي أن يذكر أن التصوف شهد تطورات لم يحافظ فيها على صفائه الأول ، وسلامة انضباطه بمصادره الإسلامية النقية ، فقد أثرت فيه إلى جوار العوامل الإسلامية الأولى عوامل أجنبية ، وتيارات غريبة ، وأفكار دخيلة على روح الثقافة الإسلامية كالرهبانية المسيحية ، والفلسفة الهندية الفيديانتاوية ، والبوذية ، والمذهب الباطني الفارسي ، والفلسفة الأفلاطونية (13).

وقد أدى هذا التطور إلى الانتهاء ببعض أنواع التصوف إلى انحرافات وتبني نظريات الحلول والإتحاد ووحدة الوجود وغيرها من الفلسفات الهندية واليونانية (14)، ليتحول التصوف من خبرة وتجربة دينية إسلامية وتربية عملية سلوكية مصادرها القرآن والسنة إلى نظام ثيوصوفي روحي ، وتصوف فلسفي على يد كثير من رجاله أمثال: السهروردي ، وابن عربي وابن سبعين وغيرهم

ولا يعني هذا الانحراف أن التصوف الإسلامي النقي المحرر قد فقد نهائيا ، وأن الساحة قد خلت من التيار الصوفي الإسلامي الصادق المنضبط بضوابط

الشرعية ، بل لقد استمر ذلك التيار عند الكثيرين من أمثال الإمام عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد الرفاعي وأبي القاسم القشيري ، وابن تيمية وابن القيم ، وأحمد السرهندي ، فقد كان لظاهرة التصوف الفلسفي والأعجمي بأفكارها المنحرفة رد فعل قوي قام به هؤلاء الأئمة في تزييف وحدة الوجود ونظريات الإشراق والحلول والرد على أصحابها ، وبيان انحرافها عن الإسلام ، وانفلاتها عن ضوابط الشريعة ومنطلقات العقيدة الإسلامية وتصوراتها حول الكون والإنسان (15) .

ثانيا : علاقة إقبال بالتصوف

بعد هذه النبذة الموجزة المقتضية عن التصوف الإسلامي في نشأته الأولى وتطوره العام ، فإن الذي نريد معرفته والوقوف عليه هنا هو ما علاقة إقبال بالتصوف ، وما موقفه قبولا ورد من أفكار وأراء الصوفية ولماذا اهتم إقبال بالتصوف حتى صارت أفكاره وآراؤه حوله تمثل محورا جوهريا في فلسفته وشعره وفهمه لأمجاد المسلمين وحضاراتهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن في حياة إقبال و أسرته ميل شديد إلى التصوف .

فإقبال ورث التصوف من انحدره من أسرة كان جدها الأعلى البراهماني (لول حاج) الذي اعتنق الإسلام في القرن الرابع عشر واحدا من مشايخ الطرق الصوفية البارزين في (كشمير) ، وكان بعض أسلاف إقبال من الصوفية ، ول بعضهم كتابة وتأليف في ذلك ، ولما كان والد إقبال صوفيا ، وأسرتة على علاقة متينة بالتدين ، فقد أثر ذلك في ارتباط إقبال منذ طفولته بالطريقة القادرية نسبة إلى الصوفي والعالم الجليل عبد القادر الجيلاني.

فنشأة إقبال وتربيته كانت في أحضان النزعة الصوفية والتدين العميق ، والعبادة وقراءة القرآن. ومن ذلك الملفت للانتباه أن إقبالا قد زاده إقامته في أوروبا نزوعا إلى التصوف وهو يشير إلى ذلك حيث يقول: « إني بفطرتي أنزع إلى التصوف ، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه... » (16) .

ثالثا: تطور موقف إقبال من التصوف

إن الدارس لحياة إقبال وفكره ، يرى من يتهمه بمعاداة التصوف ومحاربتة ، ومن ينسب إليه الانتماء إلى التصوف الفلسفي والقول بوحدة الوجود ، وبين هذه الآراء المتطرفة كثيرا ما تضيع الحقائق ويغتال الإنصاف ، وإن كان التطرف في الحكم على العظماء والغلو في تقييمهم بين إفراط وتفريط وتقديس وتدني بات أمرا مألوفا ومسلكا معهودا له أسبابه وتفسيراته و دوافعه النفسية والاجتماعية ، عرفته حياة وأعمال وأراء أعظم العباقرة والكبار في التاريخ.

فهل فعلا انسلخ إقبال من التصوف وانقلب عليه محاربا ومعاديا بعد تلك التربية الصوفية ، أم أنه لم يكن صوفيا ممارسا فقط ، بل قائلا بوحدة الوجود؟ إن حل الإشكال يمكن في معرفة التطور أو المراحل التي تنقل بينهما إقبال في نظرتة إلى التصوف وفهمه له ، وخاصة موقفه من وحدة الوجود. ويمكن في هذا الصدد رصد مرحلتين مختلفتين (17) ، مر بهما في هذا الشأن إقبال ، فحاول تجلية معالم كل منهما في الفقرتين الآتيتين:

المرحلة الأولى:

يتجدد زمن هذه المرحلة في الفترة التي سبقت نشر ديوان أسرار الذات سنة 1915، فقد كان إقبال في هذه المرحلة من حياته متأثرا أشد التأثر بالتصوف والزهد المنتشر في بيئته الإسلامية الهندية ، كما كان متأثرا بالتيار السائد في فهم وشرح أقوال أعلام التصوف كالرومي والحلاج وغيرهما. فلم يكن غريبا أبدا أن يجد القول بالإتحاد والفناء طريقه إلى نفس إقبال وأن يكون إقبال مرتبطا بالتصوف الوجودي ، بانبا لأفكاره على أساس نظرية وحدة الوجود (18)، وهو في بيئة انتشر فيها فكر هذه النظرية بسبب تبني الشعر الفارسي لها وانطباعه بطابعها ، وقد كان النموذج الفارسي هو المتبع والأقوى تأثيرا في الهند ، يقول إقبال عن محاولة إثبات وحدة الوجود والنجاح في نشرها : « خاطب فلاسفة الهند العقل في محاولتهم إثبات وحدة الوجود ، وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا حتى أشاعوا هذه الفكرة العامة ، فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل » (19) . ولعل الذين نسبوا إلى إقبال القول بوحدة الوجود بالمعنى الصوفي إنما حكموا عليه حكما جزئيا ناقصا نظريا إلى هذه المرحلة من حياته.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي تبدأ منذ نشر إقبال لديوانه أسرار الذات ، فقد شهد فكر إقبال ونظرتة إلى التصوف تحولا واضحا ، لا سيما حول أفكار كالفناء والحلول والإتحاد . ويوضح إقبال سبب هذا التحول والتغيير الذي حدث في موقفه واتجاه شعره ، مبعدا أن يكون ذلك نتيجة لدراسته المعمقة للفلسفة الغربية ودراسته في أوروبا فيقول: « إني بفطرتي وتربيته أنزع إلى التصوف ، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه. فإن هذه الفلسفة في جملتها تنزع إلى وحدة الوجود ، ولكن تدبر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الإسلام بامعان عرفاني غلطي ، وبالقرآن عدلت عن أفكارى الأولى وجاهدت ميلي الفطري وحدثت عن طريقة أبائي » (20) .

إذا فسبب هذا التحول هو مزيد من المراجعة والنقد الذاتي ، والبحث عن الحقيقة من خلال تدبر القرآن ودراسة تاريخ الإسلام. دراسة واعية وتمعنة ، كشفت لإقبال ما في ذلك النوع من التصوف من انحراف وزيف ، وأفكار تأبأها روح الإسلام ، ولعل سببا آخر جعل إقبال لا يشك بحسه النقدي المرهف في جدوى هذه الأفكار ، وهو ما أورثته من نتائج وخيمة في وقع المسلمين الذين دب في أوصالهم الضعف والهزال ، وعمهم التخلف والخمول ، وروح التواكل والانهازم .

وهذا التحول والموقف الجديد من التصوف الوجودي والذي برز في الانتقادات التي وجهها إقبال لبعض الأسماء الصوفية المقدسة ، وظهر بقوة في نشر إقبال لديوانه أسرار الذات هو الذي كان وراء انتقاده من طرف كثير من مشايخ الصوفية والنقاد بأنه يعادي التصوف ويحاربه ، فقد احتوت الطبعة الأولى من ديوان الأسرار - مثلا - قطعاً شعرياً تنتقد بقوة مفهوم الحياة عند الشاعر الصوفي الفارسي الشهير حافظ الشيرازي الذي يلقبه الصوفية (لسان الغيب) ، ويعدونه قمة من قممهم (21) .

والواقع أن الغلو والتقليد الأعمى حجب عن هؤلاء الرؤية المتزنة ، وحرهم الموقف المنصف من انتقادات إقبال وموقفه من التصوف ، وكان عليهم أن يتعرفوا في حياد ويتساءلوا معنا عن الموقف الحقيقي لإقبال من التصوف ، هل كان إقبال حقاً معادياً للتصوف مطلقاً ، أم أنه كان بانتقاداته يريد إنصاف التصوف نفسه ، وتحريره مما شابهه من دخن ، وبذلك تتحول انتقاداته إلى عملية نقد ذاتي وإعادة بناء داخلي ، ودفاع ومحافظة وتجديد للتصوف نفسه ، إذا ما التصوف الذي رفضه إقبال ووجه إليه الانتقادات اللاذعة؟ وما هو التصوف الذي قبله ودعا إليه؟...

رابعاً: التصوف الذي يرفضه إقبال

كما ذكرنا فإن إقبالاً كان صوفياً فطرة وتربية وقد ضل إقبال متصوفاً مؤمناً بالمعرفة الصوفية في حياته كلها ، لكنه في مرحلته الثانية تناول بعض الاتجاهات الصوفية السائدة بالنقد والتمحيص ، بل والسعي إلى هدمها والثورة عليها.

فقد وجد إقبال أن التصوف السائد عجز عن تكوين إنسان القرآن الحر الفعال ، بل إنه قد أدى إلى تكوين مسلم ميت ضعيف ، لا وزن له ، وشعر بأن مثل هذا التصوف كفيل بالقضاء على المسلم وعلى إقصاء تأثير روح الإسلام والثقافة الإسلامية ، وتوجيه العقيدة الإسلامية. عن لعب دورها في حياة المسلم وبناء الإنسان الكامل ، بل رآها كفيلاً بإلغاء الشريعة الإسلامية والتحلل منها.

ولذلك نجده ينتقد التصوف السلبي أو ما سماه هو بالتصوف التزهدي ، ويرفض الرهبانية ، ويشور على وحدة الوجود وما يتبعها من الإتحاد والحلول

والفناء ويناقشها مناقشة نظرية في ضوء القرآن والتطبيق النبوي الواقعي لتعاليمه ، كما أنه ينتقد من الناحية العلمية بعض المظاهر السيئة للتصوف الكاذب والمتاجرة بالدين والزهد...

فالتصوف التزهدي كما يعبر إقبال نشأ متأثراً بطابع غير إسلامي فهو يقول عنه: «... ثم كانت نشأة التصوف التزهدي ونموه متأثراً في تطوره التدريجي بطابع غير إسلامي» (22).

ويقرر إقبال مخالفة النزعة الرهبانية لحقيقة الإسلام ، ويذكر مصادر التصوف الأعجمي الدخيلة على الثقافة الإسلامية فيقول: « إن الرهبانية ظهرت في كل أمة ، وعملت لإبطال الشريعة والقانون ، والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى مخالفة الرهبانية. والتصوف الذي شاع بين المسلمين - أعني التصوف الأعجمي - أخذ من رهبانية كل أمة ، وجهد في أن يجذب إليه كل نحلة ، حتى القرمطية التي قصدت إلى التحلل من أحكام الشريعة » (23) ، وفي نقد لاذع وفاضح للباطنية والغنوسية ، وتنبيه للأمة الإسلامية يقول إقبال: « الحق أن التماس معان باطنية في قانون أمة هو مسخ لهذا القانون كما يعلم من سيرة القرامطة ، ولا تختار هذه الطريقة إلا أمة في فطرتها الخنوع والذلة » (24).

إذن فالتصوف الذي يرفضه إقبال دخيل المصادر عن روح الإسلام ، يسلك سبلا مبهمه وغامضة وغير مضبوطة ، ويقصد إلى التحلل من أحكام الشريعة...

ويتتبع إقبال أسباب هذا التصوف الأعجمي الغريب عن روح الإسلام ويرد ذلك إلى الأفكار الفلسفية التي تسربت إلى المسلمين ، ولذلك نجده في معظم تراثه الفكري ، وفي فلسفته حول الذات ينتقد الفيلسوف اليوناني أفلاطون ويراه أساس فكرة وحدة الوجود التي انتقلت منه إلى الفكر الإسلامي ولاسيما عبر الفلسفة الهندية والفارسية ، وفكرة وحدة الوجود لم تظهر في صورة نظرية كاملة متسقة قبل محي الدين بن عربي ، وهو لحد الآن الممثل الأكبر لهذا المذهب (25) ، ولذا نرى إقبالاً ينتقده ويحمله المسؤولية في ذلك حيث يقول: « جاءت رسالة الإسلام ، فكانت دعوة بليغة إلى العمل... ولكن تشابهاً عجيبياً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي سيظهر عند بحث هذه المسألة ، والفكرة التي فسر بها (شينكر أجاريه) كتاب الجيتا ، هي الفكرة التي فسر بها القرآن محي عنصراً في الفكر الإسلامي ، واقتفى أثره أوحد الدين الكرمانلي وفخر الدين العراقي » (26) ، في حضارة المسلمين .

وعلى الرغم من دقة المسألة وخطورتها فإقبال يرينا نموذجاً لأدب الاختلاف ، والنقد البناء ومستوى رفيعاً وأفقاً رحباً حيث يقول في رسالته إلى

السيد حسن نظامي موضحاً رأيه في ابن عربي وفلسفته: « لا أنكر عظمة الشيخ وفضله ، بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين ، ولا أرتاب في إسلامه فإنه يحتاج لعقائده ، كقدم الأرواح ، ووحدة الوجود بالقرآن مخلصاً ، فأراؤه على صوابها أو خطئها قائمة على تأويل القرآن ، وأرى أن تأويله غير صحيح ، فأن أعده مسلماً مخلصاً ، ولا أتبعه في مذهبه » (27).

ويرى إقبال أن من أسباب انتشار التصوف القائم على وحدة وجود الخلط عند المتصوفة بين التوحيد ووحدة الوجود فيقول: « وأصل المسألة أن الصوفية - أخطئوا خطأ كبيراً في فهم التوحيد ووحدة الوجود ، ليس هذان الاصطلاحان ، مترادفين كما توهموا .

فالأول مفهوم ديني ، والثاني فلسفي محض ، ليس التوحيد ضد الكثرة كما يضمن بعض الصوفية بل هو ضد الشرك ، وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة ، وكانت نتيجة هذا الغلط أن عد من الموحدين طائفة ذهب والى وحدة الوجود أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم » (28).

وبناء على ذلك فإن إقبالاً يصرح ببعده وحدة الوجود عما جاء به القرآن والتعاليم الإسلام فهو يقول في وضوح: « إن تعليم الإسلام واضح بين هو أن ذاتاً واحدة تستحق العبادة وأن كل الكثرة التي ترى في العالم مخلوقة... ليست عقيدة وحدة الوجود من تعليم القرآن الذي يبين مغايرة التامة بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود » (29).

وقد كان من نتائج فكرة وحد الوجود القول بالفناء والحلول والسكر مما يقتل دور إرادة الإنسان وفعالية وجوده ، وإن كان لهذه المصطلحات معان إيجابية عند أهل التصوف الدقيق (30) ، فقد اتخذت لها اتجاهات سلبية في التصوف الوجودي فلذلك نجد إقبالاً يرفض الفناء والسكر والحلول ويدعو إلى إثبات الذات والى الصحو ، ويحذر المسلمين ، من دعائه فيقول: « احذر حافظاً أسير الصهباء فإن في كأسه سم الفناء... ذلكم فقيه ملة المدمنين ، وإمام أمه المساكين ، شاة علمت الغناء والدلال... وهو اذكر من شاة اليونان ، ونعمه عوده حجاب الأذهان (31) ، فهو ينبه إلى الضعف الذي جلبته هذه الأفكار حتى تجعل صاحبها كالشاة ، ويرمز لتأثير أفلاطون (شاة اليونان) في التصوف السلبي الوجودي ، وينتقد بشدة شعراء الضعف والتصوف الأعجمي.

كحافظ الشيرازي وغيره ، ويقدم تحليلاً نفسياً عميقاً للميل لهذه الأفكار

المخدرة ، ففي نظره « كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي ، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين... تتبدل أنظارها ، وتجمل الاستكانة في أعينها ، وتركن إلى ترك الدنيا ، وفي هذا الترك تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء» (32) ، ويقول: « إن حالة السكر تنافي الإسلام وقوانين الحياة ، وحالة الصحو ، وهي الإسلام ، توافق قوانين الحياة ، وإنما قصد الرسول صلى الله عليه وسلم ﷺ إنشاء أمة صاحبة ، ولهذا نجد في صحابته الصديق والفاروق ، ولا نجد حافظ الشيرازي» (23) .

وكما يرفض إقبال الإتحاد وتشبيه الخالق بالمخلوق ، والفناء وتأليه الإنسان وحلول اللاهوت في الناسوت كما في المسيحية والتصوف المرفوض ، فإنه يؤمن بوحدة الشهود التي تقوم على أساس الاتصال بين العبد وربه ، وهو اتصال روحي صوفي يقوم على فكرة الثنائية بين الخالق والمخلوق ، والمحبة المتبادلة بين العبد وربه (34) ، ولو وقف أهل التصوف عند وحدة الشهود لتحقيق لهم السمو الروحي وكمال التوحيد ، والتصوف الإسلامي الرفيع المنبثق عن العقيدة الإسلامية القرآنية... فالتصوف الذي يرفضه إقبال هو تصوف الانسحاب من المجتمع والعزلة عنه ، وتصوف داع إلى ترك الدنيا واعتبار الحياة والكون غير حقيقيين ، ومشجع على تطوير موقف هروبي من الحياة ، ومؤمن بمثل مدمرة للحياة وداعية إلى نكران الذات وإفنائها وهو ما ستنافى والعقيدة الإسلامية ، ويتناقض مع تعاليم القرآن ، ويختلف عن سيرة رسول الله ﷺ ، ومقاصد رسالته...

خامسا: التصوف الذي يدعو إليه إقبال

لكي نعرف مكانة التصوف عند إقبال ، وتصوره لمعناه ، نطلق من تقسيمه للحياة الدينية إلى ثلاثة أطوار ، طور الإيمان ، وطور الفكر ، وطور الاستكشاف. ففي طور الإيمان تبدو الحياة الدينية في صورة نظام نخضع له خضوعا مطلقا دون نظر عقلي ، وهذا الاتجاه له أثر كبير في التاريخ الاجتماعي والسياسي ، ولكنه قليل الأثر في الرقي الروحي للفرد ، وأما في طور الفكر ، فالحياة الدينية تبحث عن أصلها في نوع من الميتافيزيقا.

وأما في طورها الأخير وهو طور الاستكشاف فتتجاوز الحياة الدينية التصور المنطقي إلى الاتصال المباشر بالحقيقة الإلهية ، فيصبح الدين تمثلا فرديا للحياة والقدرة ، ويكسب الفرد شخصية حرة لا بالتحلل من قيود الشريعة ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره هو (35) .

فمن هذا التحليل ندرك أن التصوف عند إقبال هو الدين في أرقى مراتبه

وأسس مدارجه ، فهو تجربة حية وحقيقية ، وخبرة واعية وعميقة.

وهذا التصوف يجد أصلته في نظر إقبال في عمق الحقيقة الإسلامية الصافية ولذلك فهو يقول: « ليس من الصواب أن نرجع كل ظاهره في بيئة ما إلى عوامل خارجية عنها فنهمل بذلك العوامل الداخلية ، فإنه لا فكرة من الأفكار ذات قيمة تكون لها سلطان على نفوس الناس إلا إذا كانت تمت إليهم بصلة ، فإذا جاء عامل العامل الخارجي أو ذلك ، ونسوا أن أية ظاهرة ، عقلية أو تطور عقلي في أمة لا يكون لهما معنى ، ولا يفهمان لا في ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التي عاشت فيها هذه الأمة قبل ظهور تلك الظاهرة(36).

وإذا كان إقبال يؤكد أصالة التصوف الإسلامي فمما لا شك فيه أنه ليس ذلك التصوف الذي سماه التصوف التزهدي ، وانتقد أصلته وانتماءه للثقافة الإسلامية ، وإنما هو التصوف الإيجابي الذي يدعو إليه إقبال كأسمى مرتبة للحقيقة الدينية القرآنية ، ومن أبرز سمات هذا التصوف أنه يجمع بين التجربة النفسية الدينية العميقة والعمل والفعالية في الحياة ، وتتجلى هذه السمة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بينما يرفض الولي الصوفي الزاهد الرجوع إلى الأرض من مقام الشهود حيث يقول : « صعد النبي محمد العربي إلى السماوات العلى ، ثم رجع إلى الأرض ، قسما برين لو أني بلغت هذا المقام لما عدت أبدا » نجد النبي صلى الله عليه وسلم يفضل العودة والرجوع من هذا المقام العظيم ، وهو رجوع مبدع ، فمقام الشهود عند الصوفي المتزهد غاية تطلب لذاتها ، أما عند النبي فهو يقضة للقوى الروحية بهدف تغيير النظام الإنساني ، وهذا أمر تابع كما يرى إقبال من رغبة النبي أن يرى رياضته الدينية قوة عالمية حية ، وبذلك تكون تجربته المحسوسة التي تحاول أن تحقق وجودها فيه ، ومن خلال نفوذ النبي في عالم العوائق بهدف التحكم فيه تتجلى نفسه فيعرفها ، ويزيل عنها ما يخيفها فتراه عين التاريخ (37).

فالتصوف ليس مسلبة أو هروبا ، أو نزعة ذاتية منفصلة عن الواقع غائبة عن صناعة التاريخ ، بل هو رياضة حية مبدعة لعالم جديد ، يعود بعدها الصوفي يحمل للناس رسالة كما فعل النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا التصوف الإيجابي الذي يدعو إليه إقبال يهدف إلى تربية الإنسان الكامل ، وهو المسلم المتمثل الشخصية رسول الله ﷺ ، فكلما ترقى الإنسان ، واقترب من الله من مقام (عبده). الذي بلغه النبي صلى الله عليه وسلم.

كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ الإسراء / 1 ، ومعناه أن يقترب الإنسان بإيمانه وأعماله الصالحة

من الله سبحانه وتعالى ليحقق ذاته ويبلغ مرتبة النيابة الإلهية على وجه الأرض. وبهذا التصوف تكون حياة الإنسان حياة عمل مستمر ، وكفاح متواصل ومتجدد ، وهذا التصوف هو ثورة على الواقع المتزدي للمسلم أن يرى في نفسه الروح ، وينشئ في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته ، وينشئ عالما جديدا» (38).

ويحدثنا الأستاذ العقاد عن تصوف إقبال فيقول: « وحيثما انقسمت الصوفية قسمين ، كان إقبال إلى جانب أفضلهما وأصلحهما إلى العمل وإذكاء النخوة ، وشحذ الهمة ، وإيقاض الضمير » ، ثم يقول: « هناك الصوفية التي تؤمن بالثبوت ، وهناك الصوفية التي تؤمن بالفناء ففي أي الجانبين إقبال؟ في جانب الثبوت. وهناك الصوفية التي تحسب العالم وهما باطلا وخدعة مزدرة ، والصوفية ترى في العالم مظهرا لجمال الله وإرادته وحكمته ، ففي الجانبين إقبال؟ في جانب الحكمة والإرادة والجمال (39).

الهوامش:

1. ينظر: أبو العلاء عفيفي ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، دار المعارف ، 1963 ، ص 56
2. ينظر: محمد الغزالي ، ركائز الإيمان بين العقل والقلب ، دار الشروق ، 1997 ، ص 127.
3. يعدها المفكر محمد سعيد جمال الدين كاتبة كاتبة في الحضارة الإسلامية ، أنظر: محمد سعيد جمال الدين ، نقوش فارسية على لوحة عربية ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ، 2000 ، ص 07 وما بعدها.
4. ينظر: محسن عبد الحميد ، تجديد الفكر الإسلامي ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، بدون مكان نشر ، 1996 ، ص 77.
5. عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ، دار القلم ، بيروت ، 1992 ، ص 467.
6. د جاويد إقبال ، إقبال والتصوف ، محاضرة ، ضمن كتاب أفكار إقبال ، مهرجان سفارة الباكستان بدمشق ، 1987 ، ص 12.
7. ينظر: علي سبيل المثال كتاب : لوينولد الن ، نيكلسون ، الصوفية في الإسلام ، ترجمة ، نور الدين شريبت ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1951 ، ص 5 - 28
8. ينظر: محسن عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص 74 - 75. وينظر في علاقة التصوف الإسلامي بغيره من الأديان والفلسفات: التصوف الصورة الروحية في الإسلام ، ص 56 - 84.
9. ركائز الإيمان ، 137.
10. المرجع نفسه.
11. المرجع نفسه.
12. المرجع نفسه.
13. ينظر: جاويد إقبال ، مرجع سابق ، ص 13.
14. ينظر: د. أبو الوفاء التفنازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، القاهرة ، 1794 ، ص 227.
15. ينظر: محسن عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص 79.
16. محمد إقبال ، مقدمة ديوان الأسرار والرموز ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ، مصر ، 1956 ، ص 11.
17. ينظر: خليفة عبد الحكيم ، فكر إقبال ، جامعة عليكرة ، 1977 ، ص 274 - 275.
18. فلسفة إقبال الدينية ص 14.
19. عبد الوهاب عزام ، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره ، بدون دار نشر ، بيروت ، 1972 ، ص 85
20. محمد إقبال ، مقدمة ديوان الأسرار والرموز ، مرجع سابق ، ص 11.

21. ينظر: د. علي الشابي، **مباحث في علم الكلام والفلسفة**، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1977، ص 177
22. محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني**، ترجمه عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1968، ص 173.
23. محمد إقبال، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز**، مرجع سابق، ص 11
24. المصدر نفسه، ص 12.
25. أبو العلاء عفيفي، مرجع سابق، ص 187.
26. ينظر: عبد الوهاب عزام، مرجع سابق، ص 85 - 87.
27. ينظر: محمد إقبال، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز**، مرجع سابق، ص 12، وينظر: محي الدين بن عربي، **فصوص الحکم**، تحقيق أبو العلاء العفيفي، القاهرة، 1946، ص 9 - 10
28. عبد الوهاب عزام، مرجع سابق، ص 64
29. المصدر نفسه.
30. ينظر: أبو القاسم قشيري، **الرسالة القشيرية**، بدون مكان نشر، القاهرة، 1972، ص 61 - 62،
31. عبد الوهاب عزام، مرجع سابق، ص 62.
32. محمد إقبال، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز**، مرجع سابق، ص 12.
33. المصدر نفسه، ومن انتقادات إقبال للإتحاد والفناء في ذات الله ما قاله على لسان الحلاج: «سكر الأحمية في فراغ الكؤوس، وإنما العدم جهل بالمعرفة، يا من تبغي في الفناء هدفك، إن المعدوم لا يمكن أن يكتشف الموجود (الله)»، ينظر: رسالة الخلود، ص 237.
34. ينظر: د. محمد جلال شرق، **دراسات في التصوف الإسلامي**، شخصيات ومناهج، دار النهضة العربية، بيروت 1980، ص 428 - 429.
35. محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني**، مرجع سابق، ص 209.
36. محمد إقبال، **تطور ما وراء الطبيعة في فارس**، ترجمة حسين مجيب المصري، المطبعة الانجلو مصرية القاهرة، 1986 ص 96.
37. محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني** مرجع سابق، ص 142.
38. ينظر: أبو حسن الندوي، روائع إقبال، مطبعة دار الشهاب الجزائر، بدون تاريخ نشر، ص 101.
39. عباس محمود العقاد، **فريضة إسلامية**، مقال ضمن كتاب إقبال العرب على دراسات إقبال، 1988

قائمة المراجع:

1. أبو العلاء عفيفي، **التصوف الثورة الروحية في الإسلام**، دار المعارف، 1963 .
2. محمد الغزالي، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، دار الشروق، 1997 .
3. يعدها المفكر محمد سعيد جمال الدين كائب كامنة في الحضارة الإسلامية، أنظر: محمد سعيد جمال الدين، **نقوش فارسية على لوحة عربية**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2000.
4. محسن عبد الحميد، **تجديد الفكر الإسلامي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بدون مكان نشر، 1996.
5. عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة**، دار القلم، بيروت، 1992 .
6. د جاويد إقبال، **إقبال والتصوف**، محاضرة، ضمن كتاب أفكار إقبال، مهرجان سفارة باكستان بدمشق 1987 .
7. على سبيل المثال كتاب: لوينولد الن، نيكلسون، **الصوفية في الإسلام**، ترجمة، نور الدين شريبت، مكتبة الخانجي، مصر، 1951 .
8. محسن عبد الحميد، مرجع سابق، ص 74 - 75. وينظر في علاقة التصوف الإسلامي بغيره من الأديان والفلسفات: **التصوف الصورة الروحية في الإسلام** .
9. أبو الوفاء التفتازاني، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، القاهرة، 1794 .
10. محمد إقبال، **مقدمة ديوان الأسرار والرموز**، ترجمة عبد الوهاب عزام، دار المعارف، مصر، 1956 .

11. خليفة عبد الحكيم ، فكر إقبال ، جامعة عليكرة ، 1977 .
12. عبد الوهاب عزام ، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره ، بدون دار نشر ، بيروت ، 1972 .
13. ينظر: د. علي الشابي ، مباحث في علم الكلام والفلسفة ، دار بوسلامة للطباعة والنشر ، تونس ، 1977 .
14. محمد إقبال ، تجديد التفكير الديني ، ترجمه عباس محمود ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1968 .
- أبو القاسم قشيري ، الرسالة القشيرية ، بدون مكان نشر ، القاهرة ، 1972 .
15. د. محمد جلال شرق ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومناهج ، دار النهضة العربية ، بيروت 1980 .
16. محمد إقبال ، تطور ما وراء الطبيعة في فارس ، ترجمة حسين مجيب المصري ، المطبعة الانجلو مصرية القاهرة ، 1986.
17. ينظر: أبو حسن الندوي ، روائع إقبال ، مطبعة دار الشهاب الجزائر ، بدون تاريخ نشر .
18. عباس محمود العقاد ، فريضة إسلامية ، مقال ضمن كتاب إقبال العرب على دراسات إقبال ، 1988

البحث العلمي السوسيوولوجي بين وهم الاستهلاك المعرفي وحتمية المقاربة الواقعية ...

د. قنيفة نورة*

الملخص :

تطرح الساحة التنموية المجتمعية الجزائرية في المرحلة الحالية إفرازات اجتماعية واقتصادية خطيرة جدا تدعو فعليا إلى البحث وتحليل معطياتها وأبعادها لاسيما ما ارتبط ببعدها الإنساني التنموي وتأثيراته المختلفة على الحياة الاجتماعية للفرد الجزائري...و في الوقت ذاته حدوثها تحت وقع حراك اجتماعي بطيء جدا أهم ما يميّزه هيمنة فكر اجتماعي تقليدي شعبي مسير للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ولعل الأخطر من ذلك أن كل هذا يحدث في ظل عولمة اقتصادية تنموية فرضت سياساتها على الواقع التنموي الجزائري و انعكست آثارها على الحياة الاجتماعية للأفراد ، بل و أدت إلى انتشار العديد من الظواهر الاجتماعية الخطيرة كالعنف والجريمة والبطالة والمخدرات...

هذا الواقع دفعنا إلى طرح العديد من التساؤلات الهامة جدا في اعتقادنا، والتي قد تكون كلاسيكية في نظر الكثيرين ، ولكنها شرعية أيضا في الوقت ذاته، لاسيما وأنها على علاقة مباشرة بالطروحات الفكرية الكلاسيكية التي لم تأخذ بعين الاعتبار خصوصية المجتمع الاجتماعية والثقافية بل كانت مجرد تطبيقات ميكانيكية بفكر غريب اجتماعيا ، وأيضا بدعم فكري إيديولوجي لا واقعي كان له التأثير السلبي على تجسيد تنمية مجتمعية إنسانية حقيقية لعدم قدرة المستورد منه فكريا على ملامسة الواقع الاجتماعي...

وقد نضيف في هذا الإطار بالذات أن واقع المجتمع الجزائري وعدم قدرته على إنجاز التغييرات الكيفية اللازمة لاجتياز عتبة التخلف والانطلاق في مسيرة العصرية و الحدائثة ارتبط في اعتقادنا إلى حد كبير بعدم مراعاة خصوصية المجتمع الجزائري و جغرافيته الإنسانية و الاجتماعية أين يكون للفرد الجزائري دورا مهما وفعالاً بالأخص

* كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة العربي بن مهيدي ، أم البواقي .GUenlfa_NoRa@yahoo.fr

في عملية التنمية هذه ، وبالتالي ضرورة توفير المعطيات الأساسية التي تمكنه من المساهمة الإيجابية في الحركة التنموية أين يوضع موضع قوة يصبح شريكا فعالا و في الوقت ذاته يتمتع بكامل الحقوق السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية ...

سنحاول إذا تقديم مقارنة سوسولوجية معرفية تحليلية لمختلف المتغيرات التي أثرت على مسار التنمية و التي أفرزت العديد من الظواهر الخطيرة بدءا بالفقر و البطالة و انتهاكات حقوق الإنسان و غيرها، و التي تستدعي فعليا البحث فيها و حتمية ملامستها واقعا بعيدا عن أي طرح إيديولوجي تنظيري لا واقعي من جهة، و في مقابل ذلك تقديم تحليل معرفي لواقع بحثي سوسولوجي كان بالإمكان أن يساهم واقعا في معالجة كل هذه الظواهر شرط التزامه بالواقعية و الابتعاد عن الاستهلاك المعرفي الجاهز...

الكلمات المفتاحية : . البحث السوسولوجي والواقع المجتمعي . التنمية المجتمعية

Abstract :

The experience of socio – economic development of Algerian society has created many social phenomena very dangerous as crime, unemployment, drugs,..Something that leads us to emphasize the important role of social sciences and especially sociology in this context..

Sociologist as well has faced like an experienced imperative to step empirical research taking into account the specific socio – economic and cultural typiquement traditional Algerian society , and that influence still in the process of development of our society.

Key words: Sociological research and the reality of society, development of society

مقدمة :

لقد واجه المجتمع الجزائري نتيجة التغيرات الآنية التي ارتبطت بتجسيد منظور اجتماعي تنموي رأسمالي مشكلات اقتصادية تنموية حادة حملت معها توترات اجتماعية بالغة الخطورة ، فأصبحت الفئات الاجتماعية لمهمشة اقتصاديا وثقافيا وتعليميا عريضة جدا بل وتهدد بمزيد من المشكلات الناجمة عن اتساع الفجوة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة لاسيما بين الأغنياء والفقراء ...

ومن الطبيعي والحالة هكذا أن تنشأ حقائق جديدة على أرض الواقع الاجتماعي في اتجاهات مختلفة ، وتحديدًا فيما يتعلق بأنماط العلاقات

الاجتماعية السائدة ، فقد أدت رياح التغيير إلى الإخلال بلبنى الثقافية والفكرية وإحداث اختراقات واسعة في المؤسسات الرسمية والشعبية مما أدى إلى إنتاج ظواهر سلبية عديدة جدا تدعو أي باحث سوسيولوجي إلى طرحها وتحليلها واقعا لارتباطها بمجموع خصوصيات لاسيما الثقافية منها ، هذا من جهة ، من جهة أخرى ضرورة الابتعاد قدر الإمكان عن أي ممارسة سوسيولوجي كلاسيكية تنظيري مستهلكة بقوالب جاهزة وهمية في الكثير من الحالات لأنها لا تعبر عن واقع اجتماعي ، بل وتغيب فيها الكثير من الحقائق المجتمعية ، وتهتمش وقد تنتج فكرا سوسيولوجيا مكررا ومستسحا وعاجزا عن طرح بدائل علمية معرفية مفاهيميا وواقيا وقد تؤكد لنا في الكثير من الحالات انسحابا تدريجيا من فضاء علمي موضوعي واقعي كثيرا ما عرف ب « المزعج » ...

أولا: موقعية البحث السوسيولوجي بين الاستهلاك المعرفي والخصوصية الثقافية الجزائرية :

مما لا ريب فيه أن الجامعة كانت ومازالت تحتل داخل أي نظام تعليمي أهمية كبيرة ، وبخاصة فيما يتصل بتكوين الإطارات المتوسطة ذات المهارات العلمية العليا ، والمؤهلة لتوظيف المعرفة لخدمة الاحتياجات الاجتماعية والضرورية لإحداث التقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك بوصفها أداة أساسية في تشكيل خطط التنمية الشاملة وتطويرها... فهي أكثر من مجرد فضاء للتعليم والتعلم بل هي المفتاح الرئيسي لاتخاذ وتنفيذ العمليات الضرورية لمواجهة تحديات اليوم والغد... (1) .

في هذا الإطار بالذات ، وأمام الدور الحقيقي والفعلي الذي يمكن أن تلعبه العلوم الاجتماعية بشكل عام وعلم الاجتماع بشكل خاص بما ينتجه من معارف علمية في شكل بحوث ودراسات متنوعة المجالات والتخصصات ، لنا أن تساءل كباحثين وكفاعلين اجتماعيين في الوقت ذاته دائما عن الدور الفعلي والحقيقي لمجموع هذه المعارف العلمية السوسيولوجية المكتسبة منها معرفيا من جهة ، والمنجزة في شكل أبحاث علمية من جهة أخرى عن مدى مساهمتها فعليا وبالأحرى واقعا في تنمية المجتمع الجزائري في المرحلة الحالية التي تشهد تغييرات سريعة ومؤثرة جدا في الحياة الاجتماعية للأفراد... في مقابل حراك اجتماعي بطيء أهم ما يميزه هيمنة فكر اجتماعي تقليدي شعبي مسير للحياة الاجتماعية للأفراد وعولمة فكرية أفرزت العديد من التناقضات المجتمعية وفرضت فكرها اجتماعيا...

فإن نحن نظرنا بشكل أكثر عمقا للمجتمع الجزائري ، سنجد الكثير من التغيرات الاجتماعية العميقة سواء كان ذلك على المستوى الاجتماعي ، أو في بنية العلاقات الاجتماعية ، مما أدى إلى تواجد العديد من الظواهر المتشابكة العوامل التي تدعو فعليا إلى البحث والتحليل المعمق في إطار هذه التغيرات ، والتي تتطلب واقعا ممارسة علمية ومعرفية خاصة للبحث فيها ومحاولة طرحها علميا ، الأمر الذي جعل الباحث الاجتماعي في مواجهة دائمة لتحديات قوية تفرض عليه من جهة الاتصال المباشر بالعالم الخارجي وتنمية علاقات بحثية في إطار صيرورة خاصة لإعادة تحديد دوره في دراسة هذه الظواهر ، ومن جهة أخرى اكتساب معرفي متطور للتقنيات والمعارف لتحقيق الهدف الذي يسعى إليه دائما ، والمتمثل في امتلاك الراهن المجتمعي ، وتقديم أبحاث ذات صلة مباشرة بالواقع الاجتماعي تراعي خصوصيته بحيثياته المختلفة السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقانونية والدينية...

فإذا كانت الجامعة الجزائرية في المرحلة الراهنة تسعى فعليا إلى تأسيس علاقات اجتماعية مع محيطها الخارجي يطبعها التعاون الجدلي لتحقيق حد أدنى من حاجيات الطلب الاجتماعي في ظل محاولات سياسية تهدف إلى جعل العلاقة بالمحيط الخارجي ذات طابع جدلي يطبعها التعاون المتبادل لدفع عجلة التنمية ، فإن ما نلمسه واقعا ، لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية ، وبشكل خاص في علم الاجتماع ، ومن خلال تجارب بحثية كثيرة محدودية هذه العلاقة وربما وفي مواقع كثيرة انعدامها مما يجعلنا في تساؤل دائم ومستمر عن جدوى البحث العلمي الاجتماعي بالكم الهائل الموجود والمخزن في مكتبات جامعاتنا من رسائل دكتوراه وماجستير وليسانس (ولو أن مذكرات الليسانس غير معترف بها علميا..) ، وعن مدى تقديمها لمعطى معرفي واقعي ، وهل كانت مجرد استتساخ معرفي - وبالتالي تكرار - ما سبق طرحه واستهلاكه معرفيا من نظريات تنموية جاهزة بعيدة عن واقع اجتماعي ثقافي معطى ، أم أن هناك محاولات جادة لكسر الحاجز الاجتماعي المتجسد بشكل خاص في انغلاق المجتمع أمام البحث السوسولوجي لاسيما ما ارتبط بالمقدس والسياسية...؟

إنه ، وبالعودة إلى مرحلة تاريخية هامة من البحث السوسولوجي ، أكد الباحث الجزائري **عنصر العياشي** في هذا الإطار بالذات أن أهم عامل يمثل حاجزا أمام تطور علم الاجتماع في الجزائر هو الموقف العدائي الذي يتخذه المجتمع ، والرفض الذي تقابل به كل محاولة جادة لسبر أغواره وفهم آليات

سيره... فهناك مجالات عديدة في مجتمعنا لا تزال مغلفة أمام البحث الاجتماعي والمعرفة العلمية... هذه المجالات تعتبر مقدّسة وينظر إلى البحث فيها بمثابة تدينس لها... منها قضايا الاختلال في سير النظام الاجتماعي، السلطة وآليات السيطرة التي تمارسها طبقات أو شرائح اجتماعية معينة، مؤسسات الحكم بأجهزتها المختلفة، العلاقات والسلوك الجنسي، قضايا العقيدة والممارسات الدينية، موقع الدين في المجتمع ودوره، الحركات التي تستعمله وتشكيلتها البشرية وطبيعة خطابها، الجماعات الهامشية أو المهمشة... في كل هذه المجالات نجد أن رد فعل القوى الاجتماعية التي لها علاقة بهذه المواضيع تجاه الدراسة العلمية يتسم بالرفض أحيانا وبالعداء الصريح أحيانا أخرى...

إن ذلك يعبر عن انغلاق المجتمع ورفضه لأن يشكل موضوعا للدراسة والتحليل العلمي المتفحص، وهي ظاهرة تعبر عن استمرار هيمنة علاقات وذهنيات منبثقة عن مرحلة تتميز بسيطرة الفكر العالمي... (2).

كان هذا الطرح في مرحلة العشرينيات السوداء أين أفرزت التغيرات السياسية والاجتماعية ظواهر خاصة وغريبة وفي الوقت ذاته صعبة الطرح والتحليل لانغلاق المجتمع وعدم قدرة البحث الاجتماعي على تجسيد ممارسة سوسيولوجية واقعية، غير أن هذا الإشكال الخطير المطروح استلزم فعليا وفي المرحلة الحالية ضرورة تجاوزه أمام جملة التغيرات المستجدة والخطيرة التي يشهدها المجتمع من خلال التقرب أكثر من الحقائق الاجتماعية وبالأحرى الإفرازات الاجتماعية الناتجة عن التغير والتغيير الاجتماعيين، ومحاولة جعل الممارسة البحثية السوسيولوجية واقعية أكثر...

فإن نحن نظرنا إلى تحولات مجتمع ما كنتيجة لما تمخض عنه هذا المجتمع، فإنه لا يسعنا إلا أن نذكر بأن النزعة الأصلية للسوسيولوجيا تتمثل في معاينة الممارسات الاجتماعية، وهي تتطور بهدف فهمها وتأويلها على ضوء المعنى الذي يقصده الفاعلون أنفسهم. وهذه هي مقاربة فيبر للسوسيولوجيا: «نحن نسمي سوسيولوجيا ذلك العلم الذي يرمي إلى الفهم بالتأويل (deutenverstehen) للنشاط الاجتماعي ثم إلى التفسير السببي لتطور ونتائج هذا النشاط...» (3).

فاللأوعي بطبيعة المجتمع وبحقائقه الاجتماعية نعتبره وضع خاص وسلب في ذات الوقت وواقعي. إلى طرح إشكال أكثر خطورة من الذي طرحه الباحث عنصير العياشي والمتجسد في مستقبل البحث الاجتماعي في ظلّ العولمة المعرفية العالمية التي ساهمت بشكل جدي في طرح وتحليل الكثير من الظواهر وتقديمها جاهزة

للاستهلاك المعرفي للكثير من الباحثين الذين لم يستوعبوا المرحلة الآتية من البحث العلمي الاجتماعي التي تستدعي فعليا التفرقة بين ما هو مستهلك معرفيا من المواقع الإلكترونية المعرفية ، وبين واقع مجتمعي جزائري حقيقي ذا خصوصية سوسيوثقافية مميزة تدعو أي باحث اجتماعي إلى البحث فيه وتحليله واقعا أيضا مع محاولة كسر الحواجز التي تعترضه مهما كانت طبيعتها..فلا يمكن أن ندرس المجتمع الجزائري دون استنطاق الواقع المعاش ومعاينة هذه التحولات واقعا ...

إنه وفي ظل العولمة المعرفية البحثية هذه والتي فرضت نفسها كقوة معرفية لنا أن نسأل: «هل نحن فعلا بحاجة إلى نمط معرفي بحثي معين...؟ وما طبيعة العلاقة التي يجب تأسيسها مع المجتمع الخارجي المفتوح بعيدا عن أي ثقافة معرفية استهلاكية نحاول تجسيدها واقعا رغم اختلاف مكوناتها؟ وكيف يمكن للبحث الاجتماعي أن يلعب دوره المنوط بت وإعادة الاعتبار له باعتباره بحثا علميا فكريا له القدرة الفعلية على رسم استراتيجيات تنموية شاملة سيّما وأن مواضيع التنمية والتخلف من أهم المواضيع التي شجعت الباحثين الاجتماعيين للقيام بدراسات اجتماعية ، وعملت على تطور التخصصات في علم الاجتماع بهدف محاولة دراسة أهم العراقيل التي تقف عائقا أمام تنمية وتطور المجتمع...؟ وهل فعلا نحن كباحثين بحاجة إلى إستراتيجية بحثية جديدة لتلبية طموحات الفرد الجزائري بعيدا عن أي أدلجة لوظيفتنا ومن أي نوع ، منطلقنا في ذلك فكر علمي بحثي حر يسعى إلى تحقيق أهداف تنموية على المدى البعيد...؟

أسئلة هامة قد تستدعي أبحاثا معرفية لمضامين العديدة من الدراسات السوسولوجية الجزائرية مستقبلا...

ثانيا - المعرفة السوسولوجية وحتمية ملاسة الواقع الاجتماعي ؛

المنطلق الأساسي لهذا الطرح المعنون بالمعرفة السوسولوجية وحتمية ملاسة الواقع الاجتماعي هو مجموع تأملات فكرية نبعت أساسا من قلق ذاتي معرفي حول وضع البحث الاجتماعي من خلال معاصرتي للكثير من الأحداث والوقائع المختلفة التي عرفتها كطالبة وكأستاذة باحثة ، والذي يدعو (أي الوضع) فعليا إلى البحث في حيثياته لتحديد معالم مستقبله ، ولكنها في الوقت ذاته مشروعة أيضا لأن الهدف الأسمى يبقى محاولة الفهم الموضوعي لما يدور حول الباحث من ظواهر والسعي للتوصل إلى أطروحات منطقية وواقعية في تفسيرها وتقديم الحلول المناسبة لمعالجتها...

فإذا وجد علم لدراسة المجتمعات فإنه من الضروري ألا يتوقع المرء أن

تكون مهمة هذا العلم قاصرة على مجرد ترديد الأفكار غير الممحصنة التي يتوارثها الناس بصددها الظاهرة ، إنما يجب أن يرينا هذا العلم الأمور الاجتماعية على نحو مخالف لما تبدو عليه للعامة. ذلك لأن كل علم من العلوم يهدف إلى الكشف عن بعض الحقائق ، كل حقيقة مكتشفة تتعارض إلى حد كبير أو قليل مع الآراء التي يتناقلها الناس بصددها...» (4).

لقد عبرت كثيرا من قضايا جامعات الدول النامية عن مظاهر التخلف والتبعية ومعوّقات التنمية والتحديث وقد جاء جزء كبير من هذه المشكلات نتيجة للظروف التاريخية والاستعمارية التي مرت بها هذه المجتمعات ، حيث ورثت جامعاتنا مشكلات اختيار المناهج الدراسية والمقررات الأكاديمية واستيراد النماذج الجامعية الغربية ، والاهتمام بمصادر المعرفة .. ولعل الأهم في كل هذا عدم الاكتراث بوظائف البحث العلمي وأهميته... (5).

فالبحث العلمي يبقى أهم وسيلة للاستعلام والاستقصاء المنظم والدقيق بغرض اكتشاف معلومات أو علاقات جديدة في محاولة جادة للوصول إلى حقائق جديدة قصد الإسهام في نمو المعرفة الإنسانية... ولأننا نتحدث عن البحث العلمي الاجتماعي المنتج للكثير من المعارف العلمية ، وفي الوقت ذاته المستهلك أيضا للكثير منها سواء مكتيبا أو إلكترونيا ، ولأننا نطلق في هذا الإطار بالذات من مسلمة أساسية كون البحث المنطلق الفكري الأساسي لتطوير المعارف العلمية في مجالات متعددة ومتنوعة تعكس إيجابا - إن كانت صحيحة وسليمة طبعاً - على الإنتاج الفكري المعرفي ، وتساهم فعليا في تنمية المجتمع وتطوره ، فإنه لا يسعنا إلا أن نذكر بتلك العلاقة المعرفية الغير منطقية في الكثير من الأحيان ، بل لنقل القطيعة المعرفية بين ما ينتج من معارف - مكلّسة ومهمّشة - في مكاتبنا الجامعية في شكل رسائل جامعية تدعو إلى التمهيد والتدقيق فيها ، وإلى إعادة النظر في مضامينها - ليس من باب التقليل من أهميتها - بل لأن هناك دراسات هامة فعليا طرحت العديد من الأفكار حول ظواهر اجتماعية مختلفة ، آنية بالخصوص...

فكثيرا ما لمسنا تواجد أبحاث قيمة جدا ارتبطت بمواضيع وظواهر وقضايا مجتمعية واقعية بدءا بالسياسية منها ووصولاً إلى التربوية.. لكنها مهمّشة ولم نستفد منها فعليا في تنمية المجتمع...؟

في مقابل ذلك أيضا تطرح مسألة التكوين المعرفي التي تبقى أساسية في اعتقادنا ، إذ أنه وفي هذه المرحلة بالذات - مرحلة التعليم الجامعي الافتراضي والعولمة المعرفية والفكرية الرهيبة في أبعادها والتي فاقت المنطق والمعقول على

جميع المستويات المادية منها والمعنوية ، والتي اكتسحت بمضامينها الحياة الفكرية التعليمية للجامعة الجزائرية بأبحاث لا تعد ولا تحصى لاسيما في ميادين ومجالات وتخصصات علم الاجتماع ، و«أمام التحولات التي يعيشها المجتمع الجزائري ومتطلبات القرن الحادي والعشرين والتي تقتضي من الجامعة الجزائرية ضرورة مراجعة أهدافها وهياكلها على النحو الذي يتوافق مع جذرية هذه التحولات ومغازيها ، ذلك أن التطورات السريعة و المتسارعة في التكنولوجيا ومطالب السوق مصحوبة بالطبيعة المتغيرة للتكوين الاجتماعي الجزائري تقتضي اتساعا ومرونة في المهارات والتوجهات أكبر بكثير من ذي قبل ، من هنا يتحتم على الجامعة خصوصا مسؤولية إعادة النظر في فلسفتها وبرامجها وتنظيماتها الحالية وذلك لتحقيق المطالب التي تملئها التنمية المستدامة في ثوبها المجتمعي الجديد⁽⁶⁾.

ففي مقابل كل هذا ، يستلزم على الباحث الاجتماعي أيضا إعادة النظر في نوعية الممارسة السوسولوجية المعتمدة لأهميتها من جهة ، ولقدرتها على تقديم معارف سوسولوجية جديدة منبعها الرئيسي واقع اجتماعي معطى فعليا ومتجدد باستمرار ، يعيد بناء انطلاقا من علاقته المباشرة بت دون أي وسائط فكرية جاهزة أو مستهلكة...

ويبقى الإنتاج الفكري المعرفي السليم في النهاية مهمة فردية وأحيانا جماعية من خلال الكثير من الأبحاث التي تنتج في المخابر يبرز فيها مدى تحصيل واستيعاب مجموع المعارف المكتسبة ، ومستوى التحكم في قدراته ومهاراته المتنوعة التي اكتسبها طيلة التكوين والتأهيل العلمي بعيدا عن الاستهلاك المعرفي شكلا ومضمونا ، وبالأخطاء المعرفية الموجودة في الكثير من البحوث التي يستعين بها ، والتي تحول ممارسته البحثية إلى إعادة تكرار النماذج المستعان بها ، بل أخطر من ذلك أن كثيرا من الباحثين يستعينون بأبحاث سابقة في نفس المجال ، لتتحول ممارستهم البحثية إلى إعادة تكرار النموذج المستعان به مع تكرار نقاط الضعف الواردة لأن الهدف الأساسي بالنسبة لهم هو الحصول على أكبر قدر من المعلومات في أقصر فترة زمنية ممكنة دون مراعاة الشروط العلمية لإنجاز البحث ، فيتحول البحث إلى عملية «استساخ» فكري حقيقي غير متكامل مما يؤدي إلى قطيعة معرفية بين ما هو نظري وبين واقع اجتماعي له خصوصيته الاجتماعية والثقافية من جهة ، ومن جهة أخرى جمع وتكديس الأفكار الإلكترونية المتعددة الأطروحات والمنتوعة التوجهات ، والتي أنتجت عجزا فكريا تنمويا حقيقيا انعكس على وضعية البحث السوسولوجي الجزائري...

إذ كثيرا ما نلاحظ كباحثين هذا الشكل المتكرر من الأبحاث شكلا ومضمونا دون إدراك لمواقع الأخطاء الواردة نتيجة استهلاك معارف عديدة ولا محدودة من مواقع إلكترونية مختلفة ارتبطت بواقع افتراضي قد يجعلنا دائما نطرح فكرة « ما يجب أن يكون » دون تمحيصها والتدقيق في مضامينها لاسيما المؤدجة منها الخاصة بمجالات علم الاجتماع ، وهو ما سيقود في الغالب إلى تجسيد طبيعة معرفية حقيقية بين ما استهلكه الباحث من معارف وبين ما يطرحه الواقع من ثقافات متنوعة تفاعلت مع أخرى دخيلة وطرحت تناقضات وصراعات نفسية اجتماعية كثيرة خصوصا تلك المرتبطة بالطابوهات التي تعجز الكثير من المعارف المستهلكة وبمقارباتها المختلفة طرحها وتحليلها لأنها تعكس خصائص ثقافية محدّدة المعالم ومحدّدة في الوقت ذاته للهوية الاجتماعية الجزائرية للأفراد l'algerianité ... بل قد تتحول بعض الأبحاث في الكثير من الأحيان إلى مجرد أفكار سوسيولوجية « سعيدة » في غالبها يستحيل إسقاطها واقعيًا...

إننا نؤكد على أن أي عملية بحثية نفضي في النهاية إلى منتج علمي معرفي مهما كانت طبيعته ومجاله وحتى وإن كان بسيطا أو مصغرا ، يعكس في النهاية (أي المنتج) فعلا علميا ذا قيمة معرفية ، وبالتالي مشروعية ممارسة نوع من التفكيرية عليه بالمعنى البوردي للكلمة « la réflexivité de Bourdieu » عليه... ليبقى الهدف الأساسي من كل هذا محاولة المساهمة في تأسيس فكر علمي سوسيولوجي معرفي نقدي موضوعي بالأساس...

ثالثا - الممارسة السوسيولوجية وضرورة امتلاك الراهن المجتمعي ؛

يرتبط نمو المجتمع إلى حد كبير بمدى النجاح المحقق في مجال تحديثه ، وإرساء قواعد نهضة فكرية وثقافية حقيقية ، وتعني عملية التحديث تجاوز البنى الاجتماعية التقليدية والعلاقات البالية المرتبطة بها. ويمر ذلك بالضرورة من خلال تحرير الأفراد والجماعات من قيود القيم والمعايير القديمة ، والتصورات الجامدة الناتجة عن قرون من الانحطاط الفكري والتخلف الاجتماعي لأن ذلك يفتح الطريق أمام حرية المبادرة والتعبير الحر والتفكير النقدي الجريء.. هي دعوة لإطلاق قوة الإبداع الكامنة في المجتمع وتحرير الفكر من القيود - مهما كانت طبيعتها - للتمكن من صياغة تصورات حديثة ملائمة لمواجهة تحديات العصر... (7).

راهنا الكل يتحدث عن التحولات البنيوية العميقة التي يشهدها المجتمع الجزائري ، وعن الأزمات الهيكلية المختلفة التي تعرفها مختلف هذه البنيات ، ومختلف الشروخ الاجتماعية و الهامشيات الجزئية الكامنة منها والظاهرة والتي

باتت من أولويات الهم البحثي السوسولوجي ، لذا نعتقد أنهم ضروري في هذه المرحلة التاريخية البحث في العلاقة الجدلية بين ما ينجزه الباحث السوسولوجي من أبحاث علمية معرفية في علاقتها بالواقع الاجتماعي ، وإن كانت تشكل مركز اهتمام أو مجرد تكرار لمعارف مستهلكة أو وهمية تهمش وتغيب فيها الحقائق المجتمعية التي تقترب فيها أكثر من الواقع الاجتماعي ومنتج مفاهيم خاصة بعيدا عن تكرار واستهلاك نماذج بحثية عامة...

ففي ظل عولمة فكرية رهيبية فاقت المنطق والمعقول وفرضت منطق البحث الجاد وسلامة اللغة البحثية في مقابل توفير كل الإمكانيات اللازمة لتحقيق النتائج العلمية المتوصل إليها من خلال البحوث المنجزة قد يحق لنا التساؤل عن وضع علم الاجتماع ومجموع الأبحاث العلمية السوسولوجية المنجزة والتي تشترك مع الآخر الغربي منه والعربي في طبيعة المعارف المكتسبة وتختلف في اعتقادنا في نوعيتها...

هذا الاختلاف هو جوهر القضية المطروحة لأنه يعكس واقعا علميا وبحثيا ، يحاول فاعلوه الاجتماعيين إن كانوا أساتذة باحثين أو طلبة إنجاز كم هائل من البحوث العلمية وتقديم إنتاج فكري ومعرفي يدعو فعليا إلى ممارسة فعل نقدي يستمولوجي على مضامينه للتأكد من مدى سلامته ونجاعته وبالتالي مساهمته في تنمية المجتمع الذي يعيش تغيرات عميقة وعلى جميع المستويات...

فالاعتماد على مضامين معرفية مختلفة الأطر المرجعية والإيديولوجيات اللاعلمية تعني بالضرورة الوقوع في انزلاقات واختلالات معرفية تؤدي بالضرورة إلى إنتاج معرفي غريب وهش على جميع المستويات ، ضف إلى ذلك وهو الأهم في اعتقادي أن عدم دراية الباحث دراية كافية بالمجتمع المدروس سيجعله يعيش حالة توتر وتردد ولا استقرار فكري ...

وقد تبدو هذه الانتقادات شكلية لكنها في اعتقادي محور المشكلة العلمية المطروحة لأن كل هذا الإنتاج المعرفي «المكدس» في مكاتب الجامعة الجزائرية يجعلنا في حالة قلق معرفي متواصل ، وفي تساؤل دائم ومستمر عما قدم البحث السوسولوجي للمجتمع الجزائري طيلة الفترات التاريخية التي مرت بها الجامعة الجزائرية أو بالأحرى ما طبيعة العلاقة المؤسسة بين علم الاجتماع بتخصصاته المختلفة وأبحاثه المتنوعة ظاهريا وبين المجتمع الجزائري... ، وهل ساهم في طرح وتحليل و«معالجة» الكثير من القضايا والمشاكل الاجتماعية بجميع أبعادها أم بقي منحصر في المرحلة الأولية له - مرحلة التأمل البحثي والإنتاج الفكري المحدود -

مثلما أُريد له أن يكون في مختلف مراحل إنجازهِ بالجامعة الجزائرية ، وبالإيديولوجيات السياسية والفكرية المختلفة التي أثرت على مضامينه العلمية الحقيقية ، وجعلته بحثاً مؤدلجاً بامتياز. والأكيد مهمّشاً وبامتياز أيضاً... ؟

في هذا الإطار يطرح إشكال ثان هام جداً وهو نوعية التكوين المعرفي الذي تلقاه الباحث ، قراءاته ، عالمه السياسي والثقافي والديني ، قدرته على فهم واستيعاب واقعه المعطى ، مدى اقترابه من هذا الواقع وبالتالي تقديم مقاربات سوسيوولوجية جادة... وهي معطيات هامة جداً تؤثر بشكل أباخر على نوعية المعارف المنتجة والمرتبطة بشكل أساسي بالواقع منطلقاً في ذلك من رؤية سليمة وفحص دقيق وعلاقة جدلية مؤسسة مع الواقع البحثي بعيداً عن السطحية والبساطة في الوصف والطرح والتحليل لأن تنمية المجتمع تتوقف إلى حد كبير على ما سيطرحة من أفكار وتأويلات وبالتالي على مجموع قوالب فكرية نقدية مبنية على فهم حقيقي للمجتمع الجزائري ولخصوصياته...

نعتقد وأمام كل ما طرح أننا فعلاً نعيش أزمة فكرية سوسيولوجية معرفية حقيقية من خلال سوء توظيف المعارف المستقاة من الفضاء الخارجي بشقيه الواقعي والافتراضي ، في حين أن البديل هو كمي يمكن استغلال هذه المعارف وتوظيفها لخدمة البحث والوصول إلى نتائج علمية معرفية تخدم المجتمع والفرد والجامعة في الوقت ذاته...

إن الباحث السوسيوولوجي مطالب بسبر أغوار المجتمع وفهم آليات سيره وعلى جميع المستويات بدءاً بالسياسية منها ووصولاً إلى الثقافية والتربوية لاسيما المجالات المغلقة التي كثيراً ما ارتبطت بالطبوهات ، شرط تحرير فكره من أي تبعية كانت حتى يساهم في تحقيق تنمية مجتمعية حقيقية...

فهل من المنطقي أن يبقى البحث السوسيوولوجي بفروعه المختلفة رهين قوالب فكرية جاهزة مستهلكة لمجموع معارف علمية أنتجت في مجتمعات مختلفة جذرياً عن مجتمعنا بما فيها المجتمعات المحلية العربية ، بعيدة عن مواكبة التغيرات المجتمعية وإفرازاتها الخطيرة في الكثير من جوانبها والمؤثرة في الحياة الاجتماعية للأفراد...

إن العلاقة بين عالم الاجتماع والمحيط في هذه المرحلة التاريخية بالذات شبه منعدمة ، مبنية سلفاً ، تحكمها أفكار مسبقة وعلاقات محدودة عقيمة التفاعل ، ومنعدمة الجدل ، بعيدة عن أي استثمار فكري معرفي يخدم الطرفين ، بل أخطر من ذلك مؤشر حقيقي «أي العلاقة» لواقع كان من المفروض أن يمتلكه الباحث وأن

يحوّله إلى فضاء علمي بحثي معرفي ووجود حقيقي لا وهمي محكومة بالصدفة ...

خاتمة

وفي النهاية ينبغي أن نؤكد على أن مجموع الاشكالات المطروحة هي محاولة جادة نسعى من خلالها إلى إعادة التفكير جدياً في إعطاء القيمة العلمية والمعرفية للبحث السوسولوجي إيماناً منا بقدرته الفعلية على تحقيق تنمية مجتمعية حقيقية... ، وأن الباحث السوسولوجي الهادف إلى تأسيس معرفة علمية واقعية يجب أن يؤمن بقدره هذا العلم على تغيير المجتمع ، وعلى الكشف عن الحقائق الاجتماعية من خلال ممارسة سوسولوجية معرفية نقدية حقيقية منتجة لخطاب علمي لمجتمع يبرز تحت جملة تناقضات وتحولات ، وليس بآلة لإعادة إنتاج ما استهلك من معارف...

إننا نبحت ، وفي الوقت ذاته نعيد بناء واقع مجتمعي انطلاقاً من مجموع قراءات ومعارف علمية معرفية مستقاة ساهمت في تكوين خيال سوسولوجي معرفي دفعنا للبحث أكثر في مواضيع وقضايا مختلفة بشكل موضوعي بعيداً عن أحكام مسبقة كثيراً ما تحكمت في سلوكياتنا... ، وصياغات ثقافية سائدة غالباً ما كانت نقطة بداية خاطئة للكثير من البحوث العلمية والمعرفية... ، سطحية بالدرجة الأولى... ، بسيطة... لم تتمكن قط من مسائلة الواقع المجتمعي ولا من مقارنته علمياً ، ولم تتمكن من فهم آلياته التي تشكل ولا يزال منها النسيج المجتمعي...

لكي نبحت في قضايا مجتمعنا فعلياً ، فإننا نعتقد أنه حان الوقت للابتعاد عن الكثير من الأحكام المسبقة التي تضع الباحث السوسولوجي في موقف دغمائي يقوم من خلاله بفرض تصورات على الواقع في شكل قوالب جاهزة غير قابلة للتعديل ، مما يؤثر سلبياً على نوعية المعلومات التي يجمعها... وقد يكون الأمر مخالفاً لدى البعض الآخر حين يحاولون البحث بالواقع بشكل عفوي أو تلقائي بسبب الجهل بالواقع وبحيئاته المختلفة ، وفي ظل انعدام العلاقة الجدلية بين ما يكتسب من معارف وبين ما هو معطى واقعي... مما يجعل الكثير من النتائج البحثية المتوصل إليها لا تعبر فعلياً وواقعياً عن حقائق الظواهر المدروسة بل وتعيق تفسير وتحليل الكثير من المضامين والمعاني الاجتماعية الخفية منها بالخصوص...

وأيضاً سلوك بحثي يعكس هروبا غير معلن وغير واع من الواقع الاجتماعي أين يشعر فيه الكثيرون بأنهم غير مؤهلون للتعامل معه وبالتالي لا يدركون ولا يفهمون معاني ودلالات ما يقع أمامهم من تغيرات ومن أحداث...

نقطة هامة أيضاً ومثيرة في ظل ما طرح وهي أن علم الاجتماع وفي هذه

المرحلة التاريخية الخطرة المسار ، مطالب بعملية مراجعة كلية لأدواره ووظائفه ، والاتصال المباشر والجدلي بالمحيط الاجتماعي لكي ينتج فكرا علميا واقعيًا ونوعية جيدة مرتبط أساسا بطلب اجتماعي جماعي بعيدا عن أي خيال علمي فكري مستورد افتراضيا ، كما أنه بحاجة فعلية إلى تحقيق فكر علمي نقدي واقعي بعيدا عن أي خطاب فكري هش أو تبعية سياسية غايتها الأولى تبرير الوضع الاجتماعي القائم لاسيما وأن هذا الواقع يعرف تغيرات عميقة التأثير على المؤسسات المجتمعية...

بل إن قراءات تحليلية علمية لآلاف من الأبحاث المنجزة البسيطة منها والأكثر تعقيدا تدعو فعليا إلى وعي سياسي حقيقي بأهميتها ومحاولة الاستفادة منها...

في النهاية ينبغي أن نؤكد على نقطة جوهرية من خلال مجموع الإشكالات المطروحة والتي نعتبرها محاولة فكرية نقدية جادة في إطار إعادة النظر في علاقة علم الاجتماع بالمحيط الاجتماعي وبقدرة مجموع المعارف المتداولة المكتسبة منها والمنتجة على تنمية المحيط الاجتماعي ، وعلى الكشف عن الحقائق المجتمعية من خلال ممارسات سوسيوولوجية نقدية حقيقية منتجة لخطاب علمي معرفي حول مجتمع يزرع تحت جملة تناقضات وتحولات ، وليس بألة لإعادة إنتاج ما استهلك من معارف...

مراجع المقال

- 1 - إبراهيم تهايمي: أي جامعة تحتاج الجزائر في ظل عولمة القرن الحادي والعشرين ، في مجلة الباحث الاجتماعي ، العدد الرابع ، جامعة قسنطينة 2003 ، ص 49.
- 2 - عنصر العياشي: نحو علم اجتماع نقدي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1999 ، ص 70.
- 3 - عبد القادر لقيج وآخرون: علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر ، دار القصة للنشر والتوزيع ، 2004 ، ص 15.
- 4 - أيمل دوركايم : قواعد المنهج في علم الاجتماع ، ترجمة ، الجزائر ، دار موفم للنشر ، 1990 ، ص 1.
- 5 - عبد الله محمد عبد الرحمان: سوسيوولوجيا التعليم العالي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1991 ، ص 215.
- 6 - إبراهيم تهايمي ، نفس المرجع السابق ذكره ، ص 49.
- 7 - عنصر العياشي: سوسيوولوجيا الديمقراطية والتمرد بالجزائر ، القاهرة ، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، 1999 ، ص 53.

الاختيار المهني والتنمية الاقتصادية

عبد النور أرزقي*

الملخص :

يُعد الاختيار المهني من القضايا الهامة جدا في تخطيط وتنفيذ العمليات الاقتصادية ، لاسيما في العصر الحاضر، عصر السرعة والتطور الاقتصادي ، وذلك بسعيه لتفادي الالتحاق العشوائي بالمناصب وتحقيق التوزيع العلمي للقدرات . وقد أدركت ذلك الدول المتقدمة وسعت إلى إعطائه المكانة اللائقة حتى أصبح منطلق كلّ توظيف ، وربطت المحافظة على المورد البشري به ، بل جعلته فصلا هاما وأساسيا في مشاريع التنمية الاقتصادية .

الكلمات المفتاحية : الاختيار المهني - التخطيط - التنمية - التنمية المستدامة .

Abstract:

The professional selection is an important task in economics operations , with it the organisations make good recrutement . The lasting development is based on workers selection , because it gives opportunities to persons in order to use their capacities , but this level of thinking is absent in the underdeveloping countries.

The key words : La sélection professionnelle , La planification, le développement , le développement durable . Professionnel sélection , the développement , the lasting développement .

تمهيد :

يتطلب التقدم الحضاري وتطور متطلبات العصر ظهور مهن جديدة أحيانا وتطوير المهن الموجودة أحيانا أخرى ، لتواكب هذا التغيير. ومع دخول الآلة الحديثة ميادين العمل صار الفرد العامل عاجزا عن غير قادر على التعامل معها بنفس الكيفية وبنفس القدرات التي كان يتعامل بها مع المهن السابقة . والنمو الديمغرافي ، الذي أدى إلى وصول أعداد ضخمة من الأفراد لسن العمل ، يفرض

* كلية علم النفس والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة أكلي محند أولحاج بالبوية arezkiab@yahoo.fr

إيجاد توجيه مهنيّ فعّال ، يؤدي لامتناس هذه الزيادة أولاً وإلى إيجاد التكاملي والانسجام بين التعليم والتكوين وحاجات المجتمع للمهن المختلفة ثانياً ، ثم توزيع القدرات والمهارات بكيفية تضمن توظيفها توظيفاً جيداً . وقد بات لزاماً على الدول والحكومات الاهتمام بالاختيار والتوجيه عند تصميم برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية بسبب ما يلعبه من دور فعّال بل محدد . وإذا كان لا بد من إيجاد العمل لكل كحق مدني من جانب وكوسيلة لهيكله الأفراد من جانب آخر فهو الوسيلة العقلانية لتوزيع الثروات.

الاختيار المهني :

يسعى الاختيار المهني لتفادي الالتحاق العشوائي بالمناصب ، وبالتالي يهدف إلى تحقيق التوزيع العلمي للقدرات حسب متطلبات المناصب (1) ، يحاول إذن اتقاء من بين المترشحين أو المتوفرين لمهنة أو عمل ما الأفراد الذين يمكن أن يتكيفوا معها بسهولة وبسرعة ، « وهو كحتمية ، فرضته عدّة سلبيات أنقائص تظهر بعد التوظيف كالمدة الزائدة أو الكبيرة المستغرقة في التعلم ، قلة المردود ، الحوادث ، اللارضى و الاستقرار وما إلى ذلك (2) وطبعاً التكيف أساس كل نجاح ، كم من فرد فشل في دراسته ، في مهنته أو في حياته الاجتماعية ليس لبساطة مستواه أو لعدم تمكنه ، إنما لعدم تكيفه. إن تطوّر الآلات ووسائل الإنتاج الذي حرر الإنسان من الأعمال الشاقة ، جعل القدرات العضلية أقل أهمية ورفع من قيمة ومكانة القدرات الذهنية ، وقد حدث تحوّل تدريجي في ظروف الأداء وفي توزيع المهن ، كما أدى ازدياد المقبلين على العمل ، التحاق المرأة بعالم الشغل ، والارتفاع المذهل للمنصب المتطلبة للقدرات الذهنية واكتساح الآلة لمجال العمل اليدوي إلى ضرورة هذا الاختيار.

يؤكد العلم بأن لكل فرد قدرة في ميدان ما واستعدادات في أمر محدد ، لا يوجد فرد سويّ بدون أية قدرة ، إنما الفرق بين الأفراد في نوعها ومستواها ، لذا فالاختيار هو اختيار أفراد تتماشى قدراتهم مع متطلبات المنصب ، وطبعاً تختلف المتطلبات من منصب لآخر ، فالعملية هي عملية توزيع ، مما يؤكد على خطأ فكرة اختيار ذوي المواهب والقدرات الخارقة . ومن أهداف الاختيار عدم تضييع القدرات ، أي استغلالها استغلالاً جيداً ، وطبعاً لكي يحدث ذلك لا بد من توجيهها للمنصب التي توفر لها إمكانية البذل وفرص الإبداع ، فتوجيه قدرة عالية

(1) كيت كينان ، اختيار الموظف المناسب (ترجمة ناجي حداد) لبنان : الدار العربية للعلوم ، 1995 ص 70
(2) H.Pieron et al, L'utilisation des aptitudes : orientation professionnelle. Paris : P.U.F , 1954, P- 342.

لمنصب بسيط يعد - من وجهة نظر اجتماعية - تضييع للمورد .
إنّ عمليّة اختيار الأفراد كالبحث عن شيء مفقود في غابة كثيفة وذات تضاريس وعرة ، يستلزم الدراية بما نسعى إليه والتسلح بقوة التعرّف عن هذا الشيء عند العثور عليه . أن نطلق بمجمل شروط الوظيفة (بعد تحليلها) وننتهي بمعرفة ما لدى الأفراد من قدرات واستعدادات (بعد دراستهم) ثمّ، وهو الأهم، المماثلة بينهما متصورين مجال التكيّف والنجاح.

هدف الاختيار المهني :

يسعى الاختيار المهني إلى تكييف الأفراد مع المهن الكثيرة والمتنوعة ، وذلك بالتوفيق بين المهن والفروق الفردية الموجودة بين الأفراد ، أي يسعى إلى عقلنة (Rationalization) هذه الفروق مع تنوع المهن ، بمعنى اختيار لكل مهنة الفرد والأفراد المناسبين لها ، القادرين على أدائها بأحسن كفيّة ، وعلى ذلك فإنّ الاختيار أبعد ما يكون توزيع للأفراد (Repartition) ، بشكل عشوائي واعتباطي . وقد أثبتت الدراسات لا تساوي الأفراد أمام المهام التي يؤديونها في كفيّة التعامل معها وهي درجة التكيّف والتناسق مع متطلباتها ، وحتى في المهن البسيطة التي لا تتطلب وقتا طويلا ولا جهدا كبيرا لتعلم مهامها ظهر نوع من الاختلاف بين الأفراد من حيث الأداء والمردود . فالهدف إذن من الاختيار هو التوفيق بين الفرد بقدراته ، وإمكاناته ، واستعداداته وميوله من جهة والمنصب بمتطلباته وخصائصه من جهة أخرى . والفائدة ترجع على الفرد بتحقيق رضاه وأداء عمله بسهولة وعلى المؤسسة بتحقيق المردود والاستقرار وقلة الغيابات ، وتلني نسب التسرب المهني والتمارض والحوادث وغيرها ... ومن ثمّ على المجتمع طبعا بالاكفاء والازدهار والتقدم .

يُعدّ توظيف الأحسن أهم فعل تسييري بفعل النتائج التي يحققها (1) ولهذا ظهر ما يعرف باصطياد الأحسن La chasse au meilleurs والملاحظ أنّ المؤسسات التي تحقّق نجاحا في سياستها التوظيفية تعتمد على ثقافة توظيف الأحسن ، وللرفع من أدائها على المديين القصير والطويل فإنّ الوسيلة الأكثر فعالية هي الرفع من مستوى القدرات المطلوبة ، وذلك يتمّ أولا عبر توظيف الأحسن ثمّ انتهاج سياسات وبرامج تكوينية صارمة ودقيقة وفعالة .

(1) Charles H.Dumon Recruter les meilleurs. Paris : les editions d'organisation , 2005, P-9.

. التنمية :

مفهوم التنمية معقد ومتشابك ومتداخل مع مفاهيم كثيرة تلتقي معه كالتقدم ، التطور والتحديث ، التصنيع وحتى التكنولوجيا . والواقع أن تحديده يرتبط بالمجتمع وثقافته ، فعرفت « بعملية تنشيط الاقتصاد القومي وتحويله من حالة ركود وثبات إلى مرحلة الحركة والديناميكية عن طريق زيادة إجمال الناتج القومي ».(1) وإلى جانب واحد. تعريف الاقتصادي البحت ظهر تعريف اجتماعي وهو عملية توفير الاحتياجات الأساسية للإنسان من مأكّل وملبس ومسكن وصحة وتعليم وعمل ، وتعريف سياسي وهو توفير فرص المشاركة في تقرير المصير وحرية التعبير والتفكير والأمن والتمتع بروح المواطنة ... ولذلك ظهر من تحدّث عن كلّ ذلك وجمعه في تعريف واحد . في هذا الإطار يرى بوزيك Eugen Pusic بأنّ « التنمية عملية متكاملة وهي التفاعل الديناميكي بين المجتمع ومستوى الإنتاجية التي بلغها . الإنتاجية التي تعني طاقات جميع أفراد المجتمع (2) . وفي هذا الإطار يذهب بوسنه (1986) إلى وجوب التفرقة بين مفهومي التطور والتقدم ومفهوم التنمية ، حيث يشير بان مفهوم التنمية « يتضمن الفعالية الإرادية الهادفة لإحداث تغيير مقصود وبشكل واع » . إذن فهو مفهوم ومدلول ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي .

تمثل (التنمية) برنامج تغيير مقصود في المجتمع ولا ترتبط (التنمية) بقطاع دون آخر ، فهي شاملة. لا يمكن أن نتحدث عن تنمية مجتمع في ميدان دون الميادين الأخرى هي كلّ متكامل . وهذا لكون المقوم الأساسي ووحدة واحدة وهي الإنسان. وعلى ذلك لا تمثل فحسب الناتج النهائي للمتغيرات الثقافية ، الاجتماعية ، السياسية والاقتصادية ، إنّما محصلة لتفاعلات دائمة بين هذه العوامل أما عن أهمية جانب على حساب الجوانب الأخرى فتتوقف على الدور الذي لعبه في مرحلة من مراحل التنمية من بلد لآخر أو حتى من مرحلة زمنية لأخرى ، فقد تلعب العوامل السياسية دورا بارزا في إحدى المراحل في بلد ما ، بينما تلعب العوامل الاقتصادية دورا كبيرا في مرحلة أخرى أو في بلد آخر. وبشكل عام نقول بأنّ التنمية هي إحداث تغييرات جذرية في مجتمع ما ، بهدف إكسابه القدرة على التطور الذاتي المستمر ، يؤدي لتحسّن في نوعية الحياة تماشيا مع ازدياد حاجات

(1) رشاد أحمد عبد اللطيف ، التنمية المحلية ، الإسكندرية : دار الوفاء للنشر والطباعة و النشر ، 2011 ، ص 8 .
(2) أسامة عبد الرحمن ، البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية ، في : عالم المعرفة ، العدد 7 ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1982 ، ص 24 .

أفراده ومع تطوّر الحياة الحديثة ، بمعنى الاستجابة للحاجات الأساسية والحاجات المتجددة . وبسبب التعارض الموجود بين استغلال الموارد لأقصى حد صونا للتنمية عما قد يصيبها من تلف واستنزاف ظهر مفهوم آخر وهو التنمية المستدامة ، والتي تعني التنمية التي تلبّي حاجات الحاضر دون المساومة أو المساس بقدرة الأجيال المقبلة في تلبية حاجياتهم (1) ، أو هي تلك التنمية التي تستخدم الموارد الطبيعية دون استنزافها أو تدميرها (2) فهي إذن العملية التي تسعى إلى تحقيق نمو اقتصادي يحقق تلبية احتياجات المجتمع ويتلاءم مع ظروف البيئة دون استنزافها. أي تعمل على تحسين حياة الأفراد وظروفهم دون التفريط في البيئة التي هي طبعاً أحد شروط التقدم والاستمرار ، هذا يعني استخدام الموارد الطبيعية بطريقة عقلانية ، لا يتجاوز هذا الاستخدام معدلات تجدها الطبيعي ، إلى جانب محاولة إيجاد البديل . تسعى إلى تحقيق معدلات نمو اقتصادي في ظل اتخاذ إجراءات المحافظة على البيئة والموارد الطبيعية ، وعلى ذلك فهي الوسيلة الأنجع والسبيل الأوحّد لضمان حياة جيدة للأفراد حاضراً وللأجيال مستقبلاً .

الأکید أنّ الطاقة البشرية من أهمّ الموارد بل هي الرأسمال الحقيقي ، الذي ينبغي المحافظة عليه أولاً ثمّ توظيفه بشكل يضمن عطاءه ثانياً ، ولكن نضمن أيضاً استمراره لأطول مدة ممكنة ، فاختياره وتوجيهه للمنصب الذي يناسبه يضع أمامه فرص التعبير عن قدراته وتوظيفها وحتى تطويرها ، ويجعله يتكيف بسرعة وسهولة ويجنبه الحوادث المهنية ، ما يعني اقتصاداً له كعنصر هام في عملية الإنتاج واقتصاداً لما لديه من معارف مهنية وخبرة . وطبعاً لا يمكن لأية تنمية أن تقوم أو على الأقل أن تدوم ما لم تهتم بالموارد البشرية ، فلا الآلات والتجهيزات ولا الهياكل ولا الأموال كافية ما لم تكن وراءها يد عاملة ماهرة وواعية .

الاستخدام العقلاني للموارد :

تقوم التنمية المستدامة على الاستخدام العقلاني للموارد المتمثل في: (3)

- تحديد مناطق تنفيذ النشاطات الاقتصادية : عند تحديد المناطق يجب

(1) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، 1984، مستقبلنا المشترك (ترجمة محمد كامل عارف) ، في : سلسلة عالم المعرفة ، العدد 142، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1989، ص 83 .

(2) Geis and Kutzmarle, Developing sustainable : the future is now. Center of excellence for sustainable developing , 1997,P-2

(3) Kozłowski and Hill, towards Planning for sustainable développement, A guide for the ultimate environmental threshold method. Sydney :Ashgat publication, 1982 ، 24 ، الوطني للثقافة و الفنون و الأدب P-10-1998 ،

التفكير في عواقب النشاطات التنموية ومخلفاتها ، فلا ينبغي أن تؤدي لتدمير البيئة وإزالة إمكانية تجديدها ، وإن اقتضى الأمر نُقلت الموارد الطبيعية لمناطق أخرى بعيدة عن مكان تواجدها .

- حجم الموارد الطبيعية الكامنة وكميتها : لا بد من التوقف عن استغلال الموارد الطبيعية في الحد الذي تبدأ فيه الآثار السلبية في الظهور ، وهذا يفرض ضرورة الموازنة عند استغلال أي مورد بين نتائجها الاقتصادية وأثره البيئية .

- مدة التنمية وتوقيتها : يتمثل هذا المبدأ في مدى تأثير مدة وقت التنمية في الموارد ، فتسريع عملية استغلال مورد ما باستعمال تقنيات والآلات معينة وإجرائها في توقيت ما قد يؤثر سلبا في المورد ويستنزفه. ينبغي إذن قبل الانطلاق معرفة المورد أولا بخصائصه ومميزاته ثم دراسة المدة والتوقيت.

تؤكد هذه المبادئ على أهمية معرفة الخصائص الطبيعية للمنطقة المراد إجراء التنمية فيها نظرا لاختلاف البيئات من حيث خصائصها الطبيعية.

مقومات التنمية :

توجد شروط مرتبطة بالتنمية ، وجودها وقوتها يحددان مستواها ومدة حياتها ، نذكر بعضها في ما يلي :

. **السكان** : للنمو الديمغرافي ارتباط وثيق بالتنمية فمعدله ونسبته مقارنة بالمساحة يلعبان دورا سلبا أو موجبا. وطبعا لليد العاملة دخل في ذلك ، إضافة إلى التركيبة العمرية ، فهناك فرق من حيث الدور بين مجتمع نسبه الكبرى شباب ومجتمع آخر نسبه العظمى شيوخ . وقد يتحول تعداد السكان إلى عالية وسبب من أسباب إعاقة التنمية ، فعدم تبني سياسة تنموية راشدة ، تجعل من زيادة السكان ارتفاع نسبة الإعالة وزيادة الطلب على الخدمات ومن ثم انخفاض مستوى المعيشة ، حالة نجدها عند بعض الدول النامية التي لم تتمكن من التحكم في تنميتها . وبالمقابل يشكل كبر عدد السكان قوة ، لأن أي برنامج لا يمكن تطبيقه في حالة غياب العنصر البشري ، وأصبح المورد البشري أهم شروط التنمية ، لكن بتوفير شروط وأسباب تحوله إلى القوة ولا يتم ذلك سوى بوجود منشآت اجتماعية قوية وفعالة أولها وأهمها المدرسة ، فبعض الدول تجعل من ارتفاع عدد سكانها قوة تحقق بها تنمية كبيرة ، والصين خير مثال عن ذلك .

. **قوة العمل** : المقصود وعدد الأفراد القادرين على العمل ، تشكل الأعداد الكبيرة لليد العاملة قوة حقيقية وقاطرة قوية للتنمية ، كلما اتسم مجتمع بارتفاع

المقبلين على العمل وزاد عن عدد المحالين على التقاعد كلما كان بمنأى عن الأزمات ، لكن بشرط التحكم في التشغيل أولاً وتفعيل هذه القوة بتكوينها مهنيًا وتوجيهها وإرشادها ثانياً ، وطبعاً تمثل مشكلة البطالة أهم وأخطر المشاكل التي تواجه وتجاها الاقتصاد . ولاشك أن بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي يتسم تعداد سكانها بالشيخوخة قد أدركت الخطورة فتوجهت إلى تشجيع الهجرة لاسيما ما يعرف بالهجرة الاقتصادية L'émigration économique أو الهجرة الانتقائية Sélectionnée فقد أدركت بأنه لا يمكن إحداث تنمية اقتصادية ما لم تتوفر الموارد البشرية .

. القوة التكنولوجية: إذا كان لأبد من يد عاملة فنية مؤهلة لدفع التنمية قدماً لاسيما في عالم تسوده المنافسة ، فإنها تبقى قليلة المنفعة ما لم ترافق بآلات حديثة وتجهيزات متطورة . اكتسحت الآلة بشكل غريب عالم الشغل ، بل من النادر وجود عمل دونها حتى في أبسط المهن ، وذلك لما توفره من إنتاج ووقت وجهد . والتنمية الاقتصادية تعريفاً هي عملية التغيير التي يقوم بها الإنسان للانتقال من مجتمع تقليدي زراعي لمجتمع متقدم صناعياً (1) ، وطبعاً التقدم الصناعي يتطلب إلى جانب الموارد البشرية والطبيعية القوة التكنولوجية .

. السياسة الاقتصادية: تبقى المقومات السابقة عديمة أو قليلة الفائدة ما لم تدعم بسياسة اقتصادية حكيمة ، تسعى إلى التحديث والاستقرار والارتقاء بمستوى المعيشة ومحاربة البطالة وصيانة الشباب وتوسيع قاعدة التكامل الاجتماعي و تطوير الإدارة والاستغلال الأمثل للطاقات الإنتاجية ... وهذا لا يتم سوى باعتماد التخطيط كمنهاج للتنمية ، الذي يُعد ضرورة فرضتها الأوضاع والظروف المتغيرة في ظل اقتصاد السوق والعولمة . وتزداد أهميته مع ندرة الموارد الاقتصادية وعدم توازنها مع النمو الديمغرافي المطرد . أصبح التوجيه المهني إحدى المسائل الأساسية في الاقتصاد في وقت يشكّل فيه توزيع اليد العاملة نقطة حساسة في تحولات العالم (2).

مكانة الاختيار والتوجيه في التنمية :

لكون هدف التنمية هو تحقيق نمو اقتصادي يضمن وهي: احتياجات المجتمع ، فإن الاختيار يسعى إلى تزويد عالم الشغل بكفاءات تؤدي إلى الرفع من

(1) أحمد عبد الفتاح ناجي ، التخطيط للتنمية في الدول النامية. الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث، 2010 ، ص33.

(2) جان دريقبون ، التوجيه التربوي والمهني. ط 2. (ترجمة ميشال أبي فاضل)، بيروت : عويدات للنشر و الطباعة ، 1998 ، ص 31.

نوعية وكمية الإنتاج والخدمات ، التي بدفعها لتقديم كل ما لديها تؤدي إلى ضمان احتياجات المجتمع . ولتحقيق ذلك نقترح العملية ذات أبعاد ستة وهي :

1. اعتماد الأسس العلمية : ينبغي أن يعتمد الاختيار المهني على أسس علمية ، بعيدا عن الارتجالية والعشوائية . أساس الاختيار هو الربط بين متطلبات المناصب وخصائص الأفراد ، أي انتقاء الأفراد الذين تتماشى قدراتهم ، إمكانياتهم ومؤهلاتهم مع متطلبات المنصب . وبهذا تستبعد كل الاعتبارات الأخرى كالجنس ، الطبقة الاجتماعية والانتماء الحزبي والمحسوبة ، وهذا يتم باستعمال وسائل الاختيار العلمي كالمقابلة ، علم التخطيط Graphologie (المعنى الفعلي لهذا المفهوم هو قراءة اليد أو علم قراءة خطوط اليد...أقترح حذف هذه الجملة لأن هذه التقنية تبقى بعيدة عن العلم وهذا رغم استخدامها في العديد من المؤسسات بالبلدان الغربية) ، تقنيات الجماعة Technique du groupe الروايز والاختبارات النفسية والمهنية و... الكفيلة بإيضاح وإبراز مقدرة المترشح للمنصب وإمكانية الالتحاق به من عدمها. وفي هذا الإطار نؤكد بأن ملف الترشيح وسيلة من بين الوسائل فقط ، أي يعطي مؤشرات يجب تأكيدها ، فالشهادة الأكاديمية لا تعني شيئا في حالة عدم أهلية حاملها ، لذا لا بد من إجراء مقابلات وروايز لمعرفة مستوى المترشح لأن التمكن في العمل يرتكز على المعرفة والمعرفة الأدائية ، لذا على القائم بالاختيار أن يتشبع بالثقافة المهنية : نسيان كل الاعتبارات ووضعها جنبا أمام معادلة المتطلبات والخصائص ، أمر يؤكد على تكوينهم تكوينا علميا وثقافيا . إن التحاق غير القادرين بالمنصب يعني الفشل المهني الذي ترجع عواقبه على الفرد ذاته ، المنظمة والمجتمع ككل . قد يؤدي الخطأ في التوظيف إلى إفلاس المؤسسة ، تدمير حياة مهنية وحتى « قتل » الأفراد بسبب الضغط ومخلفاته العضوية (1) .

2. صرامة الاختيار : نقصد بها عدم ملء المناصب بشكل آلي ، لا يعني إنشاء مناصب مالية إلحاق الأفراد بها مهما كانت ملامحهم ، وهو أمر يؤكد على محاربة ثقافة (المساندة L'assistanat) أو (الاجتماع Le social). نوظف أو نختار الذين تتماشى ملامحهم مع متطلبات المنصب ، وإذا اقتضى الأمر بقاء المناصب شاغرة فليكن لأن توجيه ملامح لمناصب غير ملائمة يؤدي لنتائج وخيمة ، من الأحسن إبقاء أصحابها دون عمل مع طبعها التكفل بهم اجتماعيا ضمانا للعيش الكريم . حتى الذين تفوق قدراتهم المنصب لا يؤخذون ، لأن ذلك قد يؤدي لمشاكل تنجم عن عدم التوافق بين مستوى القدرات ومستوى العمل ناهيك لما

(1) Ch .H.Dumon, op-cit, P46.

لذلك من بعد اجتماعي واقتصادي من باب تضييع القدرات وعدم استغلالها الاستغلال العقلاني والأمثل . إن شساعة الهوة بين القدرة والمهام يؤدي أحيانا للحوادث المهنية ، إضافة إلى قتلها بسبب الملل لدى العامل ، الرتابة وحتى ردع الإرادة وقتل حب الإبداع .

3 . إجبارية الاختيار: إن تعقد العمل وتطلبه لقدرات ذهنية أكبر ، ظهور التخصص والتطور التكنولوجي المذهل أدت إلى حتمية إجراء عملية الاختيار. أمر يؤكد على ضرورة إجراء مسابقات الاختيار في كل عملية توظيف . والأمر الملاحظ في بلادنا هو اقتصار العملية على بعض المهن العليا وعلى بعض المؤسسات كسوناطراك وسونلغاز ، في الوقت الذي من المفروض أن يمس كل المهن حتى البسيطة جدا ، وكل المؤسسات والقطاعات لأن بين المستويات العلمية والشهادات فروق من حيث التمكن والزراد الفكري والعلمي .

4 . التوزيع العقلاني للقدرات: المجتمع عبارة عن قدرات ، يجب توظيفها واستغلالها أحسن استغلال ، والفرق بين الأمم ، من حيث انتهاج سبل التنمية والتحكم فيها ، يكمن في اكتشاف كل القدرات الوطنية ، تنميتها ثم توزيعها توزيعا عقلانيا على مختلف القطاعات. أمر يؤكد على أهمية التخطيط على المستوى الفردي وعلى المستوى المجتمعي . يرجع البعض عدم نجاح الفرد في دراسته أو في مهنته إلى عدم نجاحه في وضع الخطة التعليمية والمهنية المناسبة . التخطيط المهني هو وضع خطة لاختيار مهنة تتناسب مع ما لدى الفرد من مميزات ووفق ما يفرد به من خصائص ، هذا على المستوى الفردي أما بالنسبة للمجتمع فهو وسيلة منهجية تسعى لتحقيق رفاهيته . إن تحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي بصورة سريعة لن يتم إلا بتبني سياسة تخطيطية فعالة وراشدة ، أساسها معرفة الإمكانيات الحقيقية للمجتمع ثم توظيفها توظيفا جيدا ، من شأنه أن يحقق الأهداف المسطرة . إذن أساس التنمية هو معرفة القدرات الفردية ثم تنميتها فتوجيهها ، وهو أمر يمر عبر مراحل ثلاث هي :

؛ التشخيص Le diagnostic ؛

؛ التربية L'éducation ؛

؛ التوظيف (والتوجيه) l'exploitation ؛

أما التطور ومسايرة العصر ومنافسة الدول فإنما تتم بوضع إستراتيجية تنموية واضحة المعالم والاحتياجات ، ثم وضع سياسة تربوية وتكوينية تؤدي لتنمية القدرات الموجودة وتخلق قدرات جديدة.

5. موضوعية الاختيار : على الأفراد أن يختاروا المهن التي تتماشى وما لديهم من قدرات ومهارات ، بعيدا عن اللامنطقية والتأثر بالغير وشهرة المهنة ، لأن النجاح لا يتم سوى بمطابقة الفرد بخصائصه للمهنة بمتطلباتها . إن للأفراد المترشحين نصيبا من المسؤولية ، إذ يقبلون مناصب رغم علمهم بأنهم ليسوا في مستواها : الكثير من المترشحين لا يدرسون بعمق وموضوعية المناصب ولا ثقافة وسياسة المؤسسة ، ولا يسألون عن مدى التوافق والانسجام بين مهاراتهم ، وتطلعاتهم واحتياجاتهم مع أهداف المؤسسة . نجد من الأفراد من لا يتوانون في الالتحاق بأي منصب ، مهما كان نوعه ومستواه . وطبعاً تحقيق التوافق بين الفرد والمنصب لا يمكن أن يحققه أو يكتشفه القائم بالاختيار ما لم يساعده المترشح . هي مسألة صعبة لكن هامة ، يجب علينا أن نشبع بثقافة اجتماعية وبعده حضاري كمترشحين وكمتكفلين بالاختيار على حد سواء . والأكد أن للمنشآت الاجتماعية كالأسرة والمدرسة دورا في زرعها لدى الأفراد ، كما أن للواقع وما يراه الفرد عبر مختلف صورته دورا أيضا . لأبد أن لا يوظف الفرد في أي منصب وأن لا يقبل به إلا إذا كان في مستواه ، وهذا بدءاً بأدنى المناصب إلى أعلاها في سلم ترتيبها .

6. توظيف الأحسن : Recruiter les meilleurs بعد التحكم في عملية الاختيار والتوظيف وبعد تعقد العمل بفعل التطور التكنولوجي ، وبعد التنافس الذي طفا على الاقتصاد العالمي لأبد على المؤسسات أن تسعى إلى استقطاب الأحسن . يقول (كيندي John Fitzgerald Kennedy) « يتطلب فن النجاح من القائد معرفة كيف يكون محاطاً بالأحسن » . إن النجاح المستقبلي للمؤسسات يرتبط بنوعية التوظيف الحالي . ينبغي أن لا يغيب على مسيري المؤسسات بأن للنجاح مستويات ، تحقيق العامل لنجاح قد يخفي مستويات أخرى أعلى ممكنة ، ومهمة المسير وبلوغ أقصى حدود النجاح .

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة التوظيف في المؤسسات الاقتصادية بالجزائر رغم أنها عرفت مع نهاية الألفية السابقة وبداية الألفية الحالية تطورا معتبرا من حيث سيرورة الاختيار المهني ، وذلك من خلال استخدام أدوات وتقنيات سيكولوجية (الاختبارات النفسية والمهنية) برهنت على فعاليتها في المجتمعات المتطورة ، إلا أن هذه العملية ما زالت تعاني من النقص الكبير فيما يخص الاختبارات المقننة على أفراد المجتمع الجزائري والمتوافقة لغويا وثقافيا مع البيئة المحلية مثل ما يوضح بوسنه (2003) ، إذ أن الاختبارات المستخدمة حاليا غير متكيفة لا من الناحية اللغوية ولا من الناحية الثقافية مما يطرح إشكالية بحثية هامة وجديرة بأن يتكفل بها

الباحثون في ميدان القياس والاختبارات النفسية والمهنية.

خاتمة

يخطئ البعض عند اعتقادهم بأن التنمية مبنية فقط على المال ، ناسين محركها الأساسي وهو الفرد ، ويجهل الكثير بأن الاختيار المهني من أسباب وأسرار تقدّم الأمم لاسيما في الوقت الحاضر . ومن علامات الاهتمام به عدم إجراء أيّ توظيف في الدول المتقدمة دون المرور عن الاختيار مهما كان نوع القطاع ومهما كان مستوى الوظيفة ، بل أكثر من ذلك حتّى عند خروج العمال لسبب الآخر كالتحويل ، ترك العمل والتقاعد يجرون ما يسمى بمقابلة الرحيل (L'entretien de depart) لاكتشاف أسباب وأسرار نجاحه ، ومعرفة دواعي الخروج ، لأنهم ينظرون للمنصب لا للفرد ويدركون معنى التكيّف والتحكّم ومن ثمّ النجاح المهني ، ويعتبرون المناصب زاوية أساسية في التنمية.

إلى جانب غياب الاختيار في معظم القطاعات ببلادنا ، يُعتمد في بعض القطاعات على أمور غير علمية ، فعلى سبيل المثال في عملية الترقية لمنصب المسؤولية تتدخل اعتبارات بعيدة عن التمكن ، فكم من مدير تقلد هذا المنصب بفعل الأقدمية أو حتّى الشهادة وهو لا يملك من شروط القيادة والإشراف شيئا . ومن أوجه عدم وجود مختصين بالاختيار في مؤسساتنا ، أو حتّى خارجها مثلما هو معمول في الدول المتقدمة كمكاتب التوظيف ومكاتب الاستشارة في الاختيار .

L'art de la réussite consiste à savoir s'entourer des meilleurs

قائمة المراجع :

- 1 - أحمد عبد الفتاح ناجي ، التخطيط للتنمية في الدول النامية. الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، 2010
- 2 - اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ، مستقبلنا المشترك . (ترجمة محمد كامل عارف) ، في : سلسلة عالم المعرفة ، العدد 142 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1989 .
- 3 - أسامة عبد الرحمن ، البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية ، في : عالم المعرفة ، العدد 7 ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1982 .
- 4 - بوسنه محمود ، الارقونوميا والتنمية في العالم النامي ، المجلة الجزائرية لعلم النفس وعلوم التربية ، عدد خاص ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1986 .
- 5 - بوسنه محمود اختيار الأفراد بالجزائر: طبيعة المشاكل والتحديات ، مداخلة بالمؤتمر الدولي العاشر للجمعية الدولية في البحث فيما بين الثقافات (ARIC) تنظيم كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الجزائر بالتعاون مع الجمعية الدولية في البحث فيما بين الثقافات - قصر الأمم 2-6 ماي 2005 .
- 6 - جان دريقبون ، التوجيه التربوي والمهني. ط 2 (ترجمة ميشال أبي فاضل) ، بيروت : عويدات للنشر والطباعة ، 1998 .
- 7 - كيت كينان ، اختيار الموظف المناسب (ترجمة ناجي حداد) ط 1 ، لبنان : الدار العربية للعلوم ، ص 1995 .
- 8 - رشاد احمد عبد اللطيف ، التنمية المحلية ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، 2011 .
- 9 - Charles Henri Dumon, Recruter les meilleurs. Paris les editions d'organisation , 2005.

- 10 _ Geis D.and kutzmark, T, Developing sustainable : the future is now.Center of excellence for sustainable developing , 1997.
- 11 _ kozlowski , J.and Hill, G.,towards Plannning for sustainable développement, Aguide for the ultimateenvironmental threshold method. Sydney:Ashgat publication,1998.
- 12_ Pieron,H, Renchlin,M,Bize,R ,L'utilisation des aptitudes : orientation professionnelle. Paris : P.U.F, 1954.

قراءة سوسيولوجية لسلوك ودور المريض .

فاطمة مساني *

الملخص:

نحاول من خلال هذه المقالة التطرق إلى سلوك ودور المريض ومساهمات عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز Talcott Parsons في دراسة دور المريض، حيث أن السلوك المرضي هو طريقة إدراك الفرد للآلام التي تصيبه ومدى شعوره بالعلامات المرضية التي تدل على الاعتلال الوظيفي للجسم وأخيرا تقييم كل ذلك وكيفية التصرف حيالها. أما دور المريض فهو تعبير عن نمط يحاول تصوير اتجاهات سلوك المريض عند البحث عن علاج لحالته المرضية. وهو أيضا عبارة عن مجموعة النشاطات السلوكية المرتبطة بالمرض ، وعلاقة هذه النشاطات بالجماعة المرجعية ، ومدى الإعفاء من بعض المسؤوليات والمهام الملقاة على عاتق الأصحاء ، ودرجة تعاطف الجماعة معه.

لقد كانت دراسة المواضيع الطبية حكرا على أصحاب الاختصاص فقط، ولكن اقتحام علم الاجتماع ، علم النفس والأنثروبولوجية في دراسة الطب ساهم كثيرا في تفسير الظواهر الطبية من عدة جوانب إذ أن تالكوت بارسونز Talcott Parsons أضاف الكثير إلى المعرفة السوسيولوجية في علم الاجتماع الطبي، حيث عالج دور كل من الطبيب والمريض وأهم العلاقات التي تحكمهما. واعتبر أن هذين الدورين مختلفين ولكن في نفس الوقت متكاملين. إذ أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة غير متكافئة، حيث يحتل فيها الطبيب مركز القوة والنفوذ، بينما المريض يكون في حالة الضعف.

الكلمات المفتاحية: الطبيب ، المريض ، سلوك ودور المريض .

Abstract :

In this article, we are trying to study the behavior and the place taken by the sick-person, in different studies elaborated by the American Sociologist: TALCOTT PARSONS, who considered that, the sick behavior as the deficiency

* كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة آكلي محند أولحاج بالبويرة fatma.1016@yahoo.fr

in organically members, and its evaluation until finding a cure. This is considered as a set of behavioral activities about the illness, and also the referring group of the sick-person, its irresponsibility towards the sick, and the responsibility of the healthy persons who surrounded him. And who gives him some compassion.

In the past, the analysis of medical topics was doing only by the specialists, but nowadays with the introducing of another disciplines as: sociology, psychology and anthropology in the medical field , those contribute to interpret and to explain any medical phenomena , mainly those analyzed by: TALCOTT PARSONS in the medical sociology, where he analyzed separately the place taken by the doctor and the sick-person, and their different relationships. As a result, he founded a kind of complementarities between these two partners even if, there were some divergence and inequality in their level , and where the doctor is taking, the first rank whereas the sick-person is in the second one.

Key words: TALCOTT PARSONS, The doctor, the patient, behavior and role sick.

مقدمة :

إن إدراك الشخص للمرض واقتناعه بأنه مريض حقا ومدى استجابته وتقييمه للأعراض المرضية والتصرف حيالها هي سلوك اجتماعي وصحي في نفس الوقت ، وهو مرتبط بدور المريض الذي يظهر من خلال تصرفات الفرد المصاب بالمرض ومدى طاعة الطبيب وتنفيذ تعليماته ، وبموجب المعايير الأخلاقية لدوره الوظيفي أي قيامه بواجباته على أحسن وجه ممكن. فالشخص عن طريق التنشئة الاجتماعية يتدرب في حياته على الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها ، والتي تحدد مركزه في المجتمع وتساعد الأشخاص الآخرين على توقع السلوك المنتظر ، فإذا تصرف بموجب المعايير السلوكية والأخلاقية التي تتماشى مع المجتمع ، فإنه يحقق النجاح وتلبي رغباته. كما هو الحال بالنسبة للمريض الذي يتلقى تربية صحية.(1)

وفي هذا الصدد فإن عالم الاجتماع الأمريكي «تالكوت بارسونز Talcott Parsons» يرى بأن الصحة البدنية للإنسان تمثل مطلبا وظيفيا للنسق الاجتماعي ، يستلزم تعريف كل من المرض ودور المريض تعريفا دقيقا من أجل مصلحة الفرد والمجتمع في نفس الوقت . فكلاهما يستفيد من ميكانيزم دور المريض. إذ أن المريض ذاته يلقي اهتماما ورعاية كافية ، فيعود ليمارس دوره الطبيعي في المجتمع مرة أخرى . كما يتيح

(1) فوزية رمضان أيوب ، علم الاجتماع الطبي ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، 1985 ، ص57.

هذا الميكانيزم الفرص لأشخاص آخرين غير المريض مثل الإداري وصاحب العمل وغيرهم ليتلامحوا مع معنى المرض في مختلف مواقفهم، ويتكيفوا مع حاجات المجتمع أيضا (1). فزيارة المريض للطبيب تبيّن وجود حاجة أو مشكلة يحاول صاحبها التخلص منها. ولهذا نجد مواقف مختلفة للناس حول تلبية حاجاتهم الصحية وحل مشكلاتهم، حيث يعتقد بعض الأفراد أن هذه المشكلات تكون مبررات ملائمة لطلب العلاج. وعليه فإن البحث عن المساعدة الطبية تختلف من فرد إلى آخر. وأن الاستجابة للأعراض المرضية تعتمد على عدة عوامل منها الوضعية المالية للفرد وعوامل شخصية وثقافية.

1. سلوك المريض:

إن دراسة السلوك المرضي يعد من الموضوعات السوسولوجية والنفسية التي دخلت مجال الاهتمام في علم الاجتماع الطبي، حيث أدخلوا علماء الاجتماع مفهوم سلوك المريض والذين يقصدون به كل الأفعال والنشاطات التي يبديها المريض اتجاه أعراضه المرضية. فهذا السلوك لا يقتصر فقط على المرضى الذين يسارعون إلى طلب المساعدة الطبية بل يشمل أيضا المساعدة غير الطبية وكل تصرفات الأفراد حول الإحجام أو الإقبال على الخدمات الصحية. إذا السلوك المرضي هو « الطريقة التي يدرك بها الإنسان بعض الآلام الأولى للمرض، ويتعرف على التعب أو أية علامة أخرى للاعتلال الوظيفي للجسم وقيمتها ويتصرف حيالها» (2). فهذا السلوك هو سلوك إنساني نجده في كل المجتمعات، حيث كان الإنسان في القديم يحاول التخلص من آلام المرض بفضل ابتكارات لوسائل علاجية. لذا كان يقيم الأعراض ثم يستجيب لها ويتصرف حيالها. أما الآن فقط تم ابتكار عدة وسائل للإسعاف والتغلب على المرض.

وفي نفس السياق، يرى دافيد ميكانيك David Mechanic بأن السلوك المرضي « يتكون من مجموعة طرق يستطيع بها المريض أن يفهم أعراض مرضه وقيمه ويقرر على أساسه نوع المساعدة التي يتطلبها، ولكن السلوك المرضي يمكن أو لا يمكن أن يقود إلى سلوك البحث عن المساعدة، فسلوك البحث عن المساعدة يحدث في شعور الإنسان بأعراض المرض» (3). فاختلافات الأفراد في الاستجابة لنفس المرض وأثرها على حياة المريض من الناحية الفسيولوجية والاجتماعية يعتبر حدثا اجتماعيا ونفسيا لأن العامل النفسي يدفع بالمريض أحيانا

(1) علي المكاوي، علم الاجتماع الطبي، مدخل نظري، دار المعرفة، الإسكندرية، 1996، ص 448

(2) نفس المرجع، ص 64.

(3) نادية محمد السيد عمر، علم الاجتماع الطبي، المفهوم والمجالات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص 163.

لتجنب تسميته مريضاً والعكس صحيح . فبعض الأفراد يتجاهلون مرضهم ويكادون لا يعترفون به ، وحتى يرفضون تماماً تغيير نمط حياتهم المعتاد ، والعكس بالنسبة لمريض آخر يمر بنفس الظروف ، حالته المرضية أفضل وأقل خطورة خاصة في حالة الأمراض المزمنة. وقد « يتنوع إلى حد كبير الأثر المرضي لأحداث الحياة ومشاكلها على المرضى وعلى سلوكهم ، وفي إخفاء المشكلة الحقيقية (...) أوفي إظهارها ، وفي استجابة المريض للعلاج الطبي أو رفضه. والموقف الاجتماعي والنفسي للمريض إزاء مشكلته وعلاقته بالطبيب المعالج والقيم الاجتماعية والاتجاهات والآراء التي يؤمن بها ، تحدد إلى حد كبير سلوكه (1). حيث تؤكد فوزية رمضان أيوب في كتابها دراسات في علم الاجتماع الطبي بأن « اختلاف الأفراد في تفسيرهم للأعراض المرضية التي يشعرون بها ، وفي استجاباتهم للألم ، وفي اتجاهاتهم نحو الرعاية الطبية الذاتية أو إهتمام الفرد بعلاج نفسه ، وكذلك في قراراتهم بعرض حالاتهم عند الشعور بالمرض على الطبيب لتشخيصها وعلاجها ، كلها ظواهر ترتبط بمتغيرات اجتماعية مثل الانتماء الحضاري أو العنصري ، والطبقة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي ، أكثر من ارتباطها بمعايير طبية موضوعية » (2). وفي هذا المنوال يرى كل من محمد علي محمد ، سناء الخولي وآخرون بأن « التباين في الاستجابات بصفة عامة إنما يرتبط بالمواقف الاجتماعية والإطار الثقافي للمجتمع ككل. وربما ترجع الأسباب أيضاً إلى الخبرات السابقة بالمرض والتدريب السابق حول كيفية مواجهة هذه الأعراض أو إلى الفروق في الحساسية الجسمية بين الأشخاص » (3).

2- دراسة سلوك المريض حسب نموذج المعتقدات الصحية :

لقد انصبت الدراسات والبحوث المختصة في مجال دراسة سلوك المريض حول مقارنة السلوك المرضي في مجتمعات وحضارات مختلفة ، أي من خلال ظروف اقتصادية واجتماعية معينة. وبالرغم من ذلك لم تتعمق أكثر في دراسة المحددات الرئيسية وعوامل استخدام السلوك المرضي. لهذا فإن العالم دافيد ميكانيك David Mechanic ألحّ على أنه من الضروري لكي يتقدم البحث في مجال دراسة سلوك المريض ، أن يتخطى مرحلة البحث المقارن ما بين أنماط السلوك في الحضارات والثقافات المختلفة ، وحتى في الظروف الاجتماعية المختلفة في

(1) فوزية رمضان أيوب ، مرجع سابق ، ص 66.

(2) نفس المرجع ، ص 63.

(3) محمد علي محمد ، سناء الخولي وآخرون ، دراسات في علم الاجتماع الطبي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1983 ، ص 123.

المجتمع الواحد. وهذا بهدف الوصول إلى نموذج اجتماعي نفسي يعطي رؤية أوضح وفهما أدق للعمليات التي تتداخل في تحديد سلوك المريض أو من يبحث عن علاج لحالته المرضية. ونظرا للجهود المبذولة من طرف الباحثين الاجتماعيين والنفسانيين تم إيجاد نموذج أكثر نجاعة لدراسة وتحديد محددات سلوك المريض ، وهو نموذج المعتقدات الصحية ، نظرية نفسية اجتماعية سلوكية مفادها أن سلوك الفرد يتحدد انطلاقا من دوافع داخلية تدفع بهذا الفرد نحو تحقيق حاجياته وأهدافه الخارجية (الحوافز). فهذا النموذج اتجاها يرتكز على نماذج التوقع على أساس القيمة (Valeur) ، وهو اتجاه يحاول وصف عملية اتخاذ القرار كسلوك يكون مصحوبا بحالة من التردد أو عدم الثقة ، حيث يرى إمكانية التنبؤ بالسلوك بواسطة قيمة مجموعة الأهداف التي يرغب الفرد في تحقيقها والوصول إليها. فتوقعاته أن سلوكا معيناً سوف يحقق هذه الأهداف. وفي هذا الصدد يرتكز هذا النموذج على أن استعداد الفرد للقيام بسلوك صحي معين يحدده ما يراه هو من احتمال تعرضه للمرض ومدى خطورة هذا المرض وتناججه العضوية والاجتماعية . وأيضا أنه يقيم جدوى أفائدة السلوك المقترح الذي يقوم به ، ومقارنة هذه الفائدة بما يرتبط بهذا السلوك في نظره ، وهذا من حيث التكاليف أو الأضرار أو المعوقات الجسمانية ، النفسية أو الاقتصادية . وأخيرا فإن مثير السلوك يدفع الشخص إلى البحث عن السلوك الصحي المناسب ، حيث يمكن أن يكون هذا المثير داخليا كالأعراض المرضية أو خارجيا مثل احتكاك الفرد بغيره أو بوسائل الإعلام ، حيث يرى العالم (روزينستوك Rosenstock) بأن الناس عادة لا يحاولون اتخاذ أي إجراء للوقاية من المرض ومقاومته إلا إذا كان لديهم حد أدنى من الدوافع الصحية والثقافة الصحية وكانوا يرون أن احتمال تعرضهم للمرض وتهديده لهم هو احتمال قائم ، ومقتنعين كل الاقتناع بجدوى محاولة للوقاية أو العلاج ، وبإمكانية اتخاذ الإجراء المطلوب أو المقترح اتخاذه دون معوقات تذكر أو بقليل من الصعوبات (1).

ويمكن توضيح هذا النموذج في المخطط التالي:

(1) فوزية رمضان أيوب ، مرجع سابق ، ص 66 ، 67 ، 68.

شكل رقم (01): يوضح نموذج المعتقدات الصحية في حالة دراسة سلوك المريض (1).



إن استخدام نموذج المعتقدات الصحية لدراسة سلوك المريض يعد من أفضل وأجود النظريات ، فهو يعرض ميكانيزمات محددة تربط بين كل من السلوك الصحي للمريض وأهم المتغيرات الاجتماعية وغيرها المحددة لهذا السلوك. فالعوامل الديموغرافية والشخصية والاجتماعية تؤثر على دوافع وخبرات الفرد وحتى على ثقافته الصحية ، ولكنها لا تعتبر أسباباً مباشرة للسلوك الصحي ، بل هي عوامل مساعدة ومؤثرة في أبعاد المعتقدات الصحية المحددة للسلوك الصحي.

فدراسة سلوك المريض وإسقاط عليه نموذج المعتقدات الصحية يبرز لنا نقطتين هامتين هما :

- إن السلوك الصحي للفرد اتجاه مشكلة صحية معينة يتحدد عن طريق ما يراه هذا الفرد من احتمالات تعرضه لهذه المشكلة وبخطورة نتائجها.

- يتحدد السلوك من خلال صراع الأهداف والدوافع ، وأن هذا السلوك يتجه نحو أقوى الدوافع وأكثرها قيمة في رأي الشخص.

إن العالم أتكينسون Atkinson يطبق نموذج المعتقدات الصحية على سلوك

(1) نفس المرجع ، ص 72.

المريض. ويرى بأن الدافع المطلوب لتحقيق النجاح أو تجنب المرض وأن قيمة الحافز لتحقيق الهدف تتمثل في مدى رغبة الشخص الحقيقية في أن يكون في حالة صحية جيدة. والتقدير الذاتي للشخص باحتمال نجاحه في تحقيق الهدف يتمثل في اعتقاده بأن سلوك صحي معين كفيل بمنع الإصابة بالمرض أو تخفيف حدته أو علاجه (1).

3- دور المريض؛

إن مفهوم دور المريض لقي اهتماما من طرف العلماء خاصة في مجال العلوم النفسية والسوسيولوجية ، لما لذلك من فائدة للطب. فدراسة هذا الدور تشمل دراسة خبرة المريض في اشتغاله لهذا الدور وكيفية الاستفادة منه ، بحيث يمكن من خلاله التنبؤ والتوقع للسلوك .

يعرف دور المريض على أنه « تعبير عن نمط أو نموذج نظري يحاول تصوير اتجاهات سلوك المريض عند البحث عن علاج لحالته المرضية ولكنه لا يقدم وصفا لسلوكه من خلال تجربة حقيقية ، إنه يشكل منظورا لرؤية سلوك المريض وإن كان لا يصف بالضرورة ما سيكون عليه سلوك مريض معين ، ولا يوضح دقائق أو تفاصيل هذا السلوك» (2). وأيضا يمثل هذا الدور «مجموعة المناشط السلوكية المرتبطة بالمرض ، وعلاقة هذه المناشط بالجماعة المرجعية ، ومدى الإعفاء من بعض المسؤوليات والمهام الملقاة على عاتق الأصحاء ، ودرجة تعاطف الجماعة معه (3). وفي هذا المنوال فإن دور المريض كما أبرزه «تالكوت بارسونز Talcott Parsons» عالم علم الاجتماع الأمريكي مبنيا على افتراض أن «المرض ليس شيئا مقصودا واختيارا معروفا من قبل المريض ولذلك لا نستطيع أن نلوم المريض بأنه قد سبب لنفسه المرض ، مع أن المرض يمكن أن يحصل نتيجة للتعرض للأمراض المعدية والجروح والالتهابات.

لذلك بينما يعتقد بأن المجرم يخالف المعايير والنظم الاجتماعية لأنه يريد أن يخالفها ، فإن الإنسان المريض يعد منحرفا لأنه لم يستطيع أن يحول دون وقوع المرض» (4) ، واعتبرا كل من المجرم والمريض أشخاص منحرفين. لقد اهتم التصور البارسونزي بتوضيح أبعاد دور المريض لإظهار الاختلاف بين الانحراف في حالتي المجرم والمريض. ويظهر هذا الاختلاف من خلال اختلاف

(1) نفس المرجع ، ص 67 ، 68 .

(2) نفس المرجع ، ص 81.

(3) الوحيشي أحمد بيبي ، عبد السلام بشير الدويبي ، مرجع سابق ، ص 68-69 .

(4) علي المكاوي ، مرجع سابق ، ص 65.

استجابة المجتمع لسلوك كل منهما. فإذا كان المجرم يخالف القيم والمعايير الاجتماعية لأنه يريد ذلك ، فإن المريض لا يلتزم ببعض القيم والمعايير الاجتماعية ، لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، أي أنه مضطر إلى اتخاذ سلوكه المخالف. لهذا فإن الاستجابة الاجتماعية المتعارف عليها إزاء المجرم ، هي عقابه لتغيير دوافعه وتقويم سلوكه. وبالنسبة للمريض السعي لعلاجه لتغيير الظروف التي تمنعه من السلوك وفقا للمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع (1).

فهذا الدور يكون طارئا ، غير متوقع وزمني ، لأن الشخص المريض يكون بالفعل مريضا وهذا بحكم الأطباء في أنه أصبح عاجزا غير قادرا. وعليه فإن احتلال الفرد لهذا الدور لا يعتبر احتلال دائما بل مؤقتا ينسحب من صاحبه حينما يقرر الطبيب بالفعل أن هذا الشخص شفي تماما من مرضه. ونتيجة قرار الطبيب يباشر الفرد في مسؤولياته الاجتماعية (2).

فهذا الدور يفرض عليه التخلي عن بعض مسؤولياته ، أي الإعفاء من بعض الواجبات ، فهذه المزايا تجعل بعض الأفراد يحبذون دور المريض كوسيلة لتحقيق رغباتهم ، التخلي عن واجباتهم ومواجهة بعض مواقف الحياة المفروضة عليهم. ومثال عن ذلك ، دور المريض يعفي العامل من عمله والطالب من المدرسة ... الخ. ولهذا فإن بعض الأشخاص يتغيبون لأسباب معينة عن المدرسة أو العمل ويلجئون إلى الطبيب للعلاج ويصبحون شهادة طبية تبرر مرضهم. وحتى في بعض الحالات عطل مرضية لتحقيق أعراض أخرى. فالشخص في هذه الحالة إما بطريقة شعورية أو غير شعورية ينساق حول هذا السلوك لممارسة دور المريض ، حيث يرى في هذا الصدد كل من الوحيشي أحمد بيرى وعبد السلام بشير الدويبي بأن « بعض الناس قد يحبذون دور المريض من أجل التخلص من بعض مسؤولياتهم. فالمجتمع في العادة يفرق بين الأدوار المنحرفة بمعاينة المجرم ويتوفير العلاج للمريض. وكلا العمليتين تعمل على تخفيض الانحراف ، وتغيير الأوضاع التي قد تتدخل في عملية الامتثال للمعايير الاجتماعية. وكذلك تتطلب تدخل بعض المنظمات الاجتماعية للتحكم في السلوك الانحرافي مثل أجهزة العدالة والقانون ، والنظم الصحية » (3).

ويمكن القول إن ممارسة دور المريض لا تتم اعتباطيا ، وإنما بعد تقريرها

(1) فوزية رمضان أيوب ، مرجع سابق ، ص 88.

(2) نادية محمد السيد عمر ، مرجع سابق ، ص 184.

(3) الوحيشي أحمد بيرى ، عبد السلام بشير الدويبي ، مرجع سابق ، ص 69.

اجتماعيا ، حيث يثبت بأن المريض مريض فعلا ، وذلك بعد عرض حالته على الطبيب. فهذا الأخير هو الذي يقرر هل الفرد فعلا مريضا أم لا. وقد نجد حالات يستفيد منها المريض من الدور الاجتماعي وهي أن أفراد عائلته أو أصدقائه يقررون بأنه مريض ، لذلك يعفى من بعض الالتزامات الاجتماعية ، ويستفيد من هذا الدور الاجتماعي . فالطبيب هو الذي يمنح تأشيرة الدخول في دور المريض. فهذا الأخير شأنه شأن أي دور آخر في المجتمع ، فهو « مرتبط بمجموعة من السلوك المتوقع الذي يتضمن في داخله الالتزامات والتوقعات لهذا الدور» (1). وفي هذا الإطار فإن بعض الأفراد يشعرون بأعراض مرضية يسلكون طرق معينة ولا يمارسون دور المريض ، كما أنهم لا يلجئون مباشرة إلى الطبيب. فدور المريض لا يبدأ إلا عندما يتقرر أن حالة المريض حالة خطيرة تستلزم إعفائه من بعض مسؤوليات أدواره المعتادة. كما تتطلب التزامات جديدة تضاف إلى أدوار بعض المحيطين به تفرض عليهم ويتقيدوا بها(2).

فهذا الدور يختلف من شخص لآخر حسب قيمه ، معتقداته ، ووضعه الاجتماعي ووعيه بهذا الدور الذي غالبا ما تتأثر ممارسته بعادات المريض وبأفعال المحيطين به. في هذه الحالة تتجلى أهمية ثقافة المجتمع من عادات وتقاليده في اختلاف مضمون دور المريض.

وكما هو معترف به ، فإن العوامل الاجتماعية والنفسية لها أهمية في تقبل دور المريض ، حيث تلعب دورا في قرار الإنسان باتخاذ دور المريض أو عدم الدخول فيه ، وذلك هروبا من المسؤوليات والواجبات اليومية أو العكس. وفي هذا الصدد يشير الوحيشي أحمد بيري وعبد السلام بشير الدويبي إلى أن الضغوط الاجتماعية والعواطف قد تكون سببا في عدم الراحة النفسية والجسمية للفرد وتجعله في اضطراب وقلق ، وهو الأمر الذي يدفعه إلى البحث عن مفر من هذه الحالة الغريبة وغير المحتملة في بعض الأحيان. ويعتبر الدخول في دور المريض حلا ولو مؤقتا وأملا في الحصول على الراحة والتخفيف من توتر الأعصاب والتخلي عن الواجبات اليومية له. وعليه فإن المعالم الاجتماعية والعاطفية تساهم في جعل دور المرض أكثر جاذبية نسبيا من الأدوار الاجتماعية الأخرى(3)، مثلا الأشخاص الذين لا تتوافر في منازلهم الطمأنينة والأمان في الحالة العادية بعكس

(1) نادية محمد السيد عمر ، مرجع سابق ، ص 186.

(2) فوزية رمضان أيوب ، مرجع سابق ، ص 79.

(3) الوحيشي أحمد بيري ، عبد السلام بشير الدويبي ، مرجع سابق ، ص 72.

الأشخاص المرضى ، فإنهم يتنازلون بصعوبة عن دور المريض ، لأنه يلبي أغراضهم الشخصية والنفسية. وهذا ما أكده بعض علماء النفس إلى احتمال وجود مكاسب ثانوية من المرض ، نوعاً من المكافأة أو الفائدة ذات مزايا أكبر من المتاعب ، والتي قد تنشأ نتيجة الدخول في دور المريض . فالعديد من الناس قد يكونون غير قادرين على حل مشاكلهم الأسرية والاجتماعية وبذلك يكون المرض هو الحل الأمثل للتخلص من المشكلات ومتاعب الحياة.

وفي سياق الحديث عن قبول دور المريض نجد ظاهرة التمارض التي تعتبر سلوكاً انحرافياً يمارسه الفرد هروباً من بعض الواجبات والمسؤوليات الاجتماعية ، وفي بعض الحالات هذا السلوك ينعكس سلباً على صاحبه. وبالرغم من ذلك ، إلا أن هناك أمرين يمنعان الشخص من التقيد بدور المريض والتمسك به ، وهما الخوف من المرض في حد ذاته ، والخوف من النتائج التي تترتب عن دور المريض. ففي هذا الصدد يشير « تالكوت بارسونز Talcott Parsons » إلى أن المرض يجعل الفرد يسلم لسلطة لا يستطيع مقاومتها ، وهي سلطة الطبيب المعالج ، كما يجعله في مركز الضعف وفي وضع الشخص المحتاج إلى مساعدة متخصصة ومساعدة من طرف الآخرين ، فهذا يحرمه من الاستقلالية ويجعله يشعر بالدونية ، وهو وضع لا يرغبه الكثيرون من الناس(1).

4- إسهام تالكوت بارسونز Talcott Parsons في دراسة دور المريض ؛

يعتبر دور المريض من أهم المفاهيم الاجتماعية التي ساهمت في تطوير علم الاجتماع الطبي ، حيث يعتبر عالم الاجتماع تالكوت بارسونز Talcott Parsons من أهم المساهمين في هذا المجال من خلال تصوره النظري لتفسير وتحليل دور المريض ووصف خصائصه وخصائص سلوك المريض. وذلك في إطار النظرية الاجتماعية ، حيث أن عمله العلمي هذا أثار الكثير من المناقشات والجدل هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ساهم في تطوير علم الاجتماع الطبي. فدور المريض حسبه هو « دور له إغراءه لأنه يعفي المريض من بعض التزاماته ، دون أن يحمله مسؤولية مرضه ، ولذلك فمن الممكن أن يسعى شغل ما لشغل دور المريض مدفوعاً شعورياً أولاً شعورياً بدوافع تشبه إلى حد ما الدوافع التي تدفع شخص آخر إلى ارتكاب أي نمط من أنماط السلوك المنحرف كالجريمة أو مخالفة القيم السائدة في المجتمع ، ولذلك فإن التركيب الاجتماعي لدور المريض يتضمن عنصراً من عناصر الضبط يعمل على مقاومة استغلال الأشخاص لهذا الدور. سواء

(1) نفس مرجع ، ص 72 ، 75.

بالسعي إلى الدخول فيه أو بالعمل على البقاء فيه وتأخير الخروج منه» (1).
إن دور المريض حسب التصور البارسونزي حدد من خلال مجموعة من التوقعات والتي بدورها تترجم في الحقوق والالتزامات والواجبات.

أ. الحقوق: لقد منح المريض حقوق شرعية يستغلها أثناء فترة مرضه وتمثل في:

. إعفاء المريض من بعض المسؤوليات والأدوار الاجتماعية المعتاد عليها: يعتبر إعفاء

المريض من مسؤولياته الاجتماعية حقا من حقوقه حسب (تالكوت بارسونز (Talcott Parsons)، لكن هذا يتحدد انطلاقا من نوعية المرض وحدته، فإذا كان المرض خفيفا فإنه لا يدعى أن يعفى المريض كليا من هذه الواجبات اليومية. وهو إعفاء مشروع حسب المجتمع. ولهذا يفترض على المريض أن يعمل على التخلص من المرض ويدرك بأن هذا الأخير حالة غير مرغوب فيها وعليه أن يعود لأدواره السابقة. فقد يعفى المريض من العمل، من الدراسة أو من بعض الواجبات الأسرية. فهذا الإعفاء يتناسب مع طبيعة المرض وشدته، حيث أنه كلما كان شديدا المرض كلما كانت درجة إعفاء المريض من التزاماته أكبر. والإعفاء من الواجبات يتطلب الشرعية الاجتماعية، التي يحددها الطبيب الذي لديه الخبرة والسلطة الوحيدة للحكم على أن الشخص مريضا. فالحصول على شرعية المرض يعني الهروب من بعض المسؤوليات الاجتماعية. ولهذا فإن الكثير من الناس يرفضون القبول بواقع حالتهم المرضية، التي تحتاج إلى العلاج والراحة التامة للوصول إلى الشفاء (2).

وفي هذا المنوال، تؤكد نادية محمد السيد عمر في مؤلفها، علم الاجتماع الطبي المفهوم والمجالات بأن إعفاء المريض من بعض المستلزمات الاجتماعية الطبيعية متعلق بواجباته الوظيفية أو العائلية. وهذا الإعفاء له شروط أهمها أنه لا يعفى المريض نفسه من هذه المسؤولية بذاته، ولكن قد تكون من الطبيب أو من بعض أسرته حتى يشفى ويعود مرة أخرى إلى ممارسة هذه الواجبات أي أنه إعفاء مؤقت. أما الشرط الثاني، فهو أن هذه الواجبات التي يتركها المريض قد تكون واجب من أجله لينال حق من حقوقه ثم يعود إليها من بعد شفائه. وكثيرا ما نرى بأنه يحاول التكيف مع دوره، لأن التزاماته الاجتماعية كثيرة جدا، ولا يستطيع التخلي عنها لأنها ربما تسبب له الكثير من المشاكل والخسائر في حياته سواء

(1) فوزية رمضان أيوب، مرجع سابق، ص 84.

(2) الوحيشي أحمد بيري، عبد السلام بشير الدويبي، مرجع سابق، ص 70.

الوظيفية والعائلية (1).

ج. حق المريض في الاستفادة من الرعاية الطبية: إن المريض غير مسؤول عن حالته المرضية وعن المرض ، عكس المجرم الذي يعتبر مسؤولاً عن إجرامه بسبب عدم احترامه للقيم والمعايير الاجتماعية وارتكابه سلوك إجرامي. ولذلك فإن هذا المريض يحتاج إلى مساعدة وعناية من طرف الآخرين لاستعادة قواه الصحية والقيام بأدواره الاجتماعية. فهذا الحق المشروع يكمل الحق الأول الذي أشرنا إليه سابقاً ، لأن إعفاء المصاب من المسؤوليات الاجتماعية يفرض على كل من الطبيب وعائلة المريض مساعدته وإحداث نوع من الضبط الاجتماعي في المجتمع ، لأنه لا يتوقع منه « أن يجمع قواه لكي يصرح عن طريق قرار أو رغبة يبيدها ، بل لا بد من تدخل إطارات لها صفة التخصص والاختصاص للقيام بدور المساعدة والعلاج » (2).

ب. الالتزامات: إن أهم الالتزامات التي حددها تالكوت بارسونز Talcott Parsons حول دور المريض نلخصها كما يلي:

أ. البحث عن الشفاء لحالته المرضية: من الواجبات الأولى للمريض هي رغبته وإرادته في الشفاء وأن يصبح معافاً ، ويسعى إلى الطبيب والمساعدة الطبية بحثاً عن علاج لحالته المرضية ، أي البحث عن الشفاء ومحاولة التخلص من المرض وعلاج نفسه ، لأن إعفائه من مسؤوليات دوره الطبيعي وشرعية اعتماده على الآخرين مرتبطان بمظهر آخر وهو اعتراف المريض بأن حالة المرض هي وضع غير مرغوب فيه. وأن الإعفاء من المسؤوليات والواجبات الاجتماعية هي أمر مؤقت ومشروط برغبته في علاج نفسه ومحاولة استرجاع صحته ، أي لا تتوقع منه أن يستخدم إرادته في أن يصبح سليماً ، ولكنه المسؤول الأول عن حالته الصحية إذا لم يكن لديه الدافع في أن يصبح معافى ويخرج من مرحلة المرض ، وإذا لم يفعل اعتبر منحرفاً (3).

ب. التعاون مع الطبيب وإتباع نصائحه: إن المريض يفترض عليه أن يبحث عن مساعدة طبية متخصصة لعرض حالته المرضية. ومن أهم الواجبات المفروضة عليه هي التعاون مع الطبيب ، طاعته والخضوع للعلاج لتحقيق الشفاء في أسرع وقت ممكن ، والعودة إلى استلام الأدوار وتأدية الواجبات الاجتماعية. ومن خلال

(1) نادية محمد السيد عمر ، مرجع سابق ، ص 188.

(2) الوحشي أحمد بيبي ، عبد السلام بشير الدويبي ، مرجع سابق ، ص 70.

(3) نادية محمد السيد عمر ، مرجع سابق ، ص 71.

هذا الالتزام يبرز التفاعل الاجتماعي بين الطبيب والمريض وأهم خصائص أدوارهما الاجتماعية في بناء متكامل، حيث أن البحث عن المساعدة العملية المتخصصة من قبل المريض عادة وليس ضرورة. فهو عادة ما يبحث عن طبيب متعاون معه لكي يشفى ، ولذلك فإنه من المستحيل أن نراه في موقف تعارض أو تنافس مع الطبيب ، لأنه هو الذي يبحث عن المساعدة برغم تلازم هذا الدور مع عدد من العناصر مثل علاقته بالتدرج الاجتماعي والاختلافات الثقافية والفردية⁽¹⁾. وإذا حدث عكس ذلك ولم يسرع المريض إلى الطبيب يعني هذا انعدام الدافع عنده في أن يشفى ويصبح في حالة صحية جيدة لمزاولة أدواره الاجتماعية.

خاتمة :

إن المرض كانحراف بيولوجي عادة ما ينظر إليه على أنه حالة من الحالات التي لا يحبذها الأفراد ، حالة غير مرغوب فيها ، وذلك بالنسبة للفرد المريض أو لأسرته والمحيطين به ، لأن المرض يعني عدم تمتع الفرد بالراحة والطمأنينة الجسدية والنفسية.

إن علماء الاجتماع يعتبرون المرض على أنه حالة أو حادثة اجتماعية منحرفة نتيجة للاضطراب الحاصل في السلوك العادي للفرد بسبب المرض الذي يعاني منه وهو حالة بيولوجية غير سوية ، حالة المعاناة من الألم التي هي تجربة ذاتية تؤدي بالفرد إلى تغيير أو تعديل سلوكه . وعليه تظهر قدرة المريض على استجابته للمرض ولجوئه إلى الطبيب طالبا العلاج ومن مسؤوليته الاعتناء بصحته والبحث عن علاج لحالته المرضية وتتبع نصائح طبيبه هذا من جهة. ومن جهة أخرى دوره يعفيه من بعض المسؤوليات والالتزامات التي كان يقوم بها قبل مرضه. وهذا ما أكد عليه عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز Talcott Parsons في كتابه المشهور «النظام الاجتماعي» ، حيث أضاف الكثير إلى المعرفة السوسبيولوجية في المجال الطبي من خلال التطرق إلى المرض ، دور المريض ، دور الطبيب وأهم العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين الطبيب والمريض

(1) نفس المرجع ، ص 191.

قائمة المراجع:

- 1 - الوحيشي أحمد بيبري ، عبد السلام بشير الدويبي ، مقدمة في علم الاجتماع الطبي ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ، طرابلس ، ط1 ، 1989.
- 2 - علي المكاوي ، علم الاجتماع الطبي ، مدخل نظري ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996.
- 3 - فوزية رمضان أيوب ، علم الاجتماع الطبي ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، 1985.
- 4 - محمد علي محمد ، سناء الخولي وآخرون ، دراسات في علم الاجتماع الطبي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1983.
- 5 - نادية محمد السيد عمر ، علم الاجتماع الطبي ، المفهوم والمجالات ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1998.

العلاقة بين المهارات الاجتماعية وفعالية الذات وأثرهما على التحصيل

الدراسي لدى تلاميذ مرحلة التعليم المتوسط

غماري فوزية*

الملخص :

تحاول الدراسة الحالية ، الكشف عن العلاقة بين التحصيل الدراسي والمهارات الاجتماعية من جهة ، والعلاقة بين التحصيل الدراسي وفعالية الذات من جهة أخرى. وترتكز دراسة المهارات الاجتماعية على كل من مهارة التعبير عن المشاعر الايجابية ، مهارة التعبير عن المشاعر السلبية، مهارة المبادأة بالتفاعل وأخيرا مهارة الضبط الاجتماعي. كما تحاول هذه الدراسة استكشاف الفروق بين مرتفعي ومنخفضي التحصيل الدراسي من حيث مهاراتهم الاجتماعية وفعالية الذات لديهم.

تمثلت عينة الدراسة التي تم اختيارها عشوائيا، في 88 تلميذ وتلميذة من مرحلة التعليم المتوسط بإحدى مدارس العليم العام لقطاع بئر خادم التابع لولاية الجزائر- غرب - طبق عليهم مقياس المهارات الاجتماعية لماتسن وآخرون (Matson & al :1983) ومقياس فعالية الذات لشفارتزر (Schwartzter :1993) بعد تطبيقهما على عينة تجريبية بمدارس التعليم المتوسط بنفس القطاع والحصول على دلالات صدق وثبات عالية ، وتوصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها وجود علاقة ارتباطية بين المهارات الاجتماعية والتحصيل الدراسي. كما تبين أن التلاميذ ذوي المهارات الاجتماعية العالية تكون فعالية الذات لديهم مرتفعة بنفس القدر والعكس صحيح. مما يؤكد أن المهارات الاجتماعية مرتبطة بفعالية الذات لدى التلاميذ بغض النظر عن مستوى تحصيلهم الدراسي.

الكلمات الدالة: المهارات الاجتماعية. فعالية الذات. التحصيل الدراسي. مرحلة التعليم المتوسط.

* معهد علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا جامعة الجزائر 2

Abstract :

School life have a wide impact on social and psychological adjustment and success in life study of a child and adolescent,so that lack of social skills and self efficacy is related to school achievement . It is not cognitive skills of students that may concern educators but their social and emotional skills as well as their self, efficacy .

In the present study,we were interested to examine the importance of social skills and self,efficacy to improve school achievement .

The findings are based on a random sample of 88 students from public middle school of Algiers (west area) during the school year 2010/2011 .They were asked to respond to " Matson evaluation of social skills with youngsters " scale of Matson and al (1983) and "Measurement of perceived self , efficacy" scale of Schwartz (1993).

The results obtained from analysis of data showed that :

- Students with higher level of social skills achieve higher academic levels.
- Students with higher levels of social skills showed higher levels of self , efficacy
- social skills had a significant impact on school achievement than self efficacy

Results finally stressed the importance of social skills as basic part of students psychological health so that it will not increase the success of a student social relationships but also play a capital role in successful academic performance . Results were interpreted and implications for counseling were suggested.

Key words: social skills. Self efficacy. School achievement. Middle school.

مقدمة :

يمثل نجاح الأطفال في المدرسة اليوم ، مؤشرا هاما وعاملا من عوامل نجاحهم المستقبلي في الحياة ، ولذلك نجد اهتمام المجتمع والوالدين خصوصا يتجه نحو النتائج الدراسية لأبنائهم والمتحصل عليها خلال مساهمهم الدراسي . كما نجد اهتمام الباحثين السيكولوجيين يركز على دراسة القدرات العقلية والمعرفية للأطفال كمؤشر على نجاح التلاميذ أو فشلهم.

إلا أنه تم التوصل اليوم وفي دراسات حديثة ، أن الأطفال اللامعين ذوي القدرات العقلية والمعرفية العالية أو ذوي مستوى الذكاء المرتفع قد يفشلون ويخفقون في تحقيق أهدافهم المستقبلية لعدم سيطرتهم على حياتهم الانفعالية ، العلائقية والعاطفية . وفي هذا الصدد أشار « جولمان » (2000) إلى أن معامل الذكاء

لا يستطيع دائما أن يتنبأ بالنجاح ، كما أشار أنه يسهم في 20% فقط من العوامل التي تحدد النجاح في الحياة ، تاركا 80% للعوامل الأخرى. فالذكاء الأكاديمي ليس له سوى علاقة محدودة بالحياة الانفعالية. فقد يفشل الشخص اللامع بيننا من حيث الذكاء ويخفق في حياته نتيجة عدم سيطرته على انفعالاته ودوافعه الجامحة. ويمكن أن يفتقر الأشخاص الذين يتمتعون بمستوى ذكاء مرتفع إلى القدرة على تسيير حياتهم الخاصة على نحو يبعث على الدهشة(1).

فالمدرسة لا تقدم المعارف والمهارات الأكاديمية فحسب بل تتعدى مهمتها إلى تحقيق الاندماج الاجتماعي والتوازن النفسي بفضل العلاقات التي ينسجها التلميذ مع الأشخاص الذين يتعامل معهم في المحيط المدرسي. مما يكون له الأثر الكبير في إنجازاته المدرسية وتحصيله الدراسي على وجه الخصوص ويزيد من اعتقاده في فعاليته الذاتية وثقته في قدراته وإمكاناته.

لذلك نجد أن التعلم أثناء الحياة المدرسية ، يتطلب تفاعلا إيجابيا مع الآخرين ، حيث تشكل المهارات الاجتماعية عاملا رئيسيا لإنجاح هذا التفاعل ، إذ تساعد في تحقيق الأهداف الشخصية من جهة ، والأهداف المدرسية من جهة أخرى (سامر عدنان ، 2006) . وقد أسفرت إحدى الدراسات التي اهتمت بوجهة نظر المعلمين حول تطوير المهارات الاجتماعية لتلاميذ المدرسة الابتدائية على نتائج هامة من بينها: أن الأطفال الذين يمتلكون المهارات الاجتماعية ، يتمتعون بالقدرة على التواصل ، حل المشكلات ، صنع القرارات والتعبير عن ذواتهم. في حين أن الأطفال الذين يعانون عجزا في مهاراتهم الاجتماعية ، يبدون اضطرابات سلوكية مثل نقص الثقة ، الفشل في المدرسة ، الخجل وسلوك عنيف. ولذلك نجد أن التلاميذ الذين يبدون عجزا وإخفاقا في تفاعلاتهم الاجتماعية مع الآخرين وإقامة علاقات إيجابية ومتبادلة مع معلمهم وأقرانهم ومحيطهم عموما ينعكس سلبا على تواقفهم الدراسي وعلى إدراكهم لفاعليتهم الذاتية وبالتالي نجاحهم الدراسي (2).

وعلى أساس ما سبق تبين لنا أنه من الضروري التعرف على دور المشاكل العلائقية والانفعالية وتأثيرها على التحصيل الدراسي . فالكشف عن الصعوبات العلائقية للتلميذ في قاعة الدرس أو في المحيط المدرسي عموما ، سيفيدنا حتما في معرفة قدرات ومهارات التلميذ في تجاوز المشكلات والمواقف الاجتماعية

(1) دانييل ، جولمان. (2000). الذكاء العاطفي ، ترجمة ليلي الجبالي ، عالم المعرفة ، (262) ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص54.

(2) Samanci. O. (2010) Teacher views on social skills development in primary school .157, 11p,4 charts , students. Education ; fall 2010,Vol. 131 .Issue1.pp 147

الضاغطة ومدى فعاليته في تجاوز المواقف المحبطة لاسيما تلك المتعلقة بعملية التعلم والتحصيل الدراسي وبالتالي يمكننا التنبؤ بنجاحهم أو فشلهم الدراسي.

كما أشار « جولمان » (2000) إلى أن التسرب في المدارس خطر يتعرض له الأطفال المرفوضون اجتماعيا بصورة خاصة . ويزيد معدل الأطفال المرفوضين المتسربين من المدارس من 2 إلى 8 مرات عن الأطفال الذين لهم صداقات وقد بينت إحدى الدراسات حسب « جولمان » أن 25% من الأطفال غير المحبوبين منذ المدرسة الابتدائية ، تسربوا من المدرسة قبل إتمام الدراسة الثانوية مقابل 8% كمعدل عام . فهل يتصور أن يقضي طفل 30 ساعة أسبوعيا في مكان لا يحبه فيه أحد(1) .

فإتقان الطفل لمهارات مثل التعاون والمشاركة وطلب المساعدة وطرح الأسئلة والاستماع للتعليمات والحوار والحديث مع الآخرين ومدح الخصائص الشخصية للآخرين هي مهارات اجتماعية مهمة للنجاح الدراسي والاجتماعي لجميع الطلاب ، وتؤدي دورا بارزا في تجنب الاستجابات السلبية من الآخرين .

أما « جريشام وزملائه » (Gresham&al : 2006) فقد طوروا مفهوم للمهارات الاجتماعية في إطار المحيط المدرسي واعتبروها مجموعة من القدرات التي تطور علاقات اجتماعية إيجابية وتساهم في قبول الزملاء وتطوير الصداقات ، وتقود إلى تكيف مدرسي مرض ، وتسمح للطلبة بالتكيف وتبني متطلبات البيئة الاجتماعية(2).

والجدير بالذكر أن الأطفال يهذبون مهاراتهم الاجتماعية والعاطفية مما اكتسبوه من علاقاتهم يحملونها معهم في مستقبل أيامهم. مما يجعلهم أكثر تفاؤلا وأكثر اعتقادا في قدراتهم على السيطرة على مجريات حياتهم ومواجهة كل التحديات المتعلقة بإنجازاتهم المدرسية . وعليه فإن التلاميذ الذين يمتلكون إحساسا مرتفعا بفعالية الذات ، يمكنهم النهوض من عثراتهم في معالجتهم لمتطلبات الدراسة وصعوباتها ومشكلاتها أكثر من رضوخهم للإحساس بالقلق والعجز واليأس .

فالفرد يعتمد إذن ، في تفسير إنجازاته على القدرات التي يعتقد أنه يمتلكها ، وهذا ما يمكنه من بذل أقصى جهد لتحقيق النجاح. والأفراد الذين لديهم إحساس قوي بالكفاءة الذاتية ، يركزون تفكيرهم على تحليل المشكلات للوصول

(1) دانييل ، جولمان. (2000). الذكاء العاطفي ، ترجمة ليلي الجبالي ، عالم المعرفة ، (262) ، الكويت:المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ص342.

(2) دلال محمد الزعبي. (2009) تصورات معلمي المدارس لأهمية مهارات التعلم والمهارات الاجتماعية في تحقيق النجاح المدرسي للطلبة. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد 6. العدد 3. الأردن ص229.

إلى حلول مناسبة ، بينما الأفراد الذين لديهم شعور بعدم الكفاءة الذاتية فإن تفكيرهم يتحول إلى الداخل فيتسبب بالوقوع بالمشكلات ، وذلك يقود إلى الفشل وعدم النجاح(1).

ويؤكد «باندورا» في هذا الصدد أن مفهوم الفرد عن فاعليته الذاتية يظهر من خلال الإدراك المعرفي لقدرات الفرد الشخصية ومن خلال تعداد الخبرات التي يمر بها الفرد حيث تعمل هذه الخبرات على مساعدة الذات في التغلب على الضغوط التي تواجهه ، وهذه الخبرات لممارسات إذا كانت تتسم بالفشل ، فإنها قد تعوق الذات عن القيام بوظائفها الايجابية ، وتتضح الفاعلية الذاتية في الإدراك الذاتي لقدرة الطالب على أداء الأنشطة الأكاديمية المختلفة مما يحقق نتائج مرغوبة من النجاح في العمل الدراسي.

لقد تبين أن فعالية الذات مرتبطة ارتباطا وثيقا بمستوى المهارات الاجتماعية التي يتمتع بها التلميذ في المحيط المدرسي أساسا إذ تعد المدرسة البيئة الاجتماعية التي تصقل شخصية التلميذ بالدرجة الأولى وتعمق تجاربه إذ ينمي فيها مزايا ومهارات مثل المشاركة والتفاعل وتبادل الخبرات والتعبير عن المشاعر والأفكار من خلال علاقاته بأقرانه الذين يشاركونه نفس الاهتمامات والحاجات وأيضا نفس المشكلات .

وإذا كانت فاعلية الذات تعتمد على تكوين علاقات قوية وسليمة مع الآخرين ، فالشخص الفعال تكون لديه القدرة على إنشاء علاقات سليمة مع الآخرين بما له من سمات المرونة والشعور بالانتماء ، والذكاء الاجتماعي ، والسلاح الفعال لدى الفرد في هذا المجال وكلما كانت علاقات الفرد قوية مع الآخرين كلما كان توافقه أفضل وخاصة توافقه الاجتماعي ، وعدم وجود علاقات سليمة مع الآخرين من شأنه أن يصيب الفرد بالشعور بالعزلة الاجتماعية(2).

وعلى ضوء المعطيات النظرية التي تم عرضها ونظرا لأهمية كل من المهارات الاجتماعية وفاعلية الذات في النجاح في الحياة على العموم وفي الحياة الدراسية على الخصوص ، تتساءل عن العلاقة الموجودة بين التحصيل الدراسي والمهارات الاجتماعية وفعالية الذات لدى تلاميذ مرحلة التعليم المتوسط .

(1) محمد بني خالد(2010) التكيف الأكاديمي وعلاقته بالكفاءة الذاتية العامة لدى طلبة كلية العلوم التربوية في جامعة آل بيت. مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية).مجلد24 (2) ص415.
(2)غالب بن محمد علي المشيخي.(2009) قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب جامعة الطائف. متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس تخصص (إرشاد نفسي) قسم علم النفس.كلية التربية.جامعة أم القرى ، ص62.88.

2. مشكلة الدراسة:

بناء على العرض السابق ، يمكن صياغة مشكلة الدراسة في عدد من التساؤلات:
 هل توجد علاقة بين المهارات الاجتماعية والتحصيل الدراسي لدى التلاميذ؟
 هل توجد علاقة بين فاعلية الذات والتحصيل الدراسي لدى التلاميذ؟
 هل توجد علاقة بين المهارات الاجتماعية وفاعلية الذات لدى التلاميذ؟
 هل توجد علاقة بين التحصيل الدراسي وكل من المهارات الاجتماعية وفاعلية الذات لدى التلاميذ؟

3. فرضيات الدراسة:

تمت الإجابة عن التساؤلات السابقة من خلال الفرضيات التالية:
 1 - توجد علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية وتحصيلهم الدراسي المتمثل في معدلاتهم الدراسية السنوية.
 2 - توجد علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات وتحصيلهم الدراسي.
 3 - توجد علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ومقياس فاعلية الذات.
 4 - توجد علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ومقياس فاعلية الذات وتحصيلهم الدراسي.

4. أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة الحالية في الكشف عن دور كل من المهارات الاجتماعية وفعالية الذات في تحقيق مستوى عالي من التحصيل الدراسي. فالفاعل الايجابي مع الآخرين في المحيط المدرسي لاسيما المعلمين والأقران كفيل بالرفع من مستوى فاعلية الذات لدى التلاميذ ، وزيادة اعتقادهم في قدرتهم وثقتهم في مهاراتهم المعرفية والعقلية التي تهيئهم لتحقيق النجاح الدراسي .

وبالتالي فإن أهمية هذه الدراسة تتمثل في الكشف عن حقيقة علاقة كل من هذين المتغيرين بالتحصيل الدراسي لدى تلاميذ مرحلة التعليم المتوسط ، كما أن الاهتمام بالمهارات الاجتماعية وفعالية الذات ، كبعدين أساسيين من أبعاد الصحة النفسية لدى التلاميذ يسمح من خلال هذه الدراسة ، بالكشف عن خطر معاناة بعض التلاميذ من مشكلات علائقية مع الآخرين لاسيما الأقران وتأثيرها على

إدراكهم لفعاليتهم الذاتية وبالتالي على أدائهم المدرسي.

وأخيرا تهتم هذه الدراسة بالجانب الوقائي من حيث تقديم توصيات للاهتمام أكثر بالمهارات الاجتماعية وفعالية الذات لدى التلاميذ لتحقيق النجاح في عملهم الدراسي وبالتالي التفكير في برامج تدريبية ، لتحسين جوانب القصور التي تعيق التلاميذ في تفاعلاتهم الاجتماعية ، عن تحقيق للاندماج والتواصل والمشاركة الوجدانية وتبادل الخبرات في المحيط المدرسي.

5. الإطار النظري ومصطلحات الدراسة:

.المهارات الاجتماعية:

إن أهم الخبرات والتجارب الاجتماعية للأطفال تحدث في المحيط المدرسي وإن نوعية هذه التفاعلات الاجتماعية هي التي تحدد اندماجهم وتوافقهم في حياتهم الدراسية . ذلك أن مهارات التواصل والمشاركة والتعاون والضبط الانفعالي واستعمال استراتيجيات الحوار والتفاوض والتساؤل والمبادرة بالحديث في مختلف المواقف المدرسية ومواقف التعلم بالخصوص ذات أهمية كبرى في موضوع التحصيل الدراسي.

وفي هذا الصدد ، نجد « ريجيو » (Rigio :1986) مثلا قد عرف المهارات الاجتماعية بأنها قدرة الفرد على التعبير الانفعالي الاجتماعي واستقبال انفعالات الآخرين وتفسيرها ، ووعيه بالقواعد المستترة وراء أشكال التفاعل ومهارته في ضبط وتنظيم تعبيراته غير اللفظية وقدراته على لعب الدور وتحضير الذات اجتماعيا(1).

أما « جريشام » (Gresham:1992) فقد عرف المهارات الاجتماعية بأنها سلوكيات متعلمة ومقبولة اجتماعيا والتي تمكن الفرد من التفاعل بكفاءة مع الآخرين وتجنب السلوكيات غير المقبولة اجتماعيا ، فالمشاركة والمساعدة وعلاقات المبادرة وطلب العون وتقديم النصائح وقول كلمات مثل «شكرا» أو «إذا سمحت» هي أمثلة على المهارات الاجتماعية ، وقد قسمها « جريشام » إلى : التعاون وتوكيد الذات والمسؤولية والتعاطف وضبط الذات(2).

(1) إيمان فؤاد كاشف وهشام إبراهيم عبد الله. (2007) تنمية المهارات الاجتماعية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. القاهرة. دار الكتاب الحديث، ص22.

(2) عبد الحميد سعيد حسن. (2009) دراسة مقارنة بالمهارات الاجتماعية بين الأطفال ذوي صعوبات التعلم والعادين في سلطنة عمان. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية. المجلد الأول. العدد الأول. سلطنة عمان ، ص80.

ومن جهة أخرى عرف « عبد المنعم الدردير » (1993) المهارة الاجتماعية بأن يكون الطفل أصدقاء بسهولة ، يشارك ويتعاون في المدرسة ، محبوب من قبل أقرانه ومعلميه ، يظهر الاهتمام بالآخرين ، يقبل اقتراحات زملائه ، يبادر بالحديث ، يحترم مشاعر الآخرين ، لديه القدرة على التحدث والاستماع الجيد ، يتحكم في انفعالاته وردود أفعاله اتجاه الآخرين ويتبع التعليمات المدرسية(1) .

أما « محمد عبد الرحمان » فقد حدد المهارات الاجتماعية استنادا إلى مقياس المهارات الاجتماعية عند الصغار ل « ماتسن وزملائه » (Matson & al :1983) في قدرة الطفل على المبادأة بالتفاعل مع الآخرين والتعبير عن المشاعر السلبية والايجابية إزاءهم ، وضبط انفعالاته في مواقف التفاعل الاجتماعي بما يتناسب مع طبيعة الموقف(2).

فالتلميذ الماهر اجتماعيا ، هو ذلك التلميذ الذي يتميز بقدرات للتفاعل مع أقرانه لفظيا وسلوكيا في مختلف الوضعيات والمواقف المدرسية ، كما يتميز بالقدرة على الضبط الاجتماعي والانفعالي من حيث عدم الاندفاعية في التعامل والاستجابة للآخرين إلى جانب توكيد الذات كالتعبير عن المشاعر السلبية والايجابية وكل المهارات التي تسهم في إنجاح علاقات التلميذ الاجتماعية.

ونستخلص مما تقدم مفهوما إجرائيا للمهارات الاجتماعية على أنه مجموع الدرجات التي يتحصل عليها التلميذ من خلال استجابته على مقياس المهارات الاجتماعية ل « ماتسن وزملائه » (Matson & al :1983) وذلك بحصوله على الدرجة المرتفعة على المقياس .

.فعالية الذات :

يمثل مفهوم فعالية الذات من المفاهيم التي أحدثت ثورة في مجال البحوث النفسية والتربوية ودحضت فكرة معامل الذكاء. إذ أصبح التعلم والتحصيل الدراسي ليس مرتبطا بمستوى ذكاء التلميذ ، بقدر ما هو مرتبط بمستوى دافعيته وقدرته على إدراك إمكاناته وثقته في قدرته على النجاح وتجاوز الصعوبات وبالتالي الرضا عن ذاته . ولا يتم ذلك سوى من خلال تفاعله مع محيطه ودعمه له.

وقد أوضح « باندورا » (Bandura :1977) أن مفهوم الفرد عن فاعليته الذاتية يظهر من خلال الإدراك المعرفي لقدرات الفرد الشخصية ومن خلال تعدد

(1) إيمان فؤاد كاشف وهشام إبراهيم عبد الله. (2007) تنمية المهارات الاجتماعية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. القاهرة: دار الكتاب الحديث، ص29.

(2) محمد السيد عبد الرحمان. (1998) دراسات في الصحة النفسية. المهارات الاجتماعية - الاستقلال النفسي الهوية. الجزء الثاني. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر ص16.

الخبرات التي يمر بها الفرد حيث تعمل هذه الخبرات على مساعدة الذات في التغلب على الضغوط التي تواجهه وهذه الخبرات لممارسات ، إذا كانت تتسم بالفشل فإنها قد تعوق الذات عن القيام بوظائفها الايجابية ، وتتضح الفاعلية الذاتية في الإدراك الذاتي لقدرة الطالب على أداء الأنشطة الأكاديمية المختلفة مما يحقق نتائج مرغوبة من النجاح في العمل الدراسي (1).

وقد اعتبر «شفاترز» (Schwartz) أن فاعلية الذات تمثل عنصرا هاما في عمليات الدافعية ، وعلى مستوى هذه الفاعلية يتوقف إشباع أو تعديل أو كبح هذه الدافعية (2).

أما «باجراس» (Pajares:1996) فقد أكد أن مفهوم فاعلية الذات عند «باندورا» (Bandura) يرتبط بأحكام الفرد أو توقعاته عن أدائه للسلوك في مواقف تتسم بالغموض أو ذات ملامح ضاغطة (stressful). وتنعكس هذه التوقعات في اختيار الفرد للنشطة المتضمنة في الداء والمجهود المبذول والمثابرة ومواجهة مصاعب إنجاز السلوك (3).

ومن جهة أخرى فقد عرف الشعراوي (2000) فاعلية الذات على أنها مجموعة الأحكام الصادرة عن الفرد والتي تعبير عن معتقداته حول قدراته على القيام بسلوكيات معينة ، ومرونته في هذا التعامل مع المواقف الصعبة والمعقدة وتحدي الصعاب ومدى مثابرتة للانجاز ويتضمن هذا المفهوم الأبعاد التالية التي أظهرها التحليل العاملي : الثقة بالنفس والمقدرة على التحكم في ضغوط الحياة وتجنب المواقف التقليدية والصمود أمام خبرات الفشل والمثابرة للانجاز.

وتعد فاعلية الذات من هذا المنظور ، مجموعة الأحكام أو التوقعات التي يتبناها الفرد حول قدراته وإمكاناته للقيام بمختلف النشاطات وفي المواقف المختلفة وكذا توقعاته حول قدراته على تحدي ومواجهة الصعاب ، اتخاذ القرارات وإيجاد الحلول المناسبة لإزاء المشاكل التي يمكن مواجهتها.

وتعرف فاعلية الذات إجرائيا في الدراسة الحالية ، بالدرجة المرتفعة التي

(1) غالب بن محمد علي المشيخي. (2009) قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب جامعة الطائف. متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس تخصص (إرشاد نفسي). قسم علم النفس. كلية التربية. جامعة أم القرى ص 74.

(3) Schwartz.R ;Scholz.U ;Gutiérrez.Dona,B ;Sud.S .(2002)Is general self _efficacy a universal construct ? Psychometric Findings from 25 countries. European journal of psychological Assessment, Vol 18 pp 242 - 251..

(3) غالب بن محمد علي المشيخي المرجع السابق ، ص 71.

يحصل عليها التلميذ من خلال إجابته على بنود مقياس فاعلية الذات العامة(1).

.التحصيل الدراسي:

يمثل مستوى التحصيل الدراسي من المؤشرات التي تسمح لنا بالحكم على نجاح التلميذ أو فشله ، فارتفاع التحصيل الدراسي يرتبط مباشرة بالنجاح الدراسي ويقصد به « عبد العزيز الفقي » أن يصل التلميذ إلى بلوغ مستوى معين من التحصيل التي تعمل المدرسة من أجله . ويمثل المحك التحصيلي هنا حصيلة أداء الفرد في الامتحانات(2).

وقد تعددت التعاريف المتعلقة بالتحصيل الدراسي ، إذ يرى « القومي الشيباني عمر محمد » (1990) أن هناك مفهومين للتحصيل الدراسي: مفهوم تقليدي وسائد في أوساط المعلمين والتلاميذ والأولياء ويتمثل فيما يظهره التلميذ من استيعاب للمعارف والمفاهيم الأساسية في المادة المقررة وما يحرزونه من نجاحات في امتحاناتهم المدرسية المختلفة أو ما يتحصلون عليه من درجات في هذه الامتحانات. ومفهوم أكثر اتساعا والمرغوب تربويا كونه يفوق القدرة على الحفظ والاسترجاع إلى القدرة على الاستعمال الفعلي ، أي أنه مجموع ما يتوقع من التلميذ أن يتحصل عليه ويتقنه نتيجة لدراسته لمنهج معين أو مادة معينة أو عند تخرجه وانتهائه من دراسته سنة دراسية أو مرحلة دراسية معينة . أما « سيد خير الله » (1981) فقد تبنى تعريفا آخر أكثر إجرائية من حيث أن التحصيل الدراسي كما يقاس بالاختبارات التحصيلية الحالية في المدارس في نهاية العام الدراسي وهو ما يعبر عنه بالمجموع العام لدرجات التلميذ في جميع المواد الدراسية (3).

وانطلاقا من التعريف الأخير ، يتم قياس التحصيل الدراسي في هذه الدراسة باعتماد المعدل السنوي الذي تحصل عليه التلميذ في نهاية السنة الدراسية (2010/2011) وهي بمثابة مجموع علامات التلميذ التي تحصل عليها في الاختبارات والفروض والمراقبة المستمرة التي قام الأساتذة بإعدادها خلال نفس السنة الدراسية. بحيث يعتبر التلميذ الذي يتحصل على معدل سنوي أكبر أو يساوي

(1)Schwartzter.R ;Scholz.U ;Guttiénez.Dona,B ;Sud.S .(2002)Isgeneralseff _efficacy iversal construct ? Psychometric Findings from 25 countries. Europeanjournal of psychological Assessment,Vol 18 (3) pp 242 _ 251.

(2) حامد عبد العزيز الفقي.(1971) العوامل المتعلقة بالتلميذ. التأخر الدراسي تشخيصه وعلاجه. القاهرة. عالم الكتب. الطبعة الثانية ص69.

(3) شهرزاد بوشلوب.(2001) استراتيجيات التعامل أمام الضغط المدرسي وعلاقتها بالتحصيل الدراسي . رسالة ماجستير (غير منشورة).قسم علم النفس وعلوم التربية. جامعة الجزائر ص69.

10 على 20 هو تلميذ ذو تحصيل مرتفع بمعنى أن هذا المعدل يسمح له بالانتقال إلى المستوى الأعلى ، في حين أن التلميذ المتحصل على معدل سنوي أصغر من 10 على 20 ، هو تلميذ ذو تحصيل ضعيف أو منخفض وهو المعدل الذي لا يسمح له بالانتقال إلى مستوى أعلى .

6. الدراسات السابقة:

اتجهت الدراسات الحديثة اليوم نحو الاهتمام بالجوانب الانفعالية والعلائقية للمتعلم أو التلميذ ومدى ارتباطها بالتحصيل الدراسي الأكاديمي عموماً والنجاح الدراسي بصفة خاصة. إذ أصبح من المؤكد أن التحصيل الدراسي لم يعد مرتبطاً بالقدرة العقلية والمعرفية للتلميذ بقدر ما هو مرتبط بمستوى فعاليته الذاتية ومستوى مهاراته الاجتماعية. ذلك ما توصلت إليه إحدى الدراسات ل « وايتد » (Whitted) حول مساهمة المهارات الاجتماعية والانفعالية في النجاح المدرسي ، إذ أشارت إلى أن العلاقات بين الأشخاص في المحيط المدرسي عامل مهم في النجاح الدراسي للتلميذ ذلك أن الأطفال الذين يدخلون المدرسة بقدرة للصمود أمام المهمات الصعبة ، وقدرات للتعبير عن انفعالاتهم وتعديلها بطريقة مناسبة ، يبنون العلاقات مع أقرانهم ومع الراشدين ويحافظون عليها في نفس الوقت ، كما يقومون بالتفاوض والتعاون في إطار جماعة وهي عوامل مهمة في تيسير عملية التعلم⁽¹⁾.

وفي دراسة قامت بها « الزعبي » حول تصورات معلمي المدارس الثانوية لأهمية مهارات التعلم والمهارات الاجتماعية في تحقيق النجاح المدرسي للطلبة في منطقة « بني كنان » بالأردن ، تبين أن امتلاك الطالب للمهارات الاجتماعية التي تساعده على التواصل والنقاش والحوار والتفاوض والتساؤل وتبادل الرأي ، تكون هامة جداً لنجاحه في عملية التعلم ، فمن دونها سيبقى منعزلاً وربما لن يتمكن من اكتساب الخبرات من المحيط الذي تتم به عملية التعلم وهي المدرسة⁽²⁾ .

وهذا ما يؤكد أهمية اندماج التلميذ في عملية التعلم من خلال التفاعل والتواصل مع الآخرين لاسيما الأقران ، بما يساهم في تحقيق نجاحه الدراسي. وفي

(1)Whitted. K. (2011) Understanding how social and emotional deficits contribute to school failure. Preventing school failure, 55(1), 10 - 16.

(2) دلال محمد الزعبي. (2009) تصورات معلمي المدارس لأهمية مهارات التعلم والمهارات الاجتماعية في تحقيق النجاح المدرسي للطلبة. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد 6. العدد 3. الأردن ص 243.

دراسة مقارنة للمهارات الاجتماعية بين الأطفال ذوي صعوبات التعلم والعاديين في سلطنة عمان توصل «عبد الحميد حسن» إلى وجود فروق دالة بين ذوي صعوبات التعلم والأسوياء في بعد المهارات الاجتماعية ومقاييسه الثلاث لصالح الأسوياء ، وفسر هذه النتيجة بكون الأطفال ذوي صعوبات التعلم يعانون من صعوبة في تطوير علاقات شخصية مع الأفراد الآخرين والاحتفاظ بهذه العلاقات(1).

وفي دراسة تحليلية لخمسة وعشرين دراسة قامت على مقارنة الأنماط السلوكية للطلاب ذوي صعوبات التعلم بها لدى غيرهم من الطلاب العاديين تحصيليا ، أشار «بندر» و«سميث» (Smith & Bender:1990) إلى أن الطلاب ذوي صعوبات التعلم يكتسبون ويبدون أنماطا سلوكية تعبر عن الخجل والانطواء والانسحاب بشكل يفوق بفروق ذات دلالة هذه الأنماط لدى أقرانهم من الطلاب العاديين. ويرى الباحثان أن هذا السلوك الانسحابي هو نتيجة لفشلهم في إجراء أي تفاعل اجتماعي وشعورهم بالافتقار إلى القدرة على منافسة أقرانهم بسبب تكرار فشلهم الأكاديمي . وقد يتجه البعض من هؤلاء الطلاب إلى الوحدة والعزلة الاجتماعية ، وقد يؤدي هذا إلى عدم القدرة على التفاعل إيجابيا مع أقرانه أو مع الكبار ممن يتعاملون معه(2).

من جهة أخرى أكدت إحدى التقارير التي أعدت حول المهارات التي تسهم في جاهزية الأطفال للدخول إلى المدرسة ، أن مهارات التعلم والاندماج في المدرسة والمهارات الاجتماعية والصحة البدنية هامة للنجاح المبكر في المدرسة الذي ينعكس على نجاح الأطفال في المراحل اللاحقة.

وإذا كانت المهارات الاجتماعية ، من العوامل الأساسية فيتحصل التلميذ وتوظيف مهاراته الأكاديمية اللازمة لنجاحه الدراسي ، فقد توصل المختصون التربويون مثل «بونات» (Bonett:1994) أن الأداء الناجح لا يتطلب توافر المهارات والمعرفة فحسب بل من المهم توافر الاعتقاد بالقدرة على الأداء الناجح والذي عرفه «بانورا» (Bandura) بتوقعات الفعالية(3).

(1) عبد الحميد سعيد حسن. (2009) دراسة مقارنة بالمهارات الاجتماعية بين الأطفال ذوي صعوبات التعلم والعاديين في سلطنة عمان. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية. المجلد الأول. العدد الأول. سلطنة عمان ص 97.

(2) فتحي مصطفى الزيات. (1998) صعوبات التعلم. الأسس النظرية والتشخيصية والعلاجية. اضطراب العمليات المعرفية والقدرات الأكاديمية. القاهرة. الطبعة الأولى ص 624.

(3) مصطفى هيلات ، قسيم وأحمد محمد ، الزعبي ونور أحمد ، شريفات (2010) أثر أنماط التعلم المفضلة على فعالية الذات لدى طالبات قسم العلوم التربوية في كلية الأميرة عالية الجامعية. مجلة العلوم التربوية

وقد وجد «بانلورا» (Bandura :1997) أن ذوي فاعلية الذات المرتفعة يتميزون بخصائص عامة مثل مستوى عال من الثقة بالنفس، قدر عال من تحمل المسؤولية، مهارات اجتماعية عالية وقدرة فائقة على التواصل مع الآخرين(1).

ويعتبر «جولمان» (2000) أن الإحساس بالكفاءة أو الفعالية الذاتية، يجعل الناس يستفيدون أفضل استفادة من أي مهارة يتمتعون بها. وفي هذا الصدد توصلت إحدى الدراسات حول التكيف الأكاديمي وعلاقته بالكفاءة الذاتية العامة، لدى عينة من طلبة كلية العلوم التربوية في جامعة آل بيت بالأردن إلى أن هناك ارتباط موجب بين التكيف الأكاديمي والكفاءة الذاتية العامة، حيث أن شعور الطالب بالكفاءة الذاتية العامة وامتلاك القدرات والمؤهلات اللازمة لمواجهة أعباء الدراسة ومتطلباتها، ينعكس إيجابيا على التكيف الأكاديمي وتحقيق الاستقرار النفسي والتفاعل الإيجابي البناء(2).

وفي السياق نفسه، توصلت دراسة «جون وآخرون» (John & al:1999) حول عدد من المتغيرات، منها فاعلية الذات بالتحصيل في مادة الرياضيات لدى عينة من طلبة ست مدارس ثانوية جنوب كاليفورنيا، إلى وجود ارتباط موجب بين فاعلية الذات ومستوى التحصيل في الرياضيات. كما تبين في دراسة ل«كروز» (2002: Cruz) حول العلاقة بين فاعلية الذات والتحصيل الأكاديمي لدى عينة من طلبة كلية (هاواي)، أن هناك ارتباط موجب بين فاعلية الذات والتحصيل الأكاديمي، أي أن الطلاب ذوي فاعلية الذات المرتفعة، كان تحصيلهم الأكاديمي أعلى من تحصيل الطلاب ذوي فاعلية الذات المنخفضة(3).

وفي إطار دراسة ل«شفارتزر وزملائه» (Schwartz & al) حول علاقة فاعلية الذات بالتحصيل الدراسي والعلاقات الاجتماعية والتنظيم الذاتي، التفاؤل وتقدير الذات في بلدان مختلفة من القارات الخمس، تبين أن القدرات الأكاديمية مرتبطة بفعالية الذات. كما أن الأشخاص الذين يتمتعون بفعالية ذات مرتفعة، يكونون أكثر

والنفسية. المجلد 11 العدد 1 مارس. البحرين.

- (1) غالب بن محمد علي المشيخي. (2009) قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب جامعة الطائف. متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس تخصص (إرشاد نفسي) قسم علم النفس. كلية التربية. جامعة أم القرى ص 89.
- (2) محمد بني خالد. (2010) التكيف الأكاديمي وعلاقته بالكفاءة الذاتية العامة لدى طلبة كلية العلوم التربوية في جامعة آل بيت. مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). مجلد 24 (2) ص 423.
- (3) نصر محمد العلي ومحمد عبد الله سحلول. (2006) العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية. المجلد الثامن عشر، العدد الأول. الأردن. ص 99.

نجاحا في حل المسائل الذهنية في المدرسة أو في العمل ، فالطموح الشخصي والتحصيل الدراسي مرتبطان باعتقادات الأفراد إزاء قدراتهم الذاتية وإمكاناتهم (1).

وانطلاقا مما سبق يتبين أن للمدرسة دور وظيفي في بناء الفاعلية الذاتية والمهارات الاجتماعية ، بحيث أن معرفة التلاميذ بقدراتهم الذاتية تزداد من خلال تفاعلهم مع أقرانهم. فالمهارات الاجتماعية حسب « طريف » تساعد الفرد على الاستفادة من الآخرين ، ذلك أن الأقران ، سيقرون للفرد الماهر اجتماعيا حتى يتفاعل معهم بشكل مكثف فرصة لتعلم المزيد من السلوكيات الاجتماعية الايجابية. كما تشير دراسات « فوق وآخرون » (Vough & al:2000) إلى أن الأطفال الذين لديهم عدد أكبر من الأصدقاء يميلون لأن يكونوا أكثر إثارة وتقديرا لدواتهم وينمو لديهم العديد من المهارات المعرفية مقارنة بمن لديهم صداقات أقل (2).

ومن جهة أخرى ، تبين من خلال بعض الدراسات حول علاقة التحصيل الدراسي بفاعلية الذات ، نتائج مختلفة عن سابقتها ، إذ توصلت « حنان الحربي » (2006) في دراسة لها حول علاقة التحصيل الدراسي بكل من فاعلية الذات العامة والأكاديمية واتجاه الضبط لدى عينة من طلاب وطالبات جامعة أم القرى في ضوء بعض المتغيرات الديموغرافية والأكاديمية إلى بعض النتائج أهمها : وجود علاقة موجبة سالبة ذات دلالة إحصائية بين التحصيل الدراسي وكل من فاعلية الذات العامة والأكاديمية (3).

كما توصل كل من « العلي » و « سحلول » في دراسة لهما حول العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوي في مدينة صنعاء إلى نتيجة مفادها عدم وجود فروق في تحصيل الطلبة يعزى إلى فاعلية الذات. كما تبين من خلال دراسة « رابو » (Rapoo:2001) أن العلاقة بين فاعلية الذات والتحصيل كانت غير دالة إحصائيا (4).

(1)Schwartz.R ;Scholz.U ;Guttiénez.Dona,B ;Sud.S .(2002)Isgeneralseff _efficacy iversal construct ? Psychometric Findings from 25 countries. Europeanjournal of psychological Assessment,Vol 18 (3) pp 242 - 251..

(2)طريف شوقي فرج.(2002) المهارات الاجتماعية والانصالية:دراسات وبحوث نفسية. القاهرة.دار غريب للطباعة والنشر ص18.

(3)بندر بن محمد حسن الزيايدي العتيبي.(1429) اتخاذ القرار وعلاقته بكل من فاعلية الذات والمساندة الاجتماعية لدى عينة من المرشدين الطلابيين بمحافظة الطائف . متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير. قسم علم النفس ، كلية التربية. جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية ص65.

(4) نصر محمد العلي ومحمد عبد الله سحلول.(2006) العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية

7. إجراءات الدراسة:**. منهج الدراسة:**

للإجابة عن تساؤلات الدراسة الحالية ، تم اعتماد المنهج الوصفي في نوعه الخاص بالطريقة الارتباطية والتي تعرف بأنها تبحث في العلاقة بين المتغيرات ، ويعبر عن مقدار هذه العلاقة أو درجتها بمعامل الارتباط ، فإذا وجد ارتباط بين متغيرين ، فإن هذا يعني أن درجات أو تقديرات في مدى معين بالنسبة لمقياس معين ، ترتبط بتقديرات أو درجات في مدى معين بالنسبة لمقياس آخر. فالدراسات الارتباطية ترصد الواقع الفعلي بتلازم المتغيرات ولا تحدد علاقات سببية بينهما(1).

وبالتالي فالدراسة الحالية تحاول الكشف عن مدى وجود علاقة ارتباطية بين متغيرات الدراسة المتمثلة في المهارات الاجتماعية ، فعالية الذات والتحصيل الدراسي.

. عينة الدراسة:

لاختيار عينة بحثنا ، تم اعتماد معايير العينة العشوائية ، بحيث تضمنت تلاميذ من الجنسين ومن مستويات تعليمية مختلفة (الثانية والثالثة متوسط) ممتدرسون بقطاع بئر خادم التابع لمديرية التربية لغرب الجزائر ، خلال السنة الدراسية 2010/2011 وقد تمثلت عينة الدراسة الأصلية في 110 تلميذ ، إلا أنه تم إلغاء 22 تلميذ لعدم احترامهم لتعليمات المقاييس. وبذلك بلغ العدد الإجمالي لعينة الدراسة الحالية 88 تلميذ ، موزعين بدلالة الجنس والمستوى الدراسي على النحو التالي :

جدول رقم 1 : توزيع عدد التلاميذ حسب المستوى الدراسي والجنس في عينة الدراسة

المجموع	عدد التلاميذ الإناث	عدد التلاميذ الذكور	المستوى الدراسي
35	17	18	الثانية متوسط
53	33	20	الثالثة متوسط
88	50	38	المجموع

. أدوات الدراسة : تمثلت أدوات الدراسة الحالية في المقاييس التالية :

مقياس المهارات الاجتماعية للصغار :

وضعه « ماتسن وزملاؤه » (Matson & al1983) تحت عنوان تقييم « ماتسن » للمهارات الاجتماعية للصغار (M.E.S.S.Y) (youngsters Matson evaluation of social skills with) وكانت

والإنسانية ، المجلد الثامن عشر ، العدد الأول. الأردن)ص 99.
(1) الرشيد بشير صالح (2000) مناهج البحث التربوي رؤية تطبيقية مبسطة. الكويت: دار الكتاب الحديث ، الطبعة الأولى ص 67.

العينة المبدئية التي تمت دراستها تتألف من 744 طفلاً وشاباً تتراوح أعمارهم بين 8 إلى 18 سنة. كما أن المقياس كانفي البداية يشمل 92 فقرة تم انتقاؤها من المقياس العامة للأمراض النفسية، والسلوكيات المستهدفة في دراسات المهارات الاجتماعية للأطفال والملاحظات الإكلينيكية والمناقشات مع الأخصائيين العاملين مع الأطفال (1).

وقد قام «محمد عبد الرحمن» بتعديلين لهذا المقياس بعد تطبيقه في البيئة العربية وتمثل التعديل الأول في جعل الإجابة على البنود ثلاثية (دائمًا، أحيانًا، نادراً) بدلا من الإجابة الخماسية التي استخدمها «ماتسن» وذلك لصعوبة تطبيقها على أطفال عينة الدراسة. أما التعديل الثاني فهو عبارة عن تصنيف هذه البنود تحت مقياس فرعية تشير إلى أربعة أنواع من المهارات الاجتماعية هي: المبادرة بالتفاعل، التعبير عن المشاعر السلبية، الضبط الاجتماعي والانفعالي والتعبير عن المشاعر الإيجابية. وبذلك أصبح المقياس في صورته النهائية مكوناً من 57 فقرة. ويصحح المقياس بإعطاء قيم رقمية لسلم متدرج مثل: دائماً (2)، أحياناً (1) ونادراً (0) عندما تكون العبارة موجبة الاتجاه أي تعبر عن مستوى مرتفع من المهارة الاجتماعية مثل عبارة (أنظر إلى الناس وأنا أتحدث إليهم) أما إذا كانت العبارة سالبة الاتجاه أو تعبر عن نقص في المهارة الاجتماعية، يتم عكس هذه القيم كالتالي: دائماً (0)، أحياناً (1) ونادراً (2) مثل عبارة (أعاير الأطفال الآخرين بعيوبهم وأخطائهم). وبذلك تدل الدرجة المرتفعة في أي بعد من المقياس أو في المقياس ككل على ارتفاع المهارة الاجتماعية والعكس بالنسبة للدرجة المنخفضة. أما بالنسبة لصدق المقياس وثباته فقد توصل «محمد عبد الرحمن» باستخدام طريقة «ألفا كرونباخ» إلى معاملات ثبات مرتفعة للأبعاد وللمقياس ككل وكانت قيمتها 0.76 بالنسبة للمقياس ككل. كما توصل من خلال حساب صدق المقارنة الطرفية للمقياس إلى تمتع المقياس بدرجة جيدة من القدرة التمييزية بين مرتفعي ومنخفضي المهارة الاجتماعية (2).

وفي ما يتعلق بالدراسة الحالية، فقد تم تقدير ثبات المقياس بطريقة «ألفا كرونباخ» للاتساق الداخلي بعد تطبيق المقياس على عينة قوامها 91 تلميذ منهم 38 ذكور و 53 إناث في مستويات السنة الثانية والثالثة متوسط بقطاع بئر خادم التابع لمديرية التربية لغرب الجزائر، وبلغ معامل الثبات 0.86 وهو معامل ثبات مرتفع.

(1) إيمان فؤاد كاشف وهشام إبراهيم عبد الله. (2007) تنمية المهارات الاجتماعية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. القاهرة.

(2) محمد السيد عبد الرحمان. (1998) دراسات في الصحة النفسية. المهارات الاجتماعية - الاستقلال النفسي - الهوية. الجزء الثاني. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر ص 35.

أما الصدق فقد تم حسابه عن طريق صدق محتوى البنود بحيث تراوحت قيمة معامل الارتباط بين كل بعد من أبعاد المقياس والدرجة الكلية للمقياس بين (0.72) و(0.90) ، وهي دالة إحصائياً عند مستوى الدلالة (0.01) ، كما هو مبين في الجدول التالي:

جدول رقم 2: صدق محتوى أبعاد مقياس المهارات الاجتماعية

أبعاد المقياس	معاملات الارتباط بين كل بعد والدرجة الكلية للمقياس
بعد التعبير عن المشاعر الايجابية	**0.74
بعد الضبط الاجتماعي	**0.90
بعد المبادرة بالتفاعل	**0.72
بعد التعبير عن المشاعر السلبية	**0.82

** دالة عند مستوى الدلالة (0.01)

مقياس فعالية الذات المدركة

قام بإعداده « شفاترزر » (Schwartz 1993): تحت عنوان (Measurement of perceived self efficacy) للتعرف على مستوى فعالية الذات لدى الأفراد في المواقف المقلقة. تمت ترجمة المقياس واستخدامه في مشاريع بحث عديدة في بلدان مختلفة مثل الصين وإسبانيا وروسيا وأستونيا وسوريا. وحسب « شولز وزملاؤه » (Scholz & al 2002) فقد قام عيسى المنصور بتعريب المقياس وتقنيته بسوريا ، واستخرج دلالات الصدق والثبات له بتطبيقه على عينة مكونة من 264 فرد منهم 115 ذكور و149 إناث(1).

ويتكون المقياس من عشر عبارات مدرجة على سلم مكون من أربعة بدائل هي: (نادرا ، أحيانا ، غالبا ، دائما) بحيث تتم الإجابة عن كل عبارة باختيار أحد هذه البدائل ، وتعطي هذه البدائل ، الدرجات التالية :

نادرا(1) ، أحيانا(2) ، غالبا(3) ودائما(4) ، وبذلك تمثل الدرجة الكلية للتلميذ مجموع درجاته على جميع العبارات والتي تعكس مستوى فعاليته الذاتية وهي تتراوح بين (10) و(40) درجة.

وفي إطار الدراسة الحالية تم تقدير ثبات المقياس باستخدام طريقة « ألفا كرونباخ » للاتساق الداخلي بعد تطبيقه على عينة قوامها 103 تلميذ منهم 49 ذكور

(1) نصر محمد العلي ومحمد عبد الله سحلول. (2006) العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية. المجلد الثامن عشر ، العدد الأول. الأردن ص 105.

و54 إناث ، في مستويات السنة الثانية والثالثة متوسط بقطاع بئر خادم التابعة لمديرية التربية لغرب الجزائر. وبلغ معامل الثبات 0.70 وهو معامل ثبات مرتفع وبالتالي مقبول .

أما صدق المقياس فقد تم حسابه بواسطة المقارنة الطرفية بين نتائج 27% من المستوى الأعلى و27% من المستوى الأدنى ، على عينة قوامها 33 تلميذ وتلميذة ، من مستوى السنة الثانية متوسط. وذلك بتطبيق اختبار «t» لدلالة الفروق بين متوسطين ، وقدرت قيمة «t» المحسوبة ب (11.5) مقارنة بالقيمة المجدولة (2.12) وبذلك يتضح لنا أن قيمة «t» المحسوبة دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (0.05) ، وعليه فالمقياس قادر على التمييز بين التلاميذ ذوي فعالية الذات المرتفعة والتلاميذ ذوي فعالية الذات المنخفضة ، وبالتالي فهو اختبار صادق.

8. نتائج الدراسة ومناقشتها:

1. نتائج الفرضية الأولى للدراسة:

نصت الفرضية الأولى على وجود ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ومستوى تحصيلهم الدراسي. ولاختبار صحة هذه الفرضية ، تم حساب معامل الارتباط ل«بيرسون» بين المتغيرين بحيث جاءت النتائج كما هو موضح في الجدول التالي:

جدول رقم 3: نتائج معامل الارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ومستوى تحصيلهم الدراسي.

المتغير	معامل الارتباط = r =	مستوى الدلالة
المهارات الاجتماعية التحصيل الدراسي	0.35**	0.01

** تشير إلى أن العلاقة ذات دلالة عند مستوى 0.01

يتضح من الجدول رقم (3) أن هناك ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ومستوى تحصيلهم الدراسي بحيث بلغت قيمته (0.35) وهي قيمة متوسطة ودالة عند مستوى (0.01) . وقد جاءت هذه العلاقة موجبة بين المتغيرين مما يشير إلى أن التلاميذ الذين تكون درجاتهم في مقياس المهارات الاجتماعية مرتفعة ، تميل نتائجهم الدراسية إلى أن تكون مرتفعة أيضا. فالتلاميذ ذوي المهارات الاجتماعية العالية يكون تحصيلهم الدراسي مرتفعا والعكس صحيح. وبذلك تكون الفرضية الأولى للدراسة قد تحققت .

2. نتائج الفرضية الثانية للدراسة:

تشير الفرضية الثانية إلى وجود ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات ومستوى تحصيلهم الدراسي . ولاختبار صحة هذه الفرضية ، تم حساب معامل الارتباط ل«بيرسون» بين المتغيرين وجاءت النتائج كما هي موضحة في الجدول التالي :

جدول رقم 4: نتائج معامل الارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات

ومستوى تحصيلهم الدراسي

المتغير	معامل الارتباط = r	مستوى الدلالة
فاعلية الذات التحصيل الدراسي	0.20	0.05

يتضح من الجدول رقم (4) عدم وجود ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات ومعدلاتهم الدراسية السنوية حيث بلغت قيمة معامل ارتباط «بيرسون» (0.20) وهي قيمة ضعيفة وغير دالة عند مستوى الدلالة (0.05) وبالتالي ليست هناك علاقة بين المتغيرين بمعنى أن ارتفاع أو انخفاض تحصيل التلاميذ الدراسي لا يتوقف على مستوى ونوعية فاعلية الذات التي يمتلكها التلاميذ وبالتالي لم تتحقق الفرضية الثانية للدراسة.

3. نتائج الفرضية الثالثة للدراسة .

لاختبار صحة الفرضية الثالثة التي تنص على وجود ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ودرجاتهم في مقياس فاعلية الذات ، تم معالجتها إحصائياً عن طريق حساب معامل الارتباط «بيرسون» بين متغيري فاعلية الذات والمهارات الاجتماعية وجاءت النتائج موضحة في الجدول التالي:

جدول رقم 5: نتائج معامل الارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات

ومقياس المهارات الاجتماعية.

المتغير	معامل الارتباط = r	مستوى الدلالة
فاعلية الذات مجموع المهارات الاجتماعية	**0.40	0.01

** تشير إلى أن العلاقة ذات دلالة عند مستوى 0.01

يتبين من الجدول رقم (5) وجود ارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات ودرجاتهم في مقياس المهارات الاجتماعية بمختلف أبعاده حيث بلغت قيمته (0.40) وهي قيمة دالة عند مستوى الدلالة (0.01). وهذا يدل على أن التلاميذ ذوي المهارات الاجتماعية المرتفعة تكون مستويات فاعليتهم الذاتية

مرتفعة أيضا. وبذلك تحققت الفرضية الثالثة للدراسة الحالية.

4. نتائج الفرضية الرابعة للدراسة.

تشير الفرضية الرابعة إلى وجود علاقة ارتباطية بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ودرجاتهم في مقياس فاعلية الذات ونتائجهم الدراسية السنوية. ولاختبار صحة هذه الفرضية تم حساب معامل الارتباط ل«بيرسون» بين المتغيرات الثلاث، فاعلية الذات، المهارات الاجتماعية والنتائج الدراسية السنوية بحيث جاءت النتائج كما هي مبينة في الجدول التالي:

جدول رقم 6 : نتائج معامل الارتباط بين درجات التلاميذ في مقياس فاعلية الذات

ومقياس المهارات الاجتماعية والنتائج الدراسية السنوية.

مستوى الدلالة	معامل الارتباط - r	التفسير
0.01	0.32	المهارات الاجتماعية
	0.07	فاعلية الذات
	0.36	العلاقة المتعددة بين المهارات الاجتماعية، فاعلية الذات والتحصيل الدراسي

يشير الجدول رقم (6) إلى وجود علاقة ارتباطية بين درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية ودرجاتهم في مقياس فاعلية الذات وتحصيلهم الدراسي السنوي. وقد جاءت هذه العلاقة المتعددة بين المتغيرات الثلاث متوسطة بلغت قيمتها (0.35) وهي قيمة دالة عند مستوى (0.01).

كما يتبين من نفس الجدول أن متغير المهارات الاجتماعية كان له وزن أكبر في هذه العلاقة المتعددة. وبالتالي جاءت هذه النتائج لتؤكد نتائج الفرضيات السابقة، من حيث وجود علاقة ارتباطية مؤكدة بين التحصيل الدراسي والمهارات الاجتماعية في حين أن فاعلية الذات لم تثبت علاقتها بالنتائج الدراسية السنوية لنفس التلاميذ.

مناقشة نتائج الفرضيات وتفسيرها.

إن معظم الدراسات في الدول العربية لم تعط الاهتمام الكافي بموضوع المهارات الاجتماعية وفعالية الذات، وإنما انصب اهتمامها بالمهارات الأكاديمية والتحصيلية للتلميذ، رغم أن النظريات المعرفية والسلوكية اليوم أصبحت تركز على أهمية المهارات الاجتماعية وفاعلية الذات باعتبارها من مؤشرات الصحة النفسية ومن أهم أسس النجاح في المواقف الحياتية المختلفة وفي المواقف المدرسية بالنسبة للتلميذ على الخصوص.

فالعلاقات الاجتماعية والتفاعل مع الآخرين جزء هام من حياة التلاميذ بحيث

يتوقف نجاحهم في الأسرة وفي المدرسة وفي الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، على قدراتهم ومهاراتهم في تكوين علاقات اجتماعية ناجحة. إذ تعتبر «سهير شاش» (2002) أن المهارات الاجتماعية هي قدرة الطفل على التفاعل الاجتماعي مع أقرانه والاستقلال والتعاون مع الآخرين والقدرة على ضبط الذات إلى جانب توافر المهارات الشخصية في إقامة علاقات إيجابية بناءة وتدير الأمور والتصرفات والقدرة على التحكم في المهارات المدرسية وفي هذا الصدد يرى «فتحي الزيات» أن التوافق الناجح في مختلف المواقف المدرسية يعتمد على حسن استخدام وفاعلية المهارات الاجتماعية (1).

ومن جهة أخرى يؤكد «عبد الواحد يوسف إبراهيم» أن المهارات الاجتماعية لها دور مهم في زيادة التحصيل الأكاديمي والتفاعل الشخصي للطلاب ، حيث تأكد أنه توجد علاقة بين بعض أبعاد المهارات الاجتماعية والقدرة الإبداعية لدى المتعلمين. ومن هنا فإن ضعف المهارات الاجتماعية لدى الأفراد يؤثر سلبا في التحصيل الأكاديمي لديهم كما أن ضعف الانجاز الأكاديمي لدى هؤلاء المتعلمين يؤثر سلبا على المهارات الاجتماعية لديهم .

بناء على ما تقدم ، يتضح أن ارتفاع مستوى المهارات الاجتماعية يوفر حظوظا أكبر للتلاميذ للنجاح في المدرسة والرفع من تحصيلهم الدراسي. ذلك ما كشفت عنه فعلا الدراسة الحالية ، بحيث ثبت وجود علاقة بين المهارات الاجتماعية ومستوى التحصيل الدراسي للتلميذ بحيث كلما كانت درجات التلاميذ في مقياس المهارات الاجتماعية مرتفعا كلما كانت نتائجهم الدراسية السنوية مرتفعة أيضا والعكس صحيح (أنظر الجدول رقم 1) وهي النتيجة التي تتفق مع نتائج عدد من الدراسات ل «لاد» و«آشر» (Ladd & Asher, 1985) والتي توصلت إلى أن التوافق الاجتماعي الجيد في مرحلة الطفولة يرتبط بالتحصيل الأكاديمي المرتفع. إذ أن العلاقات الاجتماعية الطيبة تنمي من قدرات الطفل الإبداعية وأن الحب والقبول هو أساس كل عمل ناضج ، لذا يجب تلقين الصغار منذ نعومة أظافرهم كيفية التعامل مع الغير وكيفية اكتساب الصداقات وتكوين مجتمع أساسه الحب (2).

كما توصلت إحدى الدراسات ل «شونفيلد وزملائه» (Schoenfeld & al, 2008) إلى أهمية المهارات الاجتماعية والسلوكية والتعاون والضبط الذاتي في موضوع التحصيل الأكاديمي والسلوك الناجح ، ذلك أن الطلبة الذين يفتقدون لهذه المهارات

(1) فتحي مصطفى الزيات، (1998) صعوبات التعلم. الأسس النظرية والتشخيصية والعلاجية. اضطراب العمليات المعرفية والقدرات الأكاديمية. القاهرة. الطبعة الأولى ص 99.
(2) سعدة أحمد إبراهيم، (2007) المهارات الاجتماعية وصعوبات التعلم. دراسة تجريبية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة ص 67.

من المرجح أنهم سيواجهون عددا من النتائج غير المرغوبة التي تتضمن تفاعلا ضعيفا للمتعلمين مع زملائهم وتدنيا في التحصيل الأكاديمي⁽¹⁾.

ومما لاشك فيه أن التلميذ الذي يحسن المحادثة مع الآخرين ويحسن التعبير عن ذاته ومشاعره ويحاول الاستماع لانشغالات الآخرين وفهمهم ويتبادل الخبرات والتجارب مع محيطه المدرسي ويتفاعل مع أقرانه، قد تكون لديه بدون شك فرص لتعزيز ثقته بنفسه والاعتقاد الصارم بقدرته على السيطرة على مجريات حياته ومواجهة ما يقابله من تحديات في المدرسة كالحصول على أحسن النتائج الدراسية. فالأطفال ذوي المهارات الاجتماعية يتمتعون بقدرات على التواصل، حل المشكلات، صنع القرارات والتعبير عن أنفسهم مما يزيد من إحساسهم بالفعالية الذاتية، ذلك ما كشفت عنها الدراسة الحالية من حيث وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين مهارات التلاميذ الاجتماعية وفعالية الذات لديهم، إذ تبين من خلال النتائج أن التلاميذ ذوي المهارات الاجتماعية العالية تكون فعالية الذات لديهم مرتفعة بنفس القدر والعكس صحيح. وهذا ما يدل على أن المهارات الاجتماعية مرتبطة فعلا بفعالية الذات لدى التلاميذ.

ففاعلية الفرد تعتمد على تكوين علاقات قوية وسليمة مع الآخرين بما له من سمات المرونة والشعور بالانتماء والذكاء الاجتماعي إذ كلما كانت علاقات الفرد قوية مع الآخرين، كلما كان توافقه أفضل خاصة توافقه الاجتماعي. وعدم وجود علاقات سليمة مع الآخرين من شأنه أن يصيب الفرد بالشعور بالعزلة الاجتماعية. ذلك ما استخلصه «باندورا» (Bandura, 1977) عندما أشار إلى ذوي فاعلية الذات المرتفعة من حيث تميزهم بمستوى عال من الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية، مهارات اجتماعية عالية وقدرة فائقة على التواصل مع الآخرين⁽²⁾.

وعلى أساس ما سبق فإن المهارات الاجتماعية حسب «سعدية بهادر» (1992) تساعد الأفراد على تحقيق فوز كبير من الاستقلال الذاتي والاعتماد على النفس والاستمتاع بأوقات الفراغ، كما يساعدهم على ثقتهم بأنفسهم ومشاركة الآخرين في الأعمال التي تتفق مع قدراتهم وإمكانياتهم وتساعدهم على

(1) دلال محمد الزعبي. (2009) تصورات معلمي المدارس لأهمية مهارات التعلم والمهارات الاجتماعية في تحقيق النجاح المدرسي للطلبة. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد 6. العدد 3. الأردن ص 230.

(2) غالب بن محمد علي المشيخي. (2009) قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب جامعة الطائف. متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس تخصص (إرشاد نفسي). قسم علم النفس. كلية التربية. جامعة أم القرى ص 89.

التفاعل مع الرفاق والابتكار والإبداع في حدود طاقاتهم الذهنية والجسمية(1). والجدير بالذكر أن الدراسة الحالية لم تظهر ارتباطا دالابين نتائج التلاميذ الدراسية السنوية ودرجاتهم في فاعلية الذات ، وهذه النتيجة قد اتفقت مع نتائج دراسة «رابو» (Rapoo,2001) من حيث أن العلاقة بين فاعلية الذات والتحصيل الدراسي كانت غير دالة. وهي نفس النتيجة التي توصل إليها «محمد العلي» و«عبد الله سحلول» (2006) فيدراسة لهما حول العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء ، إذ تبين عدم وجود فروق في تحصيل الطلبة يعزى إلى فاعلية الذات ، إذ يعتبر الباحثان أن هذه النتيجة يجب تفسيرها بحذر باعتبار أن علاقة فاعلية الذات بالتحصيل الأكاديمي ليست بسيطة أو محددة بل تعتمد على محددات موقفية أخرى.ذلك أن فاعلية الذات حسب «باندورا» (Bandura,1977) ليست مثيرا لضبط السلوك ولكنها أحد المؤثرات الذاتية في السلوك ولا يوجد مصدر الضبط في البيئة ، ولكنه يوجد في التبادل الذي يحدث بين العوامل البيئية والشخصية والسلوكية. والحتمية التبادلية تعني عدم وجود أفضلية لأي من عوامل البيئة والسلوك والشخص في إعطاء الناتج النهائي للسلوك(2).

ويشير «باندورا» (Bandura 1977) إلى أربعة أنواع من الكفاءة أو فاعلية الذات حيث ميز بين الكفاءة الذاتية المعرفية وتمثل قرارات الفرد في الأداء الأكاديمي ، والكفاءة الذاتية السلوكية من خلال تعلم مهارات جديدة ، والكفاءة الذاتية الانفعالية بالسيطرة على الانفعالات والكفاءة الذاتية الاجتماعية من خلال التفاعل مع الآخرين.وأخيرا يمكننا القول أن الكفاءة الذاتية حسب «البيلي وآخرون» (1998) تشير إلى أسلوب الفرد في تفسير النجاح والفشل ، فالأفراد الذين يمتلكون إحساسا عاليا في الكفاءة الذاتية ، فإنهم يعزون نجاحهم إلى قدراتهم الذاتية ، وتقصيرهم في عدم بذل الجهد . أما الأفراد الذين لديهم إحساس متدن في الكفاءة الذاتية فإنهم يعزون فشلهم إلى عدم امتلاك القدرات(3).

وإذا كانت الدراسات المتعلقة بفاعلية الذات قد أظهرت أنها ذات تأثير دال

(1) سليمان عبد الواحد يوسف إبراهيم.(2010) المهارات الحياتية.ضرورة حتمية في عصر المعلوماتية.رؤية سيكوتربوية. القاهرة. يترك للطباعة والنشر والتوزيع.الطبعة الأولى ص118.

(2) نصر محمد العلي ومحمد عبد الله سحلول.(2006) العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية.المجلد الثامن عشر ، العدد الأول. الأردن ص116.

(3) محمد بني خالد.(2010) التكيف الأكاديمي وعلاقته بالكفاءة الذاتية العامة لدى طلبة كلية العلوم التربوية في جامعة آل بيت. مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية).مجلد24 ص416.

على أداء الطلاب فهذا يعني أنه عندما تزداد مستويات ثقة الطلاب في قدراتهم ، تزداد تبعاً لذلك مستويات أدائهم . إلا أن أغلب النماذج الإحصائية التي كانت فيها فعالية الذات متغير تابع ، كان هذا المتغير مسئولاً فقط عن نسبة صغيرة من التباين. ومن ثم تسعى البحوث المستقبلية إلى تحديد مصادر المعلومات المتنوعة عن فعالية الذات بدلا من المصادر التقليدية لفعالية الذات المتمثلة في الاستعداد والقدرة والتحصيل السابق(1).

وفي نفس السياق أشار « جولمان » اعتماداً على وجهة نظر « باندورا » إلى أن الكفاءة والفاعلية الذاتية ليست خاصية ثابتة بل هناك تنوع هائل في كيفية استخدام هذه المقدرة . فمن لديهم إحساس بالكفاءة الذاتية يمكنهم النهوض من عثرتهم لأنهم يتعاملون مع أمور الدنيا بمفهوم معالجة هذه الأمور أكثر من إحساسهم بالقلق مما يتوقعونه من أخطاء قد تحدث(2).

وعلى أساس ما سبق نستخلص أن التلميذ الذي يكون مستوى كفاءته الذاتية الاجتماعية مرتفعاً لا يرتبط بالضرورة بمستوى كفاءته الذاتية المعرفية المرتبطة بالتحصيل الدراسي.

توصيات ومقترحات الدراسة

استناداً إلى النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية ، عمدنا إلى تقديم بعض الاقتراحات كما يلي :

- إن الاكتفاء بالتعليم الأكاديمي والمقررات الدراسية ، يضيفي من الرتابة والملل على حياة التلاميذ الدراسية ويضعف من قابليتهم للتعلم والنجاح. ولذلك من الضروري توسيع عملية التعلم إلى برامج تدريبية تهتم بإكساب التلاميذ المهارات الحياتية والاجتماعية ، بغية التغلب على مشاكل العزلة الاجتماعية وعدم الاندماج مع جماعة الأقران والخوف والقلق في مواقف التفاعل الاجتماعي وضعف عملية التواصل الحيوية الضرورية في المحيط المدرسي والتي يمكن أن تكون لها نتائج سلبية على نجاح التلميذ في حياته الدراسية والاجتماعية على المدى الطويل.

- كما أن توسيع الدراسة الحالية إلى مستويات التعليم الابتدائي سيسمح

(1) عادل السعيد البنا وسعيد عبد الغني سرور. (2006) التنبؤ بجودة الأداء البحثي في ضوء معتقدات فعالية الذات لدى عينة من طلاب الدراسات العليا. مجلة مستقبل التربية العربية. المجلد 12. العدد 40. (ص 279 - 364).
(2) دانييل ، جولمان (2000). الذكاء العاطفي ، ترجمة ليلي الجبالي ، عالم المعرفة ، (262) ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

بالكشف عن الدور الذي قد تلعبه المهارات الاجتماعية ومستوى فعالية الذات في التحصيل الدراسي حيث تعتبر مرحلة الطفولة حاسمة من حيث اكتساب التلميذ الثقة بالنفس والقدرة على التواصل مع الآخرين وبناء علاقات إيجابية وبالتالي تعلم المهارات الاجتماعية الضرورية لمواجهة متطلبات الحياة بصفة عامة والمتطلبات المدرسية بصفة خاصة .

- إجراء دراسات مستقبلية أخرى للكشف عن علاقة كل بعد من أبعاد المهارات الاجتماعية بالتحصيل الدراسي وكذا علاقة كل نوع من أنواع فاعلية الذات بالتحصيل الدراسي . وذلك قد يسمح بتحديد المؤشرات الأساسية للمهارات الاجتماعية وفعالية الذات المتدخلة في عملية التحصيل الدراسي وبالتالي بناء برامج تدريبية مرتكزة على هذه المؤشرات.

- تشجيع المؤسسات التربوية والمدارس على بناء وتطبيق برامج تدريبية للتلاميذ ذوي التحصيل الدراسي الضعيف تحت إشراف مختصين نفسانيين واجتماعيين من خلال وضع استراتيجيات وخطط تربوية ذات الأولوية على مستوى وزارة التربية الوطنية لتنمية المهارات الاجتماعية لدى التلاميذ والرفع من مستويات فاعلية الذات لديهم وبالتالي التحسين من المردود التربوي بصفة عامة.

قائمة المراجع باللغة العربية:

- الرشيد بشير صالح.(2000) مناهج البحث التربوي. رؤية تطبيقية مبسطة. الكويت: دار الكتاب الحديث ، الطبعة الأولى.
- إيمان فؤاد كاشف وهشام إبراهيم عبد الله.(2007) تنمية المهارات الاجتماعية للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. القاهرة. دار الكتاب الحديث.
- حامد عبد العزيز الفقي.(1971) العوامل المتعلقة بالتلميذ. التأخر الدراسي تشخيصه وعلاجه. القاهرة. عالم الكتب. الطبعة الثانية.
- بندر بن محمد حسن الزيادي العتيبي.(1429) اتخاذ القرار وعلاقته بكل من فاعلية الذات والمساندة الاجتماعية لدى عينة من المرشدين الطلابيين بمحافظة الطائف . متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير. قسم علم النفس ، كلية التربية. جامعة أم القرى. المملكة العربية السعودية.
- دلال محمد الزعبي.(2009) تصورات معلمي المدارس لأهمية مهارات التعلم والمهارات الاجتماعية في تحقيق النجاح المدرسي للطلبة. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية. المجلد 6. العدد 3. الأردن.
- دانييل ، جولمان.(2000). الذكاء العاطفي ، ترجمة ليلى الجبالي ، عالم المعرفة ، (262) ، الكويت:المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

- سعلة أحمد إبراهيم، (2007) المهارات الاجتماعية وصعوبات التعلم. دراسة تجريبية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.
- سليمان عبد الواحد يوسف إبراهيم، (2010) المهارات الحياتية. ضرورة حتمية في عصر المعلوماتية. رؤية سيكوتربوية. القاهرة: إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى.
- شهرزاد بوشدوب، (2001) استراتيجيات التعامل أمام الضغط المدرسي وعلاقتها بالتحصيل الدراسي. رسالة ماجستير (غير منشورة). قسم علم النفس وعلوم التربية. جامعة الجزائر.
- طريف شوقي فرج، (2002) المهارات الاجتماعية والاتصالية: دراسات وبحوث نفسية. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.
- عادل السعيد البنا وسعيد عبد الغني سرور، (2006) التنبؤ بجودة الأداء البحثي في ضوء معتقدات فعالية الذات لدى عينة من طلاب الدراسات العليا. مجلة مستقبل التربية العربية. المجلد 12. العدد 40. (ص 279 - 364)
- عبد الحكيم المخلافي، (2010) فعالية الذات الأكاديمية وعلاقتها ببعض سمات الشخصية لدى الطلبة. دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة صنعاء. مجلة جامعة دمشق. المجلد 26. (ص 481 - 513)
- عبد الحميد سعيد حسن، (2009) دراسة مقارنة بالمهارات الاجتماعية بين الأطفال ذوي صعوبات التعلم والعادين في سلطنة عمان. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والنفسية. المجلد الأول. العدد الأول. سلطنة عمان.
- غالب بن محمد علي المشيخي، (2009) قلق المستقبل وعلاقته بكل من فاعلية الذات ومستوى الطموح لدى عينة من طلاب جامعة الطائف. متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في علم النفس تخصص (إرشاد نفسي). قسم علم النفس. كلية التربية. جامعة أم القرى.
- فتحي مصطفى الزيات، (1998) صعوبات التعلم. الأسس النظرية والتشخيصية والعلاجية. اضطراب العمليات المعرفية والقدرات الأكاديمية. القاهرة. الطبعة الأولى.
- كلثوم العايب، (2010) أثر التفاعل بين القلق حالة - سمة والفاعلية الذاتية على الدافعية للتعليم لدى تلاميذ السنة الرابعة من التعليم المتوسط. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير (غير منشورة). قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطونيا. جامعة الجزائر 2.
- نصر محمد العلي ومحمد عبد الله سحلول، (2006) العلاقة بين فاعلية الذات ودافعية الانجاز وأثرهما في التحصيل الأكاديمي لدى طلبة الثانوية في مدينة صنعاء. مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية. المجلد الثامن عشر، العدد الأول. الأردن.
- محمد السيد عبد الرحمان، (1998) دراسات في الصحة النفسية. المهارات الاجتماعية - الاستقلال النفسي - الهوية. الجزء الثاني. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- محمد بني خالد، (2010) التكيف الأكاديمي وعلاقته بالكفاءة الذاتية العامة لدى طلبة كلية العلوم التربوية في جامعة آل بيت. مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). مجلد 24 (2).
- مصطفى هيلات، قسيم وأحمد محمد، الزعبي ونور أحمد، شريفات (2010) أثر أنماط التعلم المفضلة على فعالية الذات لدى طالبات قسم العلوم التربوية في كلية الأميرة عالية الجامعية. مجلة العلوم التربوية والنفسية. المجلد 11 العدد 1 مارس. البحرين.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية

- Bandura. A. (1994) Self _ efficacy. In .V.S. Raunachandraun (Ed), Encyclopedia of human behavior (Vol .4, pp.71, 81). New york : Academic Press reprinted in H, Friedman. (Ed), Encyclopedia of mental health San Diego : Academic press, 1998)
- Bouteyre.E. (2004) réussite et résiliences scolaires chez l'enfant de migrants. Paris. Dunod
- Samanci. O. (2010) Teacher views on social skills developpement in primary school students. Education ; fall 2010, Vol. 131 . Issue 1. pp 147 , 157, 11p, 4 charts.

Ebschost, Bibliothèque universitaire , Université d'Alger, 28decembre 2010.

- _ Schwartzer. R ; Luszczynska.A ; Guttiénez.Dona,B. (2005) general self _ efficacy in various domains of human functioning : Evidence from five countries. International journal of psychology,40 (2) pp 80 - 89.
- _Schwartz.R ;Scholz.U ;Guttiénez.Dona,B ;Sud.S.(2002)Is general self _efficacy a universal construct ? Psychometric Findings from 25 countries. European journal of psychological Assessment,Vol 18 (3) pp 242 - 251.
- _Whitted. K. (2011) Understanding how social and emotional deficits contribute to school failure.Preventing school failure, 55(1),10 - 16.